

مايكدورون
جوزيف غيلمان
ترجمة: محمود علي ماهر

إصداران سطور الجديدة

سري للغاية من اسرائيل

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلي
الذي أصبح أحد اباطرة هوليوود

TOP SECRET



العوالم حسين جميل

هذه القصة المثيرة

، عن عميل سرى

، عن الاضطراب النووي

، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية

، عن التوجه الفكرى

... وعن المسيرة العملية المريبة لإسرائيلى غامض من أباطرة هوليوود

أرنون ميلتشان ، الجاسوس الإسرائيلى و تاجر السلاح ، فقير الموهبة و الحس

الفنى ، تم فرضه على المشهد السينمائى الأمريكى بفضل علاقاته بيهود هوليوود

وعلاقاته بمذراء الاستديوهات الكبرى ، و ذلك من قبل الاستخبارات الإسرائيلية بعد فشله

الذريع كعميل استخباراتى . إلا أن ميلتشان أثبت أيضا فشله الذريع فى مجال الإنتاج

السينمائى.

لقد أيقنتُ بعد ترجمتى هذا الكتاب أن الكيان الصهيونى لا يستهدف المنطقة العربية

وحدها بالدمار و إشاعة الفرقة وأنه لا يجعل منها عدوه الوحيد حيث نكتشف أن إسرائيل

تتعامل بنفس الروح العدائية و سوء النية مع دول تزعم أنها حليفاتها. ولنا فى تجسسها

على الولايات المتحدة و الاعيائها مع جنوب إفريقيا العنصرية أمثلة على ذلك حيث كانت

تتقاضى أموالاً طائلة من نظام الحكم العنصرى السابق فى جنوب إفريقيا بواسطة

ميلتشان و غيره مقابل الترويج له عبر وسائل الإعلام فى مختلف الأنحاء و نظير

.. الحصول من جنوب إفريقيا على اليورانيوم لمفاعل ديمونة النووى الإسرائيلى



سري للغاية...
من إسرائيل!

إصدارات سطور الجديدة

رئيس مجلس الإدارة: د. فاطمة نصر

المستشار الفني: حسين جويل gopy_art@yahoo.com

سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلي
الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

تأليف: ماثير دورون - جوزيف غيلمان
ترجمة: محمود على ماهر

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب
CONFIDENTIAL

The Life of Secret Agent
Turned Hollywood Tycoon
Arnon Milchan
المؤلف: Meir Joseph - Doron Gelman
دار نشر: Gefen Books, 2011

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر
طبعة سطور الجديدة ٢٠١٥

- الكتاب: سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلي

الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

- تأليف: ماثيو دورون - جوزيف غيلمان

ترجمة: محمود على ماهر

- غلاف: حسين جبيل gopy_art@yahoo.com

- المراجعة اللغوية: عمر حسن الشناوى omar_shenawy@yahoo.com

الطبعة ج ٢٠١٥

رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٧٢٦٤

الترقيم الدولى: 978-977-5296-115

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلف

٨ و ٢٢ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٢٤٠٠٢٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com

صفحة فيس بوك

www.sutouralgadida.com

بيانات الفهرسة

ماثير دورون - جوزيف غيلمان

سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلي

الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

ترجمة: محمود على ماهر

ط ١- (القاهرة: مكتب سطور للنشر ٢٠١٥)

مكتب سطور، ٢٠١٥

ص، سم ١٧ / ٢٤

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٥٢٩٦١١٥

١- سرى للغاية... من إسرائيل!

حياة أرنون ميلتشان العميل الإسرائيلي

الذى أصبح أحد أباطرة هوليوود

أ - على ، محمود (مترجم)

ب- العنوان: ٨ و ٢٢ تقسيم الشيشيني بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت: ٢٠٢٤٠٠ / ٢٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address:sutour@linh.net

الموقع الإلكتروني

www.sutour2.com

إهداء

إلى كل شهداء القوات المسلحة المصرية ومصائبها وأبطالها ، والمخابرات
العامة المصرية، وقوات المقاومة الشعبية فى نضالهم ضد الكيان الصهيونى
المحتل وبولة إسرائيل منذ حرب فلسطين ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا .

الترجمة

مقدمة المترجم أو... الخلاصة!

منذ بدأت في ترجمة هذا الكتاب وأنا أحلم بال لحظة التي أبدأ فيها كتابة رأيي فيما جرى العرف على تسميته «مقدمة المترجم» وأسميه أنا «الخلاصة». ذلك لأنه يحوى خلاصة رأيي في عمل استغرقت قرابة الأربعة أشهر في ترجمته. لكن قبل أن أبدى رأيي، أود أن أروى لكم تلك الحكاية الموجزة.

ذات يوم، هرعت كعادتي لدى استيقاظي، إلى تصفح آخر الأخبار الإلكترونية على فيسبوك، أو على غيره من المواقع الإخبارية. وجدت أن صفحة قناة "mbc2"، والتي تعد أشهر قناة تبث أفلاماً أجنبية مترجمة في العالم العربي، قد نشرت خبراً عن أرنون ميلتشان، المنتج الهوليوودي الشهير فاحش الثراء، والذي خرج عن صمته لأول مرة، واعترف في لقاء على القناة العاشرة الإسرائيلية، والتي يمتلكها مناصفة مع حاييم صبان، رجل الأعمال الإسرائيلي مصري الأصل، بأنه كان في الأصل جاسوساً إسرائيلياً، وأن الأموال الطائلة التي جناها من إنتاج الأفلام، كانت تذهب لدعم الترسانة النووية الإسرائيلية. وبحث موجز، وجدت أن صحفيين أحدهما إسرائيلي يدعى مائير دورون، والآخر أمريكي تطوع في الجيش الإسرائيلي

واسمه جوزيف جيلمان، قد ألفا كتاباً عن حياة المدعو أرنون ميلتشان وأسمياه "Confidential" أو سرى للغاية.

اتصلت بدار نشر سطور، والتي كانت قد نشرت لى كتابى المعنون «يهود هوليوود» وأخبرتها بأمر ذلك الكتاب الجديد، وبصلته الوثيقة بكتابى الأول، وباستعدادى للقيام بترجمته. وبالفعل، قامت دار النشر باقتناء النسخة الإنجليزية من الكتاب، وأناطت إلى مهمة ترجمته، الأمر الذى أسعدنى، ذلك لأننى كنت أعرف يقيناً أنه يحمل الكثير من المفاجآت. وأوجز فى النقاط التالية «إنجازات» الجاسوس «المبدع» أرنون ميلتشان:

١- فشل جميع شبكات التجسس التى كونها منذ تجنيده للعمل لحساب الاستخبارات الإسرائيلية فى مطلع الستينيات وسقوطها.

٢- خيانتته وتنكره لعظم العملاء الذين جندهم للعمل لصالح وكالة الاستخبارات الإسرائيلية «لاكام» والتي كان من أهم مؤسسيها، هذا على الرغم من خدمتهم له وللوكالة بكل تفان. لكنهم ما إن سقطوا فى أيدي أجهزة استخبارات بلادهم، حتى تنكر لهم هو وإسرائيل، ولنا فى قصتي ريتشارد كيلى سميث وجوناثان بولارد، الأمريكيين اللذين تجسسا لصالح إسرائيل واللذين سنأتى على ذكرهما مثالاً على ذلك.

٣- سيرد فى هذا الكتاب صور بشعة للخيانة من جانب الإدارة الإسرائيلية متمثلة فى وكالاتها الاستخباراتية لجميع الدول التى تزعم إسرائيل أنها من أقوى حلفائها مثل فرنسا، وإيران فى عصر الشاه، وجنوب إفريقيا بل والولايات المتحدة. نراها تسرق منها أحياناً، وتنقلب عليها أحياناً أخرى، بل وتتجسس عليها أيضاً. والأعجب أن الولايات المتحدة هى من أكثر الدول التى ضببطت إسرائيل تتجسس عليها، بمثل تتجسسها على إسرائيل.

٤- يتكشف لنا أيضاً أن الجاسوس ميلتشان زير نساء من الطراز الأول، أو أنه من أكثر الرجال وضاعة وخيانة لزوجاته وعشيقاته، ولنا فى قصة زوجته الأولى بريجيت جونمير التى حفيت قدماء لينال رضاها، ثم خانها وهى لم تنجب بعد طفلها الأول، مثال.

٥- أوضحت فى كتابى «يهود هوليوود» أنه عُرف عن اليهود، فى مجملهم، أن عقليتهم مادية نفعية، الأمر الذى يحرمهم من فرص التمتع بالموهبة الفنية الحقيقية والإبداع الأصيل، ويجعل جل همهم جنى أكبر قدر من المكاسب المادية واللوچستية. ولو على حساب أبنائهم وذويهم. يتجسد

هذا فى شخص أرنون ميلتشان، تاجر السلاح -حسب وصف الكثير من أعضاء الوسط السينمائى الأمريكى له- فقير الموهبة والحس الفنى، والذي تم فرضه على المشهد السينمائى الأمريكى بفضل علاقاته بيهود هوليوود وعلاقاته بمدراء الاستديوهات الكبرى، وذلك من قبل الاستخبارات الإسرائيلية بعد فشله الذريع كعميل استخباراتى. إلا أن ميلتشان أثبت أيضاً فشله الذريع فى مجال الإنتاج السينمائى حيث قام بإنتاج ما يربو على ١٢٠ فيلماً على مدار أكثر من ٢٥ عاماً، ولم ينجح منها سوى ثلاثة أفلام أو أربعة على أكثر تقدير، وترك لنا رصيداً هائلاً من الأفلام التافهة التى فشلت مالياً وجماهيرياً.

٦- أخيراً وليس آخراً، لقد أيقنت بعد ترجمتى هذا الكتاب أن الكيان الصهيونى المحتل المتمثل فى دولة إسرائيل لا يستهدف المنطقة العربية وحدها بالدمار وإشاعة الفرقة وإثارة النزاعات ولا يجعل منها عدوه الوحيد. حيث نكتشف فى هذا الكتاب أن إسرائيل تتعامل بنفس الروح العدائية وسوء النية مع دول تزعم أنها حليفاتها. وربما فسر هذا الكتاب سر عدم ثقة كثير من الدول فى دولة إسرائيل. مثلاً، سنكتشف من قراءتنا للكتاب أن إسرائيل، ممثلة فى أرنون ميلتشان وغيره من العملاء، كانت تتقاضى أموالاً طائلة من نظام الحكم العنصرى السابق فى جنوب إفريقيا مقابل الترويج لنظام التفرقة العنصرية وسياسات الفصل العرقى واستهجان البشر عبر وسائل الإعلام فى مختلف الأنحاء، وأيضاً مقابل الحصول من جنوب إفريقيا على اليورانيوم لمفاعل ديمونة النووى الإسرائيلى.

نحتاج إلى قراءة هذا الكتاب بعناية وتمعن، حيث إننى حرصت على أن أتى بالمعلومة من مصدرها، بحيث لا يمكن لأحد أن يتهمنى بالتعصب وعدم

الموضوعية أو «معاداة السامية». فقد قاموا هم بنشر غسيلهم القذر وكشف
مؤامراتهم الدنيئة وخيانتهم حتى لأقرب حلفائهم، وتفاخروا بها على أنها
إنجازات وبطولات في سبيل الوطن!

المترجم

كنت أفضل ألا يكتب أحد كتاباً عنى
أرنون ميلتشان

فى مساء ١٨ سبتمبر ٢٠٠٨، كان من السهل أن يعتقد المرء خطأ أن
هناك افتتاحاً لفيلم ضخم فى استوديو باراماونت، إذ وصلت الأضواء
الاستكشافية الساطعة لعنان السماء بينما كان النجوم المشاهير يسيرون
على البساط الأحمر ويصحبهم وميض الكاميرات الذى يعمى الأبصار. لكن
هذا الحدث كان مختلفاً، إذ كان السبعمئة وكذا من الحضور كلهم من
المديرين التنفيذيين للاستوديوهات ومن قادة المجتمع، والذين لم يتوا
لتكريم فيلم بل... رجل.

وصل أرنون ميلتشان مع زوجته أماندا، وبدأ غير مرتاح في بذلته الرسمية، أو وسط كل هذا الاهتمام الفائق به. سرعان ما سعى للاختفاء بين حشود الحضور. لكن لم يكن هناك سبيل للهروب من كل الخطابات التي تمتدحه، ومن الفيلم المفصل الذي يوثق إنجازاته السينمائية.

وبالرغم من أن اسمه مرتبط بأقلام ضخمة في هوليوود مثل امرأة جميلة وحرب عائلة روز وسيرى في لوس أنجلوس ونادى القتال والسيد والسيدة سميث، وملحمة المؤامرة التي أخرجها أوليفر ستون أو فيلم جيه إف كيه، فلم يكن سوى القليلين من الجمهور على دراية بالحياة الخاصة للرجل الذي كانوا على وشك تكريمه بمنحه جائزة أفضل إنجازات العمر. وكإعادة صياغة لما قاله ونستون تشرشل فميلتشان عبارة عن لغز ملفوف في سر غامض بداخل أحجية، وهذا الكتاب يكشف عنه هذا الغطاء الغامض.

هذه هى القصة المثيرة للجدل عن عميل سرى، عن الانشطار النووى، عن صفقات بمليارات الدولارات لمعدات دفاع عسكرية عالية التقنية، عن التوجه الفكرى، عن الوطنية، وعن المسيرة العملية المريبة لواحد غامض من أباطرة هوليوود.

أرنون ميلتشان الذى ولد فى إسرائيل عام ١٩٤٤، عاش الحياة التى أحب كل من إيان فليمينغ وجون لو كاربه أن يكتبها عنها، والتى يروق لستيفن سبيلبرغ أو ربما حتى أوليفر ستون أن يصنعوا فيلماً عنها. ميلتشان يحب المخاطرة، ساحر لكنه قوى الشكيمة، كتوم لكنه مشهور... فقط فى أوساط المشاهير. كان عميلاً سوير بكل معنى الكلمة، وأقرب ما يكون لشخصية حقيقية لجيمس بوند. وهو خبير فى أنواع النبذ الفاخرة والمقامرة بمبالغ طائلة، والخداع، والسيارات الغريبة، والأسلحة العجيبة، ويملك مجموعة فنية خاصة تقدر بـ ٦٠٠ مليون دولار متناثرة فى منازله بكافة أنحاء العالم، من موناكو إلى جنوب إفريقيا، ومن باريس إلى مالىبو إلى إسرائيل.

لقد بدأنا هذه المحاولة الكتابية ككاتبين لسيرته دونما ترخيص منه وسرعان ما وجدنا أنفسنا نضطلع بمهمة المخبرين السريين وأصبحنا كمحققين نرفع طبقات متتالية من الأغشية الخفية، ونكشف عن قصة رجل فريد وعن تورطه العميق في صراعات إسرائيل السرية للبقاء.

لعدة أشهر ويدون علم ميلتشان أو موافقته، انغمسنا في سجلات المحاكم والمقالات غير المعروفة في كل من الصحافة العبرية والإنجليزية، بالإضافة إلى الروايات والمذكرات الخاصة. واعتمدنا بشكل كبير على معرفتنا المباشرة بالثقافة واللغة التي انبثق منها موضوعنا، وتحدثنا مباشرة مع الشخصيات الأساسية المذكورة في الكتاب، وزرنا معظم المواقع المذكورة به.

بذلنا كل الجهد لتوثيق الوقائع بأكبر قدر ممكن من الصدق والتكاملية والحيادية والصحة، وبوضع الأمور في سياقها التاريخي الكامل. قمنا باجتزاء العديد من المقولات المأخوذة عن ميلتشان أو آخرين المستخلصة أو المترجمة من مقابلات نادرة أجريت على مدار عقود في الصحافة العالمية. تتضمن المصادر الأخرى السيرة الذاتية لجد ميلتشان والتي نشرها بنفسه، بالإضافة إلى سلسلة من المخطوطات غير المعروفة الواقعية والمختلفة، والمكتوبة تحت اسم مفترض لشخص ذي علاقة مباشرة بحياة ميلتشان السرية. ولقد اكتشفنا هذا الكاتب بواسطة عملية بحثية، وواجهناه شخصياً، وتكلمنا من صحة هويته.

وما أن انتهينا من إعداد المخطوطة، فاجأنا بها ميلتشان ومنحناه الفرصة للرد. في البداية كان متردداً وربما حتى متخوفاً، وفي النهاية وافق على مقابلتنا بعدما قدمنا له كل التطمينات بنوايانا الحسنة الشريفة. وخلال القليل من الاجتماعات الودودة، تمكنا من التحقق من صحة معظم التصريحات الواردة بهذا الكتاب، وصححنا العديد من أخطاء الوقائع. ومن جانبه، فقد رفض ميلتشان تأكيد أى من التصريحات العديدة الحساسة الخاصة بالأمن أو إنكارها. ومع ذلك وعبر أرفع مستويات السلطة في إسرائيل تحققنا

جيداً من مجمل الحقائق الحساسة محل الخلاف والمتعلقة بالأمن الإسرائيلي، والتي يعج بها هذا الكتاب. كان هناك العديد من المصادر، لكن أهم التأكيدات جاءت على لسان الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز نفسه، في مقابلة خاصة أجريتها معه في مقر الرئاسة بالقدس في ٨ فبراير ٢٠١٠ وقال:

أرنون رجل متميز وأنا من جندته، للعمل السرى خارج النظام الرسمى، وأسهم بأفكار مذهلة ومستوى من الإبداع ساهم بشكل رائع في خدمة بلدنا. عندما كنت وزير الدفاع، كان أرنون معنياً بالعديد من الأنشطة الشرائية الخاصة بالدفاع العسكرى والعمليات الاستخباراتية. وكان مناط قوته صنع علاقات على أعلى المستويات في عدة دول حول العالم، ومنها دول هامة لا تربطها بإسرائيل علاقات رسمية. ولقد قدمت نشاطاته فوائد هائلة لنا استراتيجياً، ودبلوماسياً، وتكنولوجياً ولا يزال أرنون يقوم بذلك حتى يومنا هذا، لكن على الصعيد الاستراتيجى فحسب.

أناس قليلون في هوليوود أو في أى مكان على تربة بإنجازات ميلتشان «البطولية»، والعديد من أصدقائه المقربين سيفاجئون عندما يقرعون ما يلى. أخبرنا سامر ريديستون مالك شركة الإعلام الضخمة (فياكوم) إنه «خارج نطاق الهمسات والأفلام، لا يعرف سوى القليلين نور أرنون في إمداد إسرائيل بحاجاتها للدفاع العسكرى، وتكوين قدراتها الرادعة المتقدمة. أنا ومعظم الناس لا نعرف تفاصيل ذلك، لكننى أميل إلى الاعتقاد بأنه رجل عظيم. بالنسبة لى هو السيد إسرائيل، إذ عرفنى على جميع رؤساء وزراء إسرائيل منذ الثمانينيات».

قال عنه روبرت مردوخ أهم أباطرة الإعلام العالمى ومدير نيوز كوريريشن: أرنون ميلتشان رجل متعدد المواهب شغوف بكل ما يقوم به، فهو رجل أعمال إسرائيلى، وسياسى إسرائيلى متحمس، ومنتج هوليوودى وجامع رائع للأعمال الفنية. إنه صديق وفى وكريم يتصانف أنه أيضاً شريك قديم عظيم وأهل الثقة.

أيضاً قال عنه بيتر شيرنين مدير ورئيس مجلس إدارة فوكس إنترنتمنت ذات مرة مازحاً "إياك أن تقول نكاتاً عن رجل يستطيع بسهولة جلب أسلحة دمار شامل".

فى الواقع ربما لا يكون الكثيرون على دراية بتفاصيل حياته السرية، لكن يكاد كل شخص يعيش على هذا الكوكب أن يعرف العديد من إسهاماته فى ثقافتنا الشعبية السينمائية. ولذا أسمينا كل فصول هذا الكتاب بأسماء أفلامه.

وكئى شخص يعمل فى هذا المجال فقد ارتكب بعض الأخطاء الفادحة، وتورط فى العديد من المساعى المثيرة للجدل، واحتك بالعنصرية بطريقتة خاطئة ويبدو أنه يثير الكثير من النقد اللاذع أو حتى الغيرة من بعض ضحاياه، بالرغم من ذلك فإن كثيراً منهم مستعدون للعمل معه مجدداً.

يسعى هذا الرجل نو الشخصية المركبة والذى عاش لفترة طويلة بأوجه متعددة عن طريق تقسيم حياته أجزاء مستقلة عن بعضها لإيجاد بدائل وسبل عامة لترك أثره على هذا العالم، بتخطى جمع الاستخبارات، وشراء معدات الدفاع العسكى عالية التقنية، والأفلام الضخمة فى هوليوود. ميلتشان ضالع بشدة فى السياسة، أو على حد قوله ناشط سياسى قوى وراء الكواليس. ومنذ أعوام كان ينزعج بشدة لجرد ذكر كلمة السياسة، كما كان ينزعج من لفظ ثرى خاصة عندما يشير إليه، لكن الوقت والخبرة عملا على شفائه من هذا الانزعاج.

لم يكتب أرنون بعد فصله الأخير وقد بلغ الخامسة والستين من عمره. ولا يزال يرى فرصته التالية، وحلمه التالى، وفيلمه المقبل، كفرصة لإحلال السلام فى الشرق الأوسط!!

وكما فى أى فيلم ضخيم فى هوليوود، ففيلم الإثارة المتمثل فى حياته حتى الآن، سيكون له جزء ثان بأسلوب أو آخر.

رجل يحترق

كنت مسافراً، ولم يكن لى أدنى علاقة بهذا المجال على الإطلاق فى ذلك الوقت
أرنون ميلتشان فى برنامج ٦٠ دقيقة، ٥ مارس ٢٠٠٠

أرنون ميلتشان كان منفعلاً... منفعلاً للغاية، إذ تلقى مكالة هاتفية فى شقته فى
باريس من محرر فى جريدة نيوزويك يسأله فيها عن رد فعله تجاه الاتهام الصادم للدكتور
ريتشارد كيلى سميث، رئيس شركة ميلكو ليميتد، وهى شركة تعمل كواجهة للاستخبارات
الإسرائيلية، لشحنه أنابيب الكرايترون لإحدى شركات ميلتشان فى تل أبيب.

العلانية شيء يحاول أى عميل سرى تجنبه، وكان ميلتشان ييغضها بخاصة.

وفى الأيام التالية أفادت الصحف العالمية بأن أنابيب الكرايترون تستخدم كمفاتيح تشغيل متطورة لتفجير القنابل النووية. فى الواقع فأنابيب الكرايترون موجودة منذ أواخر الثلاثينات، لكن استخدامها هى وأشياء أخرى، كميكانيكية أولية لإطلاق الأسلحة النووية، لم يكن معروفاً لعامة الناس حتى ذلك اليوم بعينه فى مايو ١٩٨٥ .

وتنبأ المحللون الإعلاميون بتبعات حادة على العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، ووفقاً لسميث فقد دفعت شركة ميلتشان إياه دفعاً لشراء أنابيب الكرايترون، وكان يعرف جيداً الغرض منها وأنها من المواد شديدة الحساسية والتي جمعها ميلتشان على مر السنين من أجل بلده.

وفى المجلد فقد طلبت شركة ميلتشان والمسماة هيلى تريدينغ ليميتد ٨١٠ أنبوبة

كرايترون، شحنها من سميث من دون الحصول على رخصة بتصدير النخيرة التي تتطلبها وزارة الخارجية، وتدخلت إدارة الجمارك الأمريكية والمباحث الفيدرالية وتآزم الموقف. وأصبحت صفقة شركة ميلكو معرضة للخطر. وخشى ميلتشان من أن يلاحقه قضائياً المدعى العام الطموح سياسياً والمحِب للظهور.

وبعد حديث قصير مع محرر مجلة نيوزويك، كان معظمه يدور في فلك ادعاء الجهل بالأمر، حجز ميلتشان على أول رحلة جوية متجهة إلى تل أبيب، وخلال ساعات احتشدت فرق القنوات التلفزيونية والمصورون أمام البناية التي يملك فيها شقة علوية، وأخذ الهاتف يرن بشكل جنوني، ولم يلق ميلتشان بالاً لكل ذلك.

لكن كانت هناك مكالمة بعينها. لم يستطع ميلتشان تجاهلها... تلك التي كانت من أمه شوشانا، والتي بعد أن استطاعت الوصول له أخيراً عبر الهاتف أجهشت بالبكاء

وقالت الجميع ينعتون ابني بأنه تاجر سلاح، وهذا شيء محرج. حزن أرنون لهذا بشدة. إذ لم ير نفسه يوماً كتاجر سلاح، والآن أمه نفسها تتهمه بذلك صراحة.

"أمي! لا أحد يتهم بوينغ ولا روكويل بتجارة السلاح، ولا أحد يقول إن شركة رايتيون تتاجر في السلاح. تلك هي نوعية الشركات التي أعمل معها. وليس الأمر وكأنني أشعل الحروب في دول العالم الثالث وأشحن إليها الأسلحة. إنما أفعل هذا لمساعدة بلدنا على البقاء".

لم يمثل هذا عزاء للأم والتي لم يكن لها أي معرفة بمثل تلك الأمور، إنما كانت تعرف فقط أن عليها مواجهة نميمة الجيران، وعلى ذلك الصعيد فقد وقع الضرر بالفعل.

لم يهتم ميلتشان بذكر ذلك الأمر لمن يسوسونه في وكالة لكام، وهي وكالة شديدة السرية ضمن شبكة إسرائيل الاستخباراتية المعقدة وكانت معروفة للولايات المتحدة في ذلك الوقت. وسرعان ما ارتدى حلة التمرين وغادر المبنى، على أمل ألا يتعرف عليه أي من الصحفيين. فالبرغم من كل شيء لم يكن شخصية مشهورة، ولم تكن له إلا صور قليلة متداولة، إن كان ثمة مثل تلك الصور على الإطلاق.

ونجحت خدعته، وخرج من المبنى، وأقبل عليه عدد هائل من الصحفيين من الواضح أنهم كانوا لا يعرفونه، لذا أخبرهم بأن السيد ميلتشان قد ذهب إلى مكتبه في يافا في الجهة الأخرى من المدينة. وتفرق الصحفيون في مطاردة وهمية محمومة بينما ركب ميلتشان سيارته في هدوء وقادها مباشرة إلى القدس لحضور اجتماع خاص مع صديقه الحميم ومعلمه، رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك شمعون بيريز، وقاله له:

"شمعون، إنهم يتهمونني بأنني أفعل ذلك من أجل مكاسب شخصية. وأنت تعرف أنني لم أفعل ذلك لأجلي، بل فعلته لأجل الوطن. والآن أطلب مساعدتك".

وأنصت بيريز فى صمت ثم قال:

ماذا تتوقع أن يفعلوا يا أرنون؟ وماذا تريد منى أن أفعل؟

ورفع أرنون صوته بحدة لكن باحترام يائس:

لا أعرف يا شمعون! اتصل بريجان أو أى من كان لإصلاح ذلك. لم أكون أنا
القربان؟

وساد صمت طويل، ثم أردف بيريز:

أرنون! ماذا تريد منى أن أفعل؟ أخرج علناً وأبين كيف اجتمعت برئيس الولايات
المتحدة لاستغلالك فى جلب أشياء لإسرائيل لا يمكن جلبها عبر القنوات المعتادة؟
واستمر أرنون فى توسله.

"كل ما أطلبه هو فعل شىء للخروج من هذه الأزمة".

تعاطف معه بيريز وشعر كأنه أب له، لكنه لم يعده بشىء:

"دعنى أفكر بعناية كيف أتعاطى مع هذا الموقف، وفى الوقت الحالى، أريدك أن
تذهب إلى المنزل وتحاول الاسترخاء".

وكان بيريز يعرف جيداً أنه لا سبيل للاسترخاء بالنسبة لأرنون ميلتشان، وكان
يعرف أنه من أكثر العملاء المبدعين والمنتجين ممن جندتهم الاستخبارات الإسرائيلية.
وعلى مر السنين قدم له مديرو وكالة لأكام بدءاً من بنيامين بلامبيرغ إلى خلفه رافى
إيتان قائمة طويلة من الأشياء شديدة الحساسية والمطلوبة لبرامج الدفاع العسكرى
الإسرائيلى السرية، ومواد أخرى مستحيلة المنال متعلقة بالدفاع العسكرى، وعبر
شبكة معقدة من شركات الواجهة فى أنحاء العالم، حصل أرنون على تلك الأشياء ويزَّ
فى هذا الجميع.

وكانت مهمة ميلتشان هي توفير تلك الأشياء المطلوبة باللجوء إلى جميع الوسائل الضرورية: كل شيء كان مباحاً! وفي المقابل تعامله الحكومة كأمر وسط شعبه. كان يعمل في مهام لأجلنا، ولذا إن واجه أية متاعب، شعرت أنه من واجبنا أن نساعد، هكذا قال شمعون بيريز.

لم تكن القواعد التي كانت تطبق على الآخرين تطبق على ميلتشان، ربما لم تكن تلك رخصة بالقتل تحديداً، لكنها أقرب ما تكون من ذلك. إذ فتح باسمه حسابات مصرفية سرية لدولة إسرائيل، حسابات استخدمت لتمويل أكثر العمليات الاستخباراتية الإسرائيلية سرية وخطورة في كل أنحاء العالم. ثم راهن بثروته الشخصية المتزايدة عبر هوليوود وبعض أشهر الأفلام التي أنتجت وأكثرها ربحاً، مما جعله أيقونة للثقافة الشعبية السينمائية وأحد أغنى الرجال في العالم في تلك الأثناء.

وعندما وصل إلى شقيقه بعد لقائه مع بيريز، رأى أيضاً أن عصابة الصحفيين قد عانت من المطاردة الوهمية المحمومة وكانوا مستائين. وعلى عكس ما نصحه به كل من حوله، وفقاً لما قالت إيتي كانر مساعدته الشخصية، وافق ميلتشان على دعوتهم لبيته في مؤتمر صحفي وجيز، على أمل تهدئتهم، ومضى يشرح أنه لا علاقة له بصفقة الكرايترون ولا يعرف تفاصيلها.

لم يُعرف قط ما إن كان بيريز قد أجرى تلك المكالمات الهاتفية مع ريجان، لكن كان من الواضح أن إجراء آخر قد أنجز... إجراء كان الجزء الذي تم الكشف عنه كافياً لتغيير حياة الكثيرين.

العهد الجديد

عندما أخبرت عرفات بلتني إسرائيلى من الجيل الحادى عشر، أخبرنى بلتني فلسطينى أكثر منه

أرنون ميلتشان

فى السادس من ديسمبر عام ١٩٤٤، ولد طفل فى المستشفى الواقع بشارع بنيامين بمدينة روهوفوت اليهودية الصغيرة المؤثرة فى ظل ما كان يُعرف بالانتداب الإنجليزى بدفلسطين».

كانت تلك أياماً قاسية متأرجحة في التاريخ الإنساني، حيث كانت «أوروبا» تشتعل والعديد من أعضاء العائلة الممتدة لذلك الطفل حديث الولادة قد قضوا نحبهم ومُحِي أثرهم. كانت تلك أحلك الساعات. ومع ذلك فقد أخبرنا الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز بأن أرنون قد وُلِدَ بينما كانت الشمس تبدأ في الشروق، وعاش مذاك حياة مشرقة.

يمكن اقتفاء أسلافه من جانب أصلهم إلى المفسر التوراتي في العصور الوسطى راشي، ومن الجانب الآخر حتى الملك داود تقريباً.

وقف والد دوف منفعلاً خارج الغرفة بينما أطلت الممرضة برأسها من الباب لتعلن إنه ولد، وسرعان ما انهال عليه أفراد العائلة والأصدقاء يحتضنونه ويقبلونه ويقولون مبروك!

عاش سكان مدينة روحوفوت كعائلة واحدة. وتمازجت حياتهم العامة والخاصة. وساد شعور بأن الجميع يجلسون في نفس القارب، ويجدّفون تجاه الشاطئ المجهول وفق ما كتبه جده حاييم إلعازر، والذي كان قد وصل لشواطئ الأرض "المهجورة" قادماً من بولندا في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر.

اختار أبواه دوف وشوشانا لابنهما الوحيد اسم أرنون، وهو اسم توراتي لنهر يمر خلال جبال مؤاب والتي تقع حالياً في الأردن، ويجري غرباً تجاه السواحل الشرقية للبحر الميت، وفي العهود القديمة كانت تلك مملكة المؤابيين، وكانوا قوماً عاشوا أغلب الوقت في صراع مع جيرانهم من بني إسرائيل في الغرب.

ومن المفارقات أن اسم العائلة ميلتشان مشتق من الكلمة البولندية ميلشيك والتي تعنى الصمت أو كتم السر، وهى فضيلة ستثبت جدواها فى السنوات التالية.

وفى عام ١٩٤٤ كانت روحوفوت مركزاً إقليمياً نشطاً يسكنه بضعة آلاف من السكان، وأحد أكثر المستوطنات ازدهاراً اقتصادياً بفلسطين تحت حكم الإنجليز. كانت تقع بين التلال المنحدرة والأرض الوارفة بأشجار البرتقال وكرمات العنب، والتي كدّ فى زراعتها جد أرنون، وكانت أحد تلك الأماكن التي لا يوصد أحد فيها بابه، وكان الأطفال يلعبون بحرية، وكان جميع الناس تقريباً يعرفون بعضهم.

نشأ أرنون فى عائلة كبيرة ممتدة، يركض ما بين كرمات العنب وبساتين الليمون ويلعب بلا نهاية مع أصدقائه فى الحقول المفتوحة بين البيوت حتى يحل الظلام، وباستثناء النزاع العربى الإسرائيلى الذى كان قائماً ، والذى لم يكن شأناً ذا أهمية كبيرة آنذاك، فقد كانت حياة أرنون رغيدة مثالية.

ذلك الإحساس كان النقيض التام لعالم البالغين من حوله، وما كان يجهله هذا الصبى، أن أحد أهم مصانع السلاح اليهودية كان مخفياً تحت قدميه، أسفل مخزن المدينة لتعبئة الحمضيات، وكانت عائلته تعمل فى تصنيع المتفجرات متخفية وراء مشروع السماد الخاص بهم، وكل هذا ضمن النضال الأشمل من أجل استقلال اليهود.

وفى مساء ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧، تجمع كل سكان المدينة بمن فيهم أرنون ذو الثلاث سنوات محمولاً بين ذراعى والدته شوشانا - حول المقهى الرئيسى وأنصتوا بعناية للمذيع بينما كان يعلن نتائج التصويت على قرار

الأمم المتحدة رقم ١٨١ .

وافق المجتمع الدولي على إنشاء وطن يهودى قومى بفلسطين، التى كانت تحت الانتداب البريطانى، وانتشرت بسرعة موجة عارمة من الفرح العفوى والارتياح ما بين الجموع، والذين بكوا ورقصوا وغنوا طوال الليل.

وبعد ٦ أشهر أعلنت إسرائيل استقلالها. بلد صغير يتألف أغلبه من المزارعين والتجار، والناجين من الهلوكوست والذين أصبح عليهم الاستعداد للمهمة المروعة لمواجهة الهجوم العسكرى المرتقب على "أرض الميعاد".

ولم يكن هناك وقت للاحتفال بعد الليلة الأولى، وكما توعدوا، هاجمت كل الدول العربية المحيطة الأمة الوليدة، ضعيفة التسليح، قليلة العدد، قبل أن تجمع شتات نفسها.

قُصِفَتْ روحوفوت ٩ مرات جويًا من قبل القوات الجوية المصرية، وقتل وجرح عشرات الأفراد فى المدن الصغيرة، وقصفت العديد من المنازل ومبنى دار البلدية الأصلى، وكان على مسافة قصيرة من منزل ميلتشان، ودُمر كلياً فى انفجار مدو، وهرع أرنون ذو الأربعة أعوام آنذاك مثل جميع الأفراد للاحتباء بالخندق المؤقت المحفور فى الباحة الخلفية لمنزله.

ستكون للمحرقة والنزاع العربى الإسرائيلى المستعر والذى تفجر من حوله أثناء طفولته المبكرة، بطبيعة الحال بالغ الأثر على معظم حياته ومواقفه، ومجازياً... لم يكن له أن يغادر روحوفوت بأسلوب فعلى.

وعلى مر السنين، تطورت المدينة ومحيطها المتاخم من المجتمع المتوسطى الزراعى العتيق والذى ساهم جد أرنون فى تأسيسه فى مطلع القرن إلى

مركز تكنولوجى وعلمى ضخم، مركز مصيرى لوجود إسرائيل نفسها. وتعد المنطقة كلها كعش دبابير عملاق، زاخرة بالأنشطة الأمنية باللغة السرية، وبمؤسسة بحثية مشهورة عالمياً، ومجهزة نووياً، وبقواعد صواريخ متوسطة المدى، وببرامج أسلحة كيمياوية وبيولوجية شديدة التطور، وبأسطول نووى فى قاعدة تل نوف الجوية القريبة، ومصنع لإنتاج المياه الثقيلة، وأكثر من ذلك بكثير. ولعب أرنون دوراً فى تحقيق كل ذلك.

بعد عام من انتهاء الحرب فى ١٩٥٠، نشب خلاف بين والد أرنون وأعمامه الثلاثة حول من يتولى إدارة الأجزاء المختلفة فى شركة العائلة ميلتشان وأبنائه، وتم التوصل إلى اتفاق يتولى دوف والد ميلتشان بموجبه إدارة مشروع الأسمدة، ويتولى إخوته الآخرون بقية المشاريع، بما فيها شركة توزيع الوقود والتي سرعان ما أصبحت الجزء الأكثر ربحاً فى مشاريعهم. وشعر دوف بأنه مجبر على جمع أغراضه والرحيل عن روحفوت مع زوجته وأبنائه، ليشق طريقه بشكل مستقل فى البلد الجديد.

غادر أرنون وأخته الصغيرة داليا ووالداه دوف وشوشانا، روحفوت فى عام ١٩٥٣ للضواحي الشمالية المتنامية فى تل أبيب. وبعد أن أصبح مشروع الأسمدة منفصلاً عن شركة ميلتشان وأبنائه، أصبح دوف فى حاجة لاسم جديد لشركته. ومن منطلق الاحترام لجد أرنون ورأس العائلة حاييم إلبعازر، أسمى دوف الشركة الجديدة الإخوة ميلتشان، بالرغم من أن إخوته لم يكن لهم أى نصيب فى الشركة على الإطلاق.

وكانت المكاتب الجديدة مقرها سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب، على مقربة من وزارة الدفاع والموساد. كانت شركة داجون الشركة المجاورة

لشركة لتجارة الحبوب مملوكة لعائلة جيلرمان. وأصبح ابنهم داني صديقاً مقرباً لأرنون، وبعد سنوات عديدة أصبح السفير الإسرائيلي إلى الأمم المتحدة.

وتصادف أن تزامنت طفولة أرنون مع السنوات الحاسمة الأولى في تطور إسرائيل. ونشأ وسط النخبة الأشكينازية الأرستقراطية القديمة، بين أثري الأثرياء وأكثرهم تعليماً في إسرائيل، والذين هاجروا من أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وكان هذا مجتمعاً يؤمن بأن مفاتيح المملكة - من عالم المشاريع والسياسة والمميزات - ملك لهم.

وفي تلك الحقبة بدأ والدا أرنون يلاحظان أن بعض سلوكيات ابنهما خارجة عن المألوف. وبالرغم من أنه كان متقد الذكاء فقد بدا مفرط النشاط وغير قادر على الجلوس حتى لفترات قصيرة.

وبالطبع فإن هذا النشاط المفرط يشمل أيضاً عوامل الشرود، والتلمل، والتهور، وفي بعض الحالات كما في حالة أرنون، الانجذاب للخطر هناك جزء مني يريد أو يحتاج إلى فعل أشياء مخيفة. أحتاج لجرعة من الخطر كي أتنفسها! هكذا قال.

ومن المعروف بعامة أن الناس المصابة بالنشاط المفرط عليهم أن يبحثوا عن وظائف تشمل ظروفاً سريعة التغير، وبيئات تتطلب التحفيز المستمر، ويتجنبوا الوظائف التي تنطوي على التكرار والتركيز المفرط على مهمة واحدة، سواء كانت عقلية أو بدنية، واختار أرنون ميلتشان الوظيفة المناسبة.

ومن أبرز الصفات التي كان يلاحظها أي شخص يراقب أرنون في صباه

هى طاقته المتفجرة اللا محدودة، وكان هناك مكان واحد لتفريغ طاقته أثناء طفولته... وهو المجال الرياضى، وهو المجال الذى كاد أرنون أن يمتنه. حيث مهدت قدراته البدنية الطبيعية، وطاقته المذهلة، وروحه التنافسية العالية له الطريق لقبوله فى أخوية النخبة لفريق مكابى تل أبيب للشباب، وهو فريق كرة القدم الأقوى فى البلد، وابتهج أرنون بشدة لذلك.

لكن كانت هناك مشكلة طفيفة. قبل بضع سنوات تم اختبار بصره وتم تشخيصه بأنه شديد الضعف. هذا الصبى لا يرى شيئاً هكذا قال طبيب العيون وهو يسلم والديه الروشة الطبية لنظارة سميكة، التى ما زالت لازمة لأرنون حتى يومنا هذا. وبالرغم من أن التقدم فى فحص العيون قد جعل ذلك الأمر أكثر يسراً، لكن فى تلك الأيام كانت النظارات تصنع بالفعل من الزجاج، والأطفال الذين يضعون النظارات كانوا ينصحون بعدم الاشتراك فى أية رياضة التحام عدوانية، مثل كرة القدم، لتجنب إصابة العينين.

لم يفصح أرنون عن ضعف بصره، واستغرق مدربه وقتاً ليدرك أنه يعانى مشكلة، وعندما أدرك ذلك كان أرنون قد عزز مكانته كرأس حربة وكهدف متميز فى الفريق لثلاثة مواسم على التوالي.

واستمر فى لعب الكرة لسنوات. وكان يحدوه طموح متقد للعب فى فريق البالغين وكان واثقاً تماماً أنه سيقود فريقه مكابى تل أبيب إلى البطولة الوطنية كنجم للفريق. أمن أيضاً أنه سيقود الفريق الوطنى إلى النجاح العالمى، وسيدرب الفريق فى نهاية مسيرته الرياضية. وقد ذهل اللاعبون الصغار عندما عرفوا أن أرنون لا يزال يتمرن مع المنتخب الوطنى الإسرائيلى حتى يومنا هذا كلما أتيح له الوقت. ولا يزال من عشاق كرة القدم بعامة

والمنتخب الإسرائيلي خاصة.

وبخلاف كرة القدم، فقد أصبح لآرنون شغف آخر في تلك الحقبة وهو السينما. وكشباب متقد بالحماسة ذى خيال جامع، كان مفتوناً بالأفلام العالمية والتي شقت طريقها ببطء إلى دور العرض الأولى في تل أبيب، وتخيل نفسه يبتكر قصصه الخاصة ليراها العالم. إن كان ثمة مكان يستطيع آرنون الجلوس فيه ساكناً، فقد كان ذلك هو دار السينما. تلك الأفلام كانت أول اتصال حقيقي له بالعالم الخارجى الواسع ولم يحفز هذا خياله فحسب، بل كان بداية طموحه ليخرج إلى العالم ويغمر نفسه فيه، ليتذوق كل ما فيه.

وإذ دلت نتائجه في الامتحانات على أنه طفل موهوب، تم إرساله إلى مدرسة داخلية في ميرتفوردشاير في جنوب إنجلترا. وكانت تلك الترتيبات هي سبيل نخبة أغنياء إسرائيل لضمان تنشئة عالمية لأطفالهم. وعنى هذا أيضاً أن أطفالهم سيتعلمون لغة إضافية هامة بالإضافة إلى الانفتاح على ما اعتبروه الثقافة الراقية.

في حالة آرنون، أمل والداه أيضاً أن تساعد أجواء المدرسة الإعدادية الإنجليزية الصارمة على اكتساب الانضباط وضبط النفس، إذ لم يستطع اكتسابهما في البيئة شديدة العشوائية في إسرائيل.

كانت تلك الرحلة هي أول تعرض لآرنون للعالم الكبير خارج إسرائيل الصغيرة، وأول انفصال طويل عن أمن وأمان البيت الوحيد الذى عرفه في حياته. وكان متردداً في الانفصال عن عائلته وأصدقائه وبالأخص عن فريقه. لكنه كان تواقاً إلى مغامرته الجديدة.

لم تنجح مدرسة البنين الإنجليزية الداخلية فعلياً في ترويض هذا الصبى المفعم بالطاقة، ولا في إلزامه بمقعده والتركيز في دروسه. لكن التعليم لم يكن كل شيء. فبعد التحاقه بالمدرسة بفترة وجيزة، اكتشف مدرب فريق كرة القدم بالمدرسة أن لديه نجماً جديداً في فريقه، ومن حسن حظ أرنون أن لاعبي الكرة الموهوبين دائماً ما كانوا يُميزون في المعاملة.

وفي مدرسة هيرتفوردشاير تعرض أرنون لأول مرة لوقائع بسيطة لمعاداة السامية. عندما فاز صديقه المقرب والتلميذ اليهودي الوحيد الآخر في المدرسة يوسف ماليكسون ببطولة التنس ضخمة الجائزة، أذاغ المدير جهاراً أن تلك أول مرة يفوز فيها طالب يهودي ببطولة التنس. وسواءً كان قد قالها بروح طيبة أم لا، فقد تبين للصبى أرنون فجأة أن الآخرين يميلون إلى النظر إليه بشكل مختلف بسبب أصوله.

ولا يزال أرنون ويوسف صديقين حميمين حتى يومنا هذا. وذات مساء تسلل الفتیان عبر كلاب الحراسة وعبر السياج المحكم الرهيب للهروب من المدرسة بقصد التردد على بار في مدينة قريبة على أمل مقابلة الفتيات. ولدى عودتهما ضُبط الفتیان متلبسين بجرمهما. ولم يكن عقابهما قابلاً للتخفيف وكان هو الطرد على الملأ. واصطف كل التلاميذ ليشهدوا المذنبين، ليكونا عبرة للآخرين، وهما يقادان في امتحان إلى خارج المدرسة.

لم يتقبل دوف ميلتشان ذلك ووضع ترتيباته لاصطحاب ابنه إلى خارج المدرسة بأرقى أسلوب ممكن. عندما وصل الشخص الذي كان له أن يصطحب أرنون وفقاً للموعد المحدد، ذهل الجميع عندما رأوا السيارة الرولز رويس الفارهة، ويقودها سائق إنجليزي مرتدياً حلة كلاسيكية. وإذ وصلت السيارة

لمحطة توقفها لدى أسفل السلم فى باحة المدرسة، خرج السائق سريعاً من السيارة وخلع قبعته، وهرع ليفتح الباب للطالب المفصول، وسط ذهول من كل التلاميذ والعاملين بالمدرسة. وقبل أن يدخل السيارة، التفت أرنون وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ولوح لزملائه التلاميذ ورفع أصبع الإبهام.

وبعد فصله من المدرسة الداخلية، تم وضع جدول أكاديمى خاص لذلك الفتى المشاكس، وبينما كان أقرانه من الفتية يستعدون لامتحانات الشهادة الثانوية، كان أرنون قد تم اختياره وقبوله فى جامعة لندن سيتى بينما كان يتلقى دراسة مستقلة فى كلية الاقتصاد بلندن.

وفى غضون عام ونصف وهو فى الثامنة عشرة من عمره، تلقى أمر التجنيد بالجيش وعاد إلى إسرائيل. وتم تجنيد أرنون فى وحدة لا يعرف بوجودها إلا القليلون وهى وحدة الانتداب الخارجى ١٠٣٠. وكانت تلك الكتيبة المرفهة تتألف فى معظمها من أفراد متعددى اللغات ولهم خبرة فى السفر للخارج. وكانت مهمته هى الحصول على الوثائق المطلوبة ومرافقة كبار الضباط عند سفرهم إلى الخارج، بالإضافة إلى مهمته ككاتم أسرار ومترجم فوري ومعاون.

لم يناقش أرنون يوماً خدمته العسكرية فى العلن، والتي كانت فى الواقع أول تعامل له مع الاستخبارات الإسرائيلية. وأثناء تلك الحقبة، تطورت معرفته وكون صداقات وعلاقات استمرت معه طوال حياته.

امرأتان جذابتان هما ديبورا بن إسحاق والتي خدمت فى الوحدة كمديرتها المالية، وإيتى كانر وأصبحتا شخصيتين موثوقاً بهما فى حياته الشخصية والمهنية.

خدم فى الوحدة كضابط احتياط فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، وفى
حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣ . لكن أهم خدمة وطنية له كانت أبعد من جيش
الدفاع الإسرائيلى، وأبعد من حدود بلده.

للمرأة وجهان

كان لدى خيار أن أصبح لاعب كرة قدم محترفاً أو أن ألتحق بالجامعة. أخطأت والتحقت بالجامعة

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجيليس اليهودية، في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٨

عقب إنهائه خدمته العسكرية توجه أرنون إلى جنيف، ليستكمل دراساته، وهذه المرة، ركز على تخصص الكيمياء ليستعد لتولى شركة الأسمدة الخاصة بعائلته.

وفى سويسرا تخلص مجدداً من مصادر قلقه، إذ استأنف ممارسة كرة القدم وبدأ صيته ينتشر كفتى لعوب. كان فتى وسيماً واسع العلاقات ولا حدود لإمكاناته.

وبزيادة نضجه، بدت أعراض نشاطه المفرط أقل وضوحاً. وتعلم ببطء كيف يكيف سلوكه وكيف يتحكم فى حركات جسده الواضحة مثل تملله المفرط والذي كان ملازماً له من قبل. وبينما كان يدرس فى الخارج بدا أرنون أكثر شغفاً بالتنس وهو شغف استمر معه طيلة حياته. واكتشف أرنون أيضاً السينما الأوروبية فى جنيف.

وذات يوم وفى رسالة أليمة من الديار، تلقى أرنون صدمة غير متوقعة غيرت حياته إلى الأبد، مفادها تدهور صحة والده دوف بشدة بحيث أصبح مقعداً. وفى

تلك اللحظة فى عام ١٩٦٥، انقضت فجأة حياته الخالية من الهموم فى جنته الأوروبية. وفى لمح البصر توقفت لأجل غير مسمى البيئة المرفهة المنظمة المنفتحة على العالم والتي كان قد اعتادها.

وما أن سمع بالخبر، سيطر عليه خوف لم يعرفه من قبل. وحزم أمتعته وحجز فى أول رحلة طيران ليعود لأرضه القاسية وعالمه المضطرب، وبلده الذى كان آنذاك لا يعدو موقعاً منعزلاً شديد الصغر فى الشرق الأوسط.

وما أن أقلعت الطائرة من مطار جنيف الدولى، حرق ببصره خارج النافذة الصغيرة إلى المزارع السويسرية البديعة من تحته ولم يجد بداً من التفكير فى جده حاييم إلعازر ميلتشان، والذى كان مقرباً منه للغاية طيلة حياته حتى وفاته العام السابق. كانت تلك أول مرة يتعرف فيها على حقيقة الموت وعلى فقدان شخص

مقرب إليه. وتذكر كيف أنه لم يستطع التحكم فى مكانه، وبدأ يهين نفسه لما تخيل أنه ربما سيكون صدمة أقوى.

ومن المطار هرع أرنون إلى مستشفى إشيلاف فى تل أبيب. وانطلق يصعد ستة أدوار على الدرج إلى حيث يرقد والده ذو الـ ٤٥ عاماً على أعتاب الموت. وما أن وصل إلى جوار والده دوف، بينت له شوشانا أن ما بدأ كعدوى فى البنكرياس تطور إلى عفن بكتيرى أصاب قلب دوف وورثته وكيثيه.

وفى الأيام التالية رفض أرنون أن يترك جوار أبيه، ومضى يتتبع كل حركة يأتى بها وكل أنفاسه، عازماً على مساعدته فى تخطى تلك الأزمة.

وخلال بضعة أسابيع فوجئ أطباء دوف المعالجون بتحسّن حالته بشكل إعجازى وتم إرساله إلى مؤسسة لإعادة التأهيل فى كيبوتس جيفات برينير. وتنفست العائلة الصعداء. وبدأ أرنون يعد عدته للعودة إلى جنيف، وفجأة أخذت الأمور منحني سيئاً.

عانى دوف من آلام حادة مبرحة فى معدته تم تشخيصها بأنها أزمة من حصوة بالمرارة. وفى حالته الهزيلة تلك، تم إدخاله على عجلة إلى غرفة العمليات، والتي لم يخرج منها حياً. وإلى يومنا هذا لا يزال أرنون يعتقد بأن موت والده جاء كنتيجة غير ضرورية للإهمال الطبى.

وصلت العائلة الممتدة إلى المقابر فى روحوفوت ونُحيت الخلافات القديمة القائمة بينما غمرت موجة عارمة من المشاعر كل الحاضرين. دفن دوف بالقرب من والديه، حاييم وإستر، وفجأة تكشف لأرنون ابنه الوحيد، أنه فقد نظام الدعم المالى والمعنوى الوحيد والذي عرفه يوماً، وتحامل على نفسه ليبو متماسكاً إلا أن دموعه غلبته. وتحققت كل مخاوفه. وألقى على كاهله حمل ثقيل فجأة، إذ أدرك أن عائلته

ستعتمد عليه الآن فى القيادة والقوة والمعيشة. وخشى ألا يكون مستعداً لتلك المسؤولية، إذ كان فى الحادية والعشرين من عمره فقط.

ومن خلال دموعه، لاحظ أرنون العديد من الناس الذين لا يعرفهم فى الجنازة، وهم يمرون بالقبر ويضعون عليه الحجارة كتعبير أخير عن الاحترام. وكان هناك رجل طويل ونحيف صارم الملامح يقف على مسافة خلف المعزين، ولم يقترب من أرنون إلا لدى انصراف الحضور بعد مراسم الدفن ليقدم له تعازيه الشخصية وهمس فى أذنه بصوت خافت:

كان أبوك رجلاً مهماً قدم العديد من الأشياء الهامة لإسرائيل. أعرف أنك ستسير على خطاه.

وبعد الجنازة بفترة وجيزة، ذهب أرنون إلى مكتب والده الصغير فى سوق الجملة الزراعى فى تل أبيب. كان المشهد قذراً وعلى النقيض تماماً من شوارع جنيف المعتنى بها جيداً. وبينما كان يشق طريقه وسط الدجاج المتصايح والفضلات الزراعية، فجأة تجدد تقديره للتضحيات التى قدمها والده لأجله. ودخل المكاتب المتواضعة الكائنة فى مقدمة مخزن صغير، حيث أحيط سريعاً بموظفى الشركة القلائل ليعبروا له عن تعاطفهم.

وبدأ أرنون يتولى مسؤولية شركة العائلة ميلتشان براذرز ليمتد، واقتحم العالم الجديد بكثير من حماس الشباب، عازماً على الحفاظ على إرث العائلة، بالرغم من أنه سرعان ما سيكتشف أنه ليس لديه أدنى فكرة عن حقيقة إرث العائلة ذاك.

كان دوف قد عزل زوجته وابنته وابنه تماماً عن أى شىء يتعلق بشركة العائلة وبالشئون المالية، وكانوا كلهم يجهلون تعقيدات الشركة إلى حد كبير.

كانت توقعات أرنون لنفسه وللشركة التى تولى زمام أمورها تكاد تبلغ عنان السماء، لكنه أعيد قسراً إلى أرض الواقع عندما ألم بحالة الشركة المالية المزرية.

كان قد تم تخفيف قواعد الاستيراد ومن ثم تخلخت هيمنة الشركة الاحتكارية بشدة فى مجال الأسمدة. وبدأ المزارعون يستوردون مباشرة من المصنعين بالخارج، متجاوزين فى ذلك كل التجار الإسرائيليين. وصدم أرنون عندما عرف أن إجمالى احتياطى الشركة يقدر بـ ٦١ ألف ليرة إسرائيلية. وفى هذا يقول أرنون:

بدا الموقف محبطاً. وكانت شركة ميلتشان إخوان على حافة الإفلاس، ولم أفهم ذلك بشكل كلى، وفى الأيام التالية، بدأ المتربصون يحاصروننا.

بدأ منافسون عدة وبنائعون بل وبعض الموظفين فى تحدى خبرة المالك الجديد وقوة تحمله فى العمل، وأجبر أرنون على صد الكثير من المكائد التى حيكت للدفع به خارج المنافسة.

وبينما كان يجلس محبطاً فى مكتب والده يفكر فى مصيبتة، لاحظ عدة خزائن لم يتفحصها بعد فى أحد الأركان. وعندما نظر إليها بفصول للحظات، سار إليها وفتح الأدراج، وأخرج منها أكبر قدر ممكن من الملفات وحملها إلى المكتب ليدرسها. وخلال لحظات أصبح مكتبه مفروشاً بصور لصواريخ غزو الفضاء وينشرات فاخرة. وفجأة تكشفت لأرنون حقيقة أن والده كان ضالماً فى عمل أبعد بكثير من تجارة الأسمدة .

كان والد أرنون من نوعية الأشخاص الحذرين، وخاصة فى الأمور المتعلقة بالأمن القومى. احتفظ لنفسه بجميع المعلومات الضرورية، ولذا لم يكن لأحد آخر أن يعرفها.

كان دوف قد عزم على إطلاع ابنه على هذا الجانب من عمل شركة ميلتشان إخوان، لكن موته المفاجئ حال دون الانتقال المنظم لما افترض أنه سينفذه في عدد من السنين. بالنسبة لأرنون كان ذلك تحولاً صادماً في الأحداث. والآن فقط بدأ يفهم الكلمات التي قيلت همساً في أذنه في جنازة والده، وسبب حضور هذا الشخص الغامض إلى الجنازة.

أجرى عدة مكالمات هاتفية واستجوب طاقم السكرتارية الصغير، والذين كانوا بدورهم لا يعرفون شيئاً. وكما تبين له، فقد كانت شركة ميلتشان إخوان ضالعة في عمليات استيراد وتصدير معدات دفاع عسكرية لصالح الدولة، ووفقاً لأرنون فقد كان والده قد حصل على بعض العقود العسكرية المربحة الخاصة بإسرائيل.

لم يكن مفاجئاً بل وربما كان متفهماً، أن البعض استنتجوا أن أرنون كان شخصاً ضعيفاً سهل الانقياد. ثم تبين أنهم على خطأ بدرجة شديدة الإحراج. لم يكن لدى الأباطرة الكُثر الذين حاولوا إقصاءه مراراً وتكراراً أية فكرة مع من يتعاملون، وبخسوه قدره بشكل فادح.

سرعان ما تحرك ميلتشان ليحكم قبضته على الشركة. وبطاقة الشباب تواصل مع كل الموردين، وشرح لهم الموقف، وأقنعهم بأسلوبه الساحر على زيادة الحدود الانتمانية.

وبدأ بعد ذلك في تكوين فريقه الخاص. ومن بين أول خطواته استغل إجازة الوضع لمديرة مكتبه، واستدعى قائدة وحدته العسكرية السابقة ديبورا بن إسحاق، وطلب منها أن تشغل تلك الوظيفة الشاغرة لثلاثة أشهر، والتي تحولت لرحلة عمل مثيرة امتدت لثلاثين سنة.

ربما كان أرنون ساذجاً ويفتقر للخبرة، لكن هذا نفعه بطريقة ما. إذ تمتع بثقة

لن يتمتع بها سوى شاب ليس لديه أدنى دراية بما لا يجوز له فعله.

وفى فترة وجيزة للغاية، حوّل الشركة الصغيرة والتي كانت معنية في الأغلب بالسمسرة في الأسمدة الزراعية المستوردة والكيماويات للمزارعين المحليين إلى مؤسسة ضخمة على الساحة الدولية، لها صفقات بعشرات الملايين من الدولارات، وأكثر من ذلك بكثير لاحقاً. ومد يده لكل شركات الأسمدة والكيماويات الكبرى في أوروبا والولايات المتحدة، ساعياً ليكون ممثّهم الحصري في إسرائيل.

لكن اختراعاً واحداً، وبراءة اختراع واحدة، وصفقة واحدة، ومقامرة واحدة هي التي أمنت المركز المالي للشركة ودفعته إلى مستوى أعلى: تضمنت تلك منتجاً إسرائيلياً لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا من أهم الاختراعات الحيوية من بلد صغير أصبح بمرور الوقت منبع الابتكارات في العالم.

حدث هذا بالصدفة البحتة، وبينما بدأت محاولات أرنون اليانسة لإنقاذ الشركة تؤتي أكلها، بعد التعاقد مع الشركتين السويسريتين ساندوز وسيبا غابي، حدد موعداً لاجتماع في ثاني أكبر مصنع للكيماويات في العالم أي دوبيونت في ويلينغتون، ديلاوير. وأثناء تلك الرحلة الطويلة أخذ يفكر في عدم فاعلية السماد الحالي الذي توزعه شركة ميلتشان إخوان.

وبالصدفة كان الشخص الغريب الجالس إلى جانبه في الطائرة مديراً تنفيذياً متحمساً من كندا لشركة لقطع الأشجار وتحويلها إلى أخشاب. وأثناء حديثهما العابر انبهر ميلتشان إذ عرف أن لحاء الأشجار لا يستخدم في أي منتج، وأنه كان ببساطة يتم التخلص منه بعد تصنيع الأخشاب.

وانتابه الفضول بشأن المكون الكيميائي للحاء الأشجار، وتساعل ما إن كانت هناك أي فوائد سمادية ممكنة لهذا المنتج الثانوي، والذي كان يعتبر آنذاك من المخلفات.

وما أن وصل، حتى شارك أفكاره مع مدراء دويونت، والذين كانوا فى حيرة من أمرهم بشأن رجل الأعمال الإسرائيلى الشاب المتحمس وأفكاره الغريبة بشأن اللحاء. وأحالوه إلى المدير الوحيد اليهودى فى الشركة آنذاك، ويدعى إرفينغ سول شايبيرو وكان محامى الشركة.

وانبهر شايبيرو بميلتشان ودعاه لقضاء العطلة الأسبوعية فى منزله. ودعا أيضاً مجموعة من المجتمع المحلى اليهودى للقاء الشاب الإسرائيلى ولسماع حكاياته من البلد الذى يخوض صراعات كثيرة. وبحلول يوم الاثنين، كان ميلتشان قد كون صداقة حميمة مع شايبيرو، وأبرم عقداً للتمثيل الحصرى لدويونت فى إسرائيل، وتلقى تعهداً بتمويل أبحاث اللحاء هناك.

وبفضل عقد ميلتشان، أصبح شايبيرو مدير شركة دويونت ورئيس مجلس إدارتها من عام ١٩٧٣ إلى ١٩٨١. وكانت تلك بداية صداقة طويلة وحميمة مع الشركة، والتي أصبحت جزءاً أصيلاً من مانهاتن بروجيكت وهى المجموعة البحثية التى طورت القنبلة النووية فى الحرب العالمية الثانية، والتى تعد مُورداً قديماً للمواد النووية وتلك المتعلقة بالدفاع العسكرى.

بعد رحلته الناجحة ولدى عودته إلى إسرائيل، عين ميلتشان أربعة مهندسين زراعيين من كلية الزراعة التابعة للجامعة العبرية فى روهوفوت، والذين توصلوا لتركيبه سماد من لحاء الأشجار بهدف تجربتها. لكن لم توافق أية مزرعة فى إسرائيل على اختبار تلك التركيبة فى بسايتها.

وبعد بحث مطول وقاس، توصل ميلتشان لاتفاق مع كيبوتس كفار هاناسى فى الجليل الشمالية، حيث وافقت الإدارة على تجربة التركيبة على جزء من حقولها فى مقابل تمويل ميلتشان لعيادة أسنان فى الكيبوتس، ووافق ميلتشان بشرط تسمية

العبادة باسم أبيه الراحل، والتزم الكيبوتسيون بذلك.

وفشلت التجربة، لكن ميلتشان رفض الاستسلام. وفي النهاية أدرك وفريقه أن السماد سيكون بأضعاف فاعليته إن تم تطويره في هيئة رذاذ، وتم رش أوراق الأشجار وأغصانها به مباشرة، وأتقنت التركيبة بمرور الوقت وأثبتت أنها منتج هام وثرى لكل مزارعى الموالح حول العالم.

وبالإضافة لفاعليتها الزراعية، حققت المادة المغذية المعروفة باسم إن يو غرين أرباحاً هائلة لكل من شركة دويونت وميلتشان على السواء واستمر هذا النجاح حتى يومنا هذا.

"الرجل الذى حقق ثروة بالتلاعب فى الطبيعة" هكذا وصفه زميل له لاحقاً، وأكد أنه منذ أن انخرط ميلتشان فى مجال الأسمدة، تغير طعم البرتقال إلى الأبد. وبدأت الطلبات تنهال عليه، من إسرائيل فى البداية، ولاحقاً من كل أنحاء العالم. وولدت أسطورة ميلتشان الذى كون ثروة سريعاً، وسرعان ما انتشرت فى أرجاء البلد الصغير.

وبمرور الوقت تواصل مع المزيد من شركات الكيماويات والتكنولوجيا الحيوية، بما فيها أكبر الشركات عالمياً، مثل شركة باير الألمانية، وسنيجيستا السويسرية، وكيموترا وسيدكو.

وبشراكته مع تلك الشركات، لعب ميلتشان دوراً رئيسياً فى إجراء تجارب ميدانية إضافية أدت مباشرة إلى زيادات كبيرة فى الإنتاج الزراعى فى إسرائيل فى الستينيات والسبعينيات.

تلك التقنيات التى صدرتها لاحقاً شركة ميلتشان إخوان وشركات أخرى،

أفادت البلدان النامية حول العالم.

وبقدر أهمية جهوده الزراعية، فمن الواضح أيضاً أنه، وبمرور الوقت، أصبحت تلك المساعي أقرب للغطاء الملائم لمصادر نجاحه الساحق، أى العقود المتعلقة بالدفاع العسكرى ومثل ما حققه فى القطاع الزراعى، فقد سَوَّق لدولة إسرائيل بصفتها حقل التجارب الرئيسى لأحدث أنظمة الأسلحة بين أكبر شركات الديناميكا الهوائية فى العالم.

واشترك ميلتشان فى جميع المجالات المتعلقة بالدفاع العسكرى، وبخاصة الإصدارات المتعلقة بالطيران، وسرعان ما أَلَم بأسماء جميع الشركات الهامة المصنعة لمعدات الدفاع ودرس أحدث التطورات فى مجال الطيران وفى الأنظمة الإلكترونية العسكرية. ويبحث برسائل لا تحصى يعرف فيها بنفسه لشركات تصنيع معدات الدفاع العسكرى حول العالم ويعرض عليها فيها تمثيلها فى إسرائيل. وكان من المفاجئ أن أبدت العديد من الشركات اهتمامها وطلبت تحديد مواعيد معه. وسرعان ما أخذ ميلتشان يجوب أوروبا ويوقع عقود تمثيل الشركات.

كانت كل الصفقات المتعلقة بالدفاع العسكرى فى ميلتشان إخوان تدار من قبل مالك الشركة نفسه، أولاً الأب، ومن بعده ابنه. وبدأت إسرائيل فى شراء الأسلحة من الولايات المتحدة عام ١٩٦٢ بموافقة إدارة كينيدي، لكنها لم تتلق أية مساعدة عسكرية حتى عام ١٩٧١ عندما خصص الكونجرس لأول مرة مبلغاً محدداً لمعونة لدولة إسرائيل.

وكنتيجة لذلك، اضطرت إسرائيل للاستدانة لتمويل تنميتها الاقتصادية وشراء الأسلحة. لكن منذ عام ١٩٧٤ عقب حرب أكتوبر، تلقت إسرائيل ما يقرب من ١٠٠ مليار دولار من المعونة العسكرية، وتتلقى حتى يومنا هذا ما يزيد عن مليار دولار

كمعونة عسكرية سنوياً. وبموجب القانون، يجب أن ينفق كل مبلغ المعونة العسكرية الأمريكية لإسرائيل في الولايات المتحدة في شراء أنظمة الأسلحة الأمريكية.

كان لجميع الشركات المرخص لها استيراد وتصدير أنظمة الدفاع العسكـرى من وإلى إسرائيل، بالإضافة إلى قدرتها على توقيع اتفاقات تمثيل حصرية وعالية الربحية مع كبار شركات مقاولات الدفاع العسكـرى الأمريكية، أن تحقق نجاحاً كبيراً.

ست درجات من الانفصال

أرنون ميلتشان رجل يعرف كيف يوجد الفرص
الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز

عندما كان أرنون في الحادية والعشرين من عمره في صيف عام ١٩٦٥، قام بلول
مغامرة صريحة له في عالم السياسة الإسرائيلي الغريب، إذ أصبح عضواً في أحد أحزاب
الأحزاب السياسية في تاريخ إسرائيل وكاد يكون مرشحاً له.

وتبدأ القصة عندما بدأ أرنون الفتى حديث الثراء، علاقة صداقة حميمة مع ملك الملاهى الليلية فى تل أبيب رافى شاؤلى، وكان يتردد بانتظام على ملهاه ومطعمه، والذي كان آنذاك أشهر وأفخم وجهة لوجهاء الطبقة الراقية فى إسرائيل، وبكل المقاييس، كان أرنون فتى جامحاً نهماً للهو والحفلات. كان من نوعية الأشخاص الذين يعيشون على حافة الهاوية. وكأنه يحرق شمعه من كلا طرفيها. كان ذلك ما لاحظته إرنى كانر مساعدته الشخصية طيلة ٣٠ عاماً.

سمى الملهى مانديز على اسم ماندى رايس ديفيس، وهى زوجة رافى شاؤلى الشقراء الجميلة إنجليزية الأصل، والتي تصادف أن كانت طرفاً داعماً فى قضية بروفومو، وكانت فضيحة جنسية سياسية ضخمة فى عام ١٩٦٣ فى المملكة المتحدة، وسميت باسم جون بروفومو، والذي كان وزير خارجية لشئون

الحرب آنذاك فى حكومة المحافظين البريطانية.

اشتركت مائدى رايس ديفيس فى أنشطة صراعات جنسية شهيرة لعدد من أكثر السياسيين نفوذاً فى بريطانيا آنذاك، وانتهت العلاقة برمتها فى مشهد عام فى المحكمة، ولا يزال الناس يتذكرون رايس ديفيس جيداً وهى تدحض شهادات الشخصيات السياسية القوية والذين كانوا ينكرون تورطهم، بجملتها الشهيرة "حسناً، من المتوقع أن يقول ذلك، أليس كذلك؟".

وبقى هذا التعبير، وأصبح مزحة قومية ومقولة ثقافية فى بريطانيا، واستغلت رايس ديفيس شهرتها الجديدة سيئة السمعة، عندما قارنت نفسها بليدى هاملتون عشيقة الأدميرال نيلسون. وبعد ذلك اعتنقت اليهودية، وتزوجت بصديق أرنون الجديد فى الملهى، وانتقلت للعيش فى إسرائيل، وأصبحت

أشهر مضيضة فى الملهى. وفى عام ١٩٨٩ تم إنتاج فيلم عن فضيحة علاقة بروفومو واسمه "الفضيحة"، ولعبت الممثلة برديجيت فوندا دور ماندى رايس ديفيس ذات الأعوام التسعة عشر.

تعرف أرنون على ماندى الحقيقية وكشاب غر فتن بها. وكان يقضى ساعات طوالاً فى الملهى وكان يعقد فيه معظم لقاءاته، للعمل واجتماعياته على حد سواء. وهناك تعرف أيضاً لأول مرة على شخص لم يكن يعرفه إلا من بعيد، وهو أحد أكثر السياسيين الموهوبين فى إسرائيل، آنذاك والآن، وهو شمعون بيريز.

وكان بيريز البالغ من العمر آنذاك اثنين وأربعين عاماً يشغل منصب نائب وزير الدفاع بعدما شغل لأعوام منصب المدير العام للوزارة، وبالطبع كانت تلك المواقع بالغة التأثير على مصالح العمل لشركة ميلتشان إخوان.

أخبر بيريز أرنون بنيته فى أن يكون العضو المؤسس لحزب سياسى جديد باسم رافى، للعمال الإسرائيليين، ولا علاقة له بأى شكل كان برافى شاؤولى، وذلك قبل انتخابات الدورة السادسة لمجلس النواب الإسرائيلى أو الكنيست. وتقرر أن يقود الحزب الجديد عدد من الأعضاء المنشقين من الماهاى، وهو أكبر فصيل سياسى فى إسرائيل، والذى حكمها منذ قيامها.

لكن المفارقة تكمن فى أن قائد الفصيل المتمرد كان ديفيد بن جوريون نفسه.

ومنذ اليوم الذى أعلن فيه قيام دولة إسرائيل، كان بن جوريون الشخصية السياسية المهيمنة فى البلد، كأول رئيس وزراء ووزير دفاع، وحكم البلد بقبضة من حديد.

وضعت خطة منافسة الحزب الوحيد الحاكم منذ قيام الدولة فى مطعم كاسباه، وأثارت الخطة اهتمام ميلتشان بقوة. ها هو الرجل العجوز المبجل ديفيد بن جوريون يمرر الشعلة إلى الجيل الشاب، "شمعون بيريز وجماعته. واعتقد ميلتشان أن بيريز سيعود لوزارة الدفاع كممثل للحزب الجديد وقرر تركيز اهتمامه على الانتخابات المقبلة، عاطفياً وفكرياً ومالياً.

ومع التفاوض عن أهوائه الشخصية، فسرعان ما علم أن حزب رافى كان زائراً بأبرز المؤهوبين سياسياً فى إسرائيل، مثل أبا إيبان دبلوماسى إسرائيل الأبرز، وتزفى تزود رئيس أركان الجيش الأسبق، بالإضافة إلى إسحاق نافون ذى الـ ٤٤ عاماً، وحاييم هيرزوغ ذى الـ ٤٧ عاماً، وكلاهما أصبح رئيساً للدولة لاحقاً.

فى عيون العديد من الشباب الإسرائيليين، مثل حزب رافى صرخة معركة متمردة فى وجه المؤسسة العجوز الفظة، أى حزب الماهاى والذى شعروا أن زمنه قد ولى.

اجتاحت أرنون حماسة الشباب. وأسره بيريز وجماعته، حيث رأى فيهم الجيل الجديد من المحترفين النشطين التنافسيين، ذوى القدرة الفائقة على قيادة الدولة فى اتجاهات جديدة شائقة.

وليس ثمة شك فى أن حزب رافى كان هو الحزب العصرى، لكن مسألة ترجمة جاذبيته العصرية إلى أصوات انتخابية لم تكن قد حُسمت بعد. ويزعم ميلتشان أنه كان المساهم الثانى فى تكوين حزب رافى، ووصف اجتماعاً له مع بن جوريون وبيريز قائلاً:

فى تلك الأيام لم يكونوا يقبلون المساهمات المالية، بل كانوا يأخذون

قرضاً ويعطونك إيصال أمانة بقيمة الاعتمادات المالية التي سترد لاحقاً، وبالطبع لم تكن الاعتمادات ترد أبداً.

وأسهم ميلتشان بمبلغ ثلاثة آلاف دولار، لكن إسهاماته لم تقتصر بالطبع على المال، فقد كان الحزب في حاجة لنجم جديد ولشخص قادر على صنع علاقات.

وكانت أول مهمة له هي تأمين دعم عضوية رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي السابق وبطل الحرب الأسطوري ذي الـ ٥٠ عاماً موشيه ديان، إذ شعر بيريز بأن فرص الاكتساح في الانتخابات ستكون أقوى بكثير بوجود ديان في مجلس إدارة الحزب.

وكان ميلتشان يعرف ديان من الصفقات التي تبرم بين شركة ميلتشان إخوان ووزارة الزراعة، والتي كانت تتكرر على مستوى شبه يومي، بما يشبه علاقته بوزارة الدفاع. إذ كان مكتب ديان يصدر التراخيص والتصاريح لكل أعمال ميلتشان المتعلقة بالزراعة. خرج ديان من الخدمة مع بن جوريون، وتُرك بلا عمل بعدما استقال من عمله كوزير للزراعة، ذلك المنصب الذي شغله لخمس أعوام متوالية.

لكن عقب تأسيس حزب رافى، لم يكن ديان في عجلة للانضمام لعصبة بيريز. إذ أدبر واستكبر ولعب دور العصي على الانصياح. وفي البداية صرح بأنه ينتوى البقاء في حزب ماپاي ليعارض الزمرة المنشقة. لكن لاحقاً، وكنتيجة لمحادثاته مع ميلتشان، اقتنع ديان بأنه إن بقي في حزب ماپاي، سيهمش ولن يتمكن من الدفع بأجندته الشخصية والسياسية.

وقال ديان لميلتشان "أعدّ الاجتماع"، وكان ذلك بين أول الاستعراضات

لموهبة ميلتشان المتقدمة فى عقد الصفقات.

وفى يوم صيفى حار فى أغسطس عام ١٩٦٥ وقبل أيام من الانتخابات، أعد ميلتشان للاجتماع المصيرى فى وقت متأخر بعد الظهر بين موشيه ديان وشمعون بيريز. وبسبب حرارة الصيف، جلس ثلاثتهم فى فناء حديقة منزل ديان فى زحالا وهى ضاحية فى تل أبيب، ليحاولوا التمتع ولو بنسمة باردة آتية من البحر الأبيض. وكانوا محاطين بمجموعة ديان الفنية الأسطورية من التحف الأثرية، والتى وجدها! فى عدة مواقع تاريخية عبر الأرض المقدسة. كان لآبد لآى شخص آخر أن يلقى به فى السجن لخرق قانون حفظ الأثرىات الإسرائيلى الصارم، لكن ديان لم يكن يقلق نفسه بشأن أشياء تافهة كتلك.

وقال لنا ميلتشان، "تمكنت من مد أواصر الصلة بينهما نتيجة شغفى بالسلام". وفى غضون تلك الساعة أعلن ديان أنه سينضم لحزب رافى. وانبهى كل من ديان وبيريز للغاية بمهارات رجل الأعمال الجديد فى الوساطة، وبعدما توصل السياسيان لاتفاقهما، أشار ديان إلى ميلتشان وقال لبيريز "أتعرف يا شمعون؟ أريد أرنون وزيراً للمالية".

وأجاب بيريز بابتسامة مأكرة "حسنًا".

ما لم يكن يعرفه السياسيون الثلاثة المشاركون، أن الاجتماع قد تعرض لاختراق أمنى. إذ كان هناك شخص معين يختبئ وراء السياج واستمع للحديث كله، وكان محرراً تحقيقياً لمجلة هاأولام هازيخ، أشهر مجلة للفضائح فى إسرائيل. وخلال أيام نشرت المجلة عنواناً بالبنط العريض: "تعرفوا على أصغر وزير مالية فى تاريخ إسرائيل". وعقب صدور المجلة، دُعى ميلتشان

للمشاركة فى لقاء على التلفزيون الإسرائيلى.

"كيف يمكن لشاب مثلك أن يشعر بأنه مؤهل ليكون وزير مالية دولة إسرائيل؟" سألته المحاور بلهجة وقحة فى بداية اللقاء.

وفى نفس اللحظة التى أدرك فيها أرنون ما ووط نفسه فيه، اتخذ قراره وقال للمذيع ألق نظرة جيدة علىّ هل أبدو لك كرجل يمكن أن يتواجد فى الثامنة صباحاً على مكتب فى القدس ويرتدى حلة وربطة عنق للأعوام الأربعة المقبلة؟!

وأغلق الباب فى وجه السياسة كخيار اختاره لنفسه فى ذات تلك اللحظة على التلفزيون الوطنى، ليراهما الجميع. "لقد تنحيت حتى قبل أن أُرشح، إذ أدركت أن هذا المنصب غير ملائم لى"، كان هذا ما بينه لاحقاً. ما لم يفهمه ميلتشان أن ديان وبيريز كانا يعنيان شيئاً آخر تماماً بوزير المالية، أى شخص غير منتخب، وسرى، ويعمل خارج البلاد، وداخل الخدمة لأجل غير مسمى.

وكان ميلتشان كائى مؤيد آخر لحزب رافى مقتنعاً تماماً بأن الحزب سيحصد مقاعد كثيرة فى ليلة الانتخابات. لكن الإحباط كان من نصيبه حيث حصد حزب رافى فى انتخابات الدورة السادسة للكنيست، حوالى ٨٪ من الأصوات، أى بما يعادل عشرة مقاعد فى البرلمان من أصل ١٢٠ مقعداً، وذهب مباشرة إلى صفوف المعارضة.

كان فشل حزب رافى ذريعاً بدرجة أنه لم يفشل فقط فى الاقتراب من عدد المقاعد البرلمانية التى أمل فيها مؤيدوه، بل وزادت قوة غريمه حزب الهاپاى الذى تمكن من تشكيل الحكومة من دون الحاجة إلى دعوة حزب رافى

للاضمام للائتلاف الحاكم، حتى كشارك بالأقلية.

كانت هزيمة مهينة أثبتت أن ما يبدو بدهياً ومرغوباً فى أعين النخبة لا يترجم دائماً كأصوات شعبية.

كان أول الأشياء التى فعلها حزب رافى كحزب معارض هو مهاجمة رئيس الوزراء ليفى إشكول لإخفاقاته الكبيرة المتعلقة بالدفاع العسكرى لكن من دون تحديد ها.

وفهم حالياً أن الفشل الذى كانوا يشيرون له هو قرار رئيس الوزراء إشكول بإبطاء وتيرة تطوير المفاعل النووى ديمونة مقابل المعونة العسكرية الأمريكية.

وعقب ذلك بفترة وجيزة، وفى عشية حرب الأيام الستة، دخل حزب رافى فى الائتلاف الحكومى كجزء من حكومة الوحدة الوطنية والتى شكّلت على عجل كرد فعل على الأزمة المتنامية، والتى أدت إلى الحرب فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ . وعين موشيه ديان كوزير للدفاع بعد أن أطاح بالسياسة جانباً وقاد البلاد فى انتصارها غير المسبوق، بما جعله موضع مزيد من الحفاوة الدولية.

وعقب ذلك ببضعة أشهر، عاد كل أعضاء حزب رافى إلى حزب ماپاى وهم يجرون أنيال الخيبة، ما عدا ديفيد بن جورىون والذى ظل يهيم بوادى السياسة حتى موته فى ١٩٧٣ .

معاً، شكل حزبا رافى وماپاى ما يعرف حالياً باسم حزب العمال. وبهذا انتهت حقبة حزب رافى. لكن بالرغم من المصير المشئوم للحزب الوليد، فقد أفادت تلك التجربة برمتها ميلتشان إلى أقصى حد، والذى اكتسب شهرة،

وسمعة مشبوهة، وعلاقات هامة امتدت لسنوات مقبلة، وبالفعل غيرت حياته إلى الأبد. وتحققت نبوءة ديان ميلتشان كوزير بديل للمالية فى النهاية بشكل غير متوقع أو تقليدى.

شغل العديد من أعضاء رافى الفاعلين أعلى المناصب فى الحكومة، وأصبح أرنون الاسم الأقرب إليهم كلهم، وكون مع بعضهم صداقات حقيقية وأصبح محل ثقة عميقة لدى البعض الآخر.

لا تنطق بكلمة واحدة

قررنا إنشاء مفاعل ديمونة ضمن مسعانا لتحقيق السلام!

الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في ٨ فبراير ٢٠١٠

فتحت صداقة ميلتشان بكل من شمعون بيريز وموشيه ديان أمامه عوالم جديدة، إذ كشف بيريز لأرنون سر إسرائيل الخطير، والذي لم يكن يعرفه سوى بضع مئات في البلد كله، إذ كان هذا يعد سراً آنذاك! وتفاخر بيريز قائلاً: أنا من جننته.

فى تلك الأيام كانت إسرائيل نسبياً أمة فقيرة نامية، تزرع تحت وطأة المقاطعة العربية الاقتصادية الموسعة، وكانت تمثل مزيجاً غريباً من التكنولوجيا المتقدمة والتكنولوجيا البسيطة، شديدة التدين متطرفة العلمانية، فسيفساء من أناس من كل أنحاء العالم مختلفى الألسن والثقافات والأطعمة على المائدة القومية. وكانوا كلهم تقريباً من المهاجرين وأغلبهم كان لديه عائلات خارج البلد، وكانت مساحة القدرات الاستخباراتية المحتملة ولا تزال حتى يومنا هذا ... هائلة.

وعودة إلى عام ١٩٥٧ (عام حفل بلوغ أرنون)، إذ سافر مرشده المستقبلى وصديقه المقرب شمعون بيريز إلى باريس ليضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية بالغة السرية. حيث كان بيريز قد تفاوض مع الفرنسيين لبناء المفاعل النووى المتكامل الأركان مارغول جى ٢ فى إسرائيل، بهدف -وفقاً لإسرائيل- تصنيع

أقوى سلاح ردع، لتجنيب البلاد أى محرقة أخرى بأى ثمن كان. وبالطبع وصفت الصفقة برمتها بأنها برنامج طاقة سلمى، تحسباً لاكتشافها قبل الأوان. وكانت تلك الصفقة النووية جزءاً من تفاهم سرى بين البلدين والذي أدى لقبول إسرائيل الاشتراك مع فرنسا وبريطانيا فى عدوان عام ١٩٥٦ على سيناء لإقصاء مصر عن السيطرة على قناة السويس، وهى من أهم الشرايين المائية للسفن فى العالم. ووافقت إسرائيل أيضاً على دعم الأبحاث العلمية المتعلقة ببرنامج فرنسا النووى المتنامى.

وتم تمويل المفاعل النووى بشكل غير رسمى، فى الأغلب من قبل ٢٥ شخصاً ثرياً من كل أنحاء العالم، وكان ثمانية عشر شخصاً منهم أمريكيين. وكانوا جميعهم لا يعرفون بصورة عامة تفاصيل قنوات إنفاق أموالهم لكنهم

كانوا يعرفون فقط أنها ستنفق على احتياجات أمنية حيوية.

أمنت تلك الاتفاقية مواقفهم القانونية جميعهم، وساهموا بحوالى ٤٠ مليون دولار، ويعادل المبلغ حالياً ربع مليار دولار، وتم إتمام بناء المفاعل واكتملت مواصفاته عام ١٩٦٢، وبدأ العمل به عام ١٩٦٣، وأنتج سلاحه النووى الأول بحلول عام ١٩٦٧. ومذاك ويُعتَقَد بأن إسرائيل تمتلك سادس - ويحتمل خامس- أكبر ترسانة أسلحة نووية فى العالم، -حوالى مائتى رأس نووى- بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا وبريطانيا.

خطط برنامج إسرائيل النووى، والمنظمة الاستخباراتية التى أنشئت لدعمه، أناس من جيل شهد رعباً مباشراً لا يمكن تخيله فى المحرقة، وكلهم فقدوا أفراداً من عائلاتهم الكبيرة. وفى الواقع فقد نحتت عبارة "مستحيل مرة أخرى" على أول قنبلة ذرية إسرائيلية.

اعتُبر المشروع بالغ الأهمية للأمن مستقبلاً ولبقاء الأمة الصغيرة لدرجة أنه لم يُقَتَر أحد فى التكاليف ولم يكن هناك حدود لا يمكن تخطيها فى سبيل الوصول إلى الهدف النهائى: وهو سلاح ردع نووى متكامل الأركان مزود بكل أنظمة التوصيل المحتملة.

وبخلاف ديفيد بن جوريون الذى اتخذ القرار النهائى بالبداية فى المشروع، كان هناك ثلاثة أشخاص مسئولين أولاً وبشكل سرى عن تحويل القنبلة الإسرائيلية لأمر واقع.

الأول كان شمعون بيريز الذى تولى إدارة الجانب الدبلوماسى الدقيق للأمور مع الفرنسيين وكان المسئول الأول، وقال عن تحفظه: لم يُعرَف سوى القليل جداً عن برنامجنا النووى، وأردت أن يعرف أقل من ذلك حتى عن دورى.

وشعرت بأننى إذا كُشف أمرى، فستدمرنى الصحافة أنا والمشروع سواء، فبعد كل شئ كنت شخصاً مثيراً للجدل سياسياً وحالماً متهوراً، وبدا المشروع ذاته رائعاً للغاية. ولهذا السبب لم يدرج اسمى بأية لجنة رسمية أسست فى مجال الطاقة النووية، لكن هذا لم يمنعنى من إدارة المشروع برمته بفاعلية نيابة عن بن جوريون، ولم يحد أحد من سلطتى بأى شكل.

لكن فى مقابلته الشخصية مع مؤلفى الكتاب، ولأول مرة أسهب، بيريز فى الحديث عن دافعه الأساسى فى قيادة برنامج إسرائيل النووى. إذ كان محل تركيزه هو السلام بواسطة القوة:

"لتجنب استخدام القوة ضروب، ارتأيت أننا يجب أن نكون أقوياء، فكرت فى مفاعل ديمونة -وهو الخيار النووى- بحثاً عن السلام، ولعب أرنون دوراً هاماً فى إنجاز تلك المهمة".

والشخص الثانى الذى ساهم فى تطوير البرنامج النووى الإسرائيلى كان الدكتور إرنست ديفيد بريغمان، والذى سُمى عن استحقاق أبو القنبلة الإسرائيلى. وكان عالم كيمياء ألمانيا يهودياً نابهاً رحل عن ألمانيا بصعود هتلر فى عام ١٩٣٣ وانضم فى النهاية إلى الدكتور حايم وايزمان ولعهده العلمى فى «روحوفوت». كان بريغمان كبير العلماء العاملين بالبرنامج.

الشخص الثالث كان رجلاً خفياً، وكان مسئولاً عن الاستخبارات المضادة والأمن فى وزارة الدفاع حتى أختير شخصياً فى عام ١٩٥٧ من قبل بيريز نفسه لتولى كل الأمور المتعلقة بالأمن لضمان نجاح البرنامج. كان اسمه بنيامين بلومبيرغ.

لم يكن بلومبيرغ مشهوراً فى إسرائيل أو فى أى مكان آخر، لكنه أصبح

أسطورياً في دائرة الاستخبارات الإسرائيلية الصغيرة ككبير رهبان السرية. وكان أقرب مثيل له في مشروع مانهاتن هو الفريق ليزلي غروف.

وما إن باشر عمله لإتمام النسخة الإسرائيلية السرية الضخمة من مشروع مانهاتن، أدرك بيريز -الحائز حالياً على جائزة نوبل للسلام- أن عليه خداع الناس بشكل كبير لتجنب الاكتشاف المبكر والملاحقة الدولية المحتملة لإنهاء المشروع قبل أن تقوم له قائمة. وأدرك أيضاً أن البرنامج سيحتاج إلى سبيل للوصول للمواد والمعدات والتي لم يكن من السهل الحصول عليها في السوق المفتوحة، وأنه ليس هناك إلا دول قليلة مستعدة لببيع تلك المواد لإسرائيل.

ولتجاوز تلك المشاكل المعقدة والمثبطة للهمم، قرر بيريز إنشاء منظمة جديدة بالغة السرية، وحدة بالغة السرية لدرجة أن أهم وكالة استخبارات في إسرائيل -الموساد- لم تعرف بوجودها لسنوات تالية، بالرغم من أنها كانت تدار من مقرها ذاته. وعندما عرفوا بها، فعلوا كل ما في مقدورهم لوقف العملية المارقة، وفي النهاية تقبلها الموساد وعمل معها عن كُتب.

ولفترة من الوقت عملت الوحدة السرية بدون اسم من مكاتب صغيرة داخل مقر وزارة الدفاع في تل أبيب. ولاحقاً أُعطيت الاسم الغامض مكتب المهام الخاصة، ونقلت من وزارة الدفاع إلى منطقة تجارية غير معروفة، في الدور الثالث في مبنى إداري غير مميز في شارع كارلباخ، على ناصية شارع هاتشاشمونيم في تل أبيب.

في مطلع السبعينيات تبنت الوحدة اسم مكتب الاتصال العلمي واختصارها العبري لأكام، وكانت كنيته الموساد ٢. ومهمتها المحددة الأساسية هي تأمين المواد والمعدات التي ستجعل إنتاج القنابل النووية ممكناً.

أوكل إليها تحقيق ذلك بأية وسيلة ممكنة، بواسطة عمليات الشراء الشرعية من السوق المفتوحة إن أمكن، وبالسرقة والخداع إن لزم الأمر، وبالقوة والقتل كملأذ أخير.

وكانت مهمة بلومبيرغ هي التأكد من تذليل أية عقبات قد تواجه العلماء والعاملين في المفاعل بالقرب من مدينة ديمونة الصحراوية حتى يتمكنوا من تحقيق هدفهم النهائي. وفي الأعوام اللاحقة كان للأكام أن تتولى مهاماً أكبر بكثير من مهامها في البحث عن أية تقنية متعلقة بأنظمة توصيل الأسلحة النووية، مثل توجيه الصواريخ، وتكنولوجيا تصغير القنبلة الذرية، والمفاتيح النووية، نابذات تخصيب اليورانيوم، وقود الصواريخ الصلب، وأجهزة تشويش الصوت، ومعدات الرؤية الليلية، والعديد من المواد والمعدات والتصميمات الحساسة العلمية والتكنولوجية.

تم تشكيل عدد من المفوضيات باللغة السرية، تضم ممثلين مختارين ومحل ثقة من المجمع الصناعي العسكري الإسرائيلي والمعاهد العلمية.

كان هؤلاء المفوضون يعقدون اجتماعاً كل أسبوع تقدم فيه قوائم المواد باللغة الحساسة والتي يصعب الحصول عليها والمطلوبة للعديد من المشاريع إلى منسق التجهيزات، والذي كان عميلاً سرياً في الأكام.

كان المفوضون عادة ما يشرحون المواد المدرجة في القائمة، والغرض منها، ودرجة أهميتها، وأماكن وجودها المحتملة، وأية معلومة أخرى وثيقة الصلة يمكن أن تساعد في جلبها. وبالطبع لم يكن لدى ممثلي تلك المشروعات أدنى فكرة عما يفعله العميل السري للأكام فعلياً، كل ما كانوا يعرفونه أنه هو من يلجأون إليه لطلب الأغراض التي يصعب الحصول عليها. أما عن تفاصيل

الطريقة التي تجلب بها تلك الأغراض فلم يكن هذا من شأنهم. إن عاجلاً أم أجلاً كانت تلك الأغراض تظهر أمامهم وتمضى المشاريع قدماً، بلا أسئلة تطرح.

فى النهاية ومع نجاحها المستمر، توسعت لاكام لتصبح متعهداً عاماً للحصول على ما يتطلبه المشروع على المستوى الدولى -غالباً عن طريق السرقة- أى لكل الاحتياجات العلمية والتكنولوجية لما سيصبح لاحقاً المجمع الإسرائيلى العسكرى الصناعى الموسع المملوك للحكومة. وكمجموعة ستتطور تلك الصناعات الإسرائيلية لتصبح رابع أكبر مُصدّر للأنظمة المتعلقة بالدفاع العسكرى فى العالم، بعد الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا، وتحقق مبيعات سنوية بمليارات الدولارات، وأغلب الفضل فى ذلك يعود للاكام.

كانت لاكام وليس الموساد هى التى لعبت الدور الحاسم فى بناء أساس قدرة الردع الإسرائيلية النووية. ويوضح تقرير كتبتة الاستخبارات المركزية الأمريكية عام ١٩٧٦ مدى نجاح لاكام فى إخفاء وجودها. ورصد التقرير وحلل بعناية ودقة شديديتين المجتمع الاستخباراتى برمته فى إسرائيل وكل أفرعه المتنوعة، مشيراً بشكل عام، إلى اهتمام إسرائيل الكبير بالعلوم والتكنولوجيا فى البلدان الغربية. لكن الشيء المثير للفضول هو أن ذلك التقرير لم يذكر قط مكتب المهام الخاصة أو مكتب الاتصال العلمى أى لاكام.

لكن بدلاً من ذلك كانت كل الشكوك فى التقرير من نصيب الموساد، وخدم هذا لاكام أيما خدمة، وأثار الابتسامات على وجوه أولئك العالمين ببواطن الأمور فيها. بالرغم من التقدم الهائل فى الموارد، والقوة البشرية، والميزانيات، والتكنولوجيا، كانت الاستخبارات الأمريكية لا تعرف أى شىء عن وجود لاكام

وكانت قد ظلت هكذا منذ ١٩٥٧ . لكن كان لها أن تعرف بأمر تلك المنظمة في ظروف فاضحة بعد عدة أعوام أى فى عام ١٩٨٥ .

وعلاوة على ذلك، فقد تفاضت الاستخبارات الأمريكية عن مراقبة تلك الواجهة لأنها اعتمدت بشكل عام على التفاهم الرسمى بين إسرائيل والولايات المتحدة بأن يتجنب البلدان التدخل فى أسرار أحدهما الآخر، ذلك الاتفاق الذى خرق مراراً وبشكل سافر، كما هو واضح فى التسريب الأخير غير المصرح به من قبل ويكيليكس عن البرقيات الدبلوماسية السرية.

استندت وضعية لاكام شديدة السرية على عمل رئيس قسم الاستخبارات المضادة فى السى أى إيه الأسطورى جيمس جيزاس أنغلتون، والذى أدار الملف الإسرائيلى فى السى أى إيه وكأنه ملكيته الشخصية. كان صديقاً جريئاً عزم على غض البصر طالما تسير استخبارات الموساد فى الاتحاد السوفييتى على هواه.

أثناء أول اختكاك له بالسياسة نيابة عن حملة حزب رافى فى صيف عام ١٩٦٥، قابل ميلتشان بينجامين بلومبيرغ، وهو رجل سيصبح من أهم الأشخاص وأكثرهم قيمة فى حياته. عرّفه عليه الأب الروحى بيريز والذى قال "إن كانت هناك قيمة واحدة وددت غرسها فى الشاب أرنون، فقد كانت هى أن الرجل الذى يخدم غروره يعد رجلاً تافهاً، والرجل الحقيقى يجب أن يخدم قضية أكبر منه، وهذا ما يملأ حياة المرء بمعنى حقيقى".

وعلى خلاف بيريز لم يكن بلومبيرغ جزءاً من الحركة السياسية. بل كان رجلاً متحفظاً ساعده صمته فى الحفاظ على منصبه كرئيس لمنظمة لاكام حتى بعدما ترك كل من بيريز وبن جوريون وزارة الدفاع. ويوصف بلومبيرغ من قبل

من قابلوه صدفة، لكنهم لا يعرفونه جيداً، بأنه رجل بارد ذو وجه جامد صارم. يوافق مظهره الصورة البصرية لموظف حكومي من الشريحة المتوسطة، وكان من الصعب على الكثيرين أن يصدقوا أن هذا الرجل المنضبط قليل الحديث أنشأ شبكة استخبارات عالمية ذات جرأة وتعقيد وسرية غير مسبقة. وأصبح ميلتشان ممن جندهم، صديقاً له، وأجرأ عميل لديه.

كان أول اجتماع لهما غير رسمي في كافيتيريا في مبنى المنظمة الصهيونية الأمريكية في شارع ابن غافريول. ولاحقاً، اكتسبت اجتماعات غرفة الحرب في لاكام زخماً أكبر. وكانت عملية التجنيد تدريجية، لكنها لم تتطلب كثيراً من الإقناع، بالرغم من الفارق العمري بينهما، والذي يتجاوز العشرين عاماً، فقد أصبح بينجامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان صديقين حميمين وفق ما قاله عميل سابق في لاكام. وأضاف "إن المرات الوحيدة التي كنت أرى فيها بلومبيرغ مبتسماً كانت تلك التي يكون فيها في صحبة ميلتشان. كان ميلتشان الوحيد الذي لديه القدرة على اختراق واجهة بلومبيرغ وفتح أحاديث صغيرة مع كبير رهبان السرية".

كان دور بلومبيرغ في برنامج إسرائيل النووي جوهرياً. في عام ١٩٥٨، التقطت الولايات المتحدة صوراً فوتوغرافية لمفاعل ديمونة من طائرات التجسس طراز يو ٢، تعرف محلل الصور الأمريكي الأسطوري دينو بروغيوني على الموقع في الحال على أنه مجمع محتمل لمفاعلات ماركول فرنسي التصميم.

وبالرغم من وجود سياسة صارمة لمراقبة كل كلمة تخص المفاعل في إسرائيل آنذاك، تسربت المعلومة في النهاية في ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٠. ونشرت جريدة نيويورك تايمز الخبر في مقالة بالصفحة الأولى، بناء على

تسريبات من مصادر بالحكومة الأمريكية، في مجهود مكثف لإجبار الإسرائيليين على الاعتراف بالعملية.

في تلك المرحلة أُجبر بن جوريون على الظهور على منصة الكنيست والاعتراف علناً بوجود المفاعل النووي، والذي أقسم أنه لأغراض سلمية فقط. بالطبع ومن البداية لم يكن لدى بيريز ولا بن جوريون نية في حفظ أى وعود بشأن سلمية البرنامج، لكن إسرائيل لعبت دور البريئة. عندما أصرت الولايات المتحدة على الفحص الفيزيقي للمفاعل، عمل بلومبيرغ وفريقه بكامل طاقتهم وجُهِز المفاعل بكلمه بحوائط مزيفة، وغرفة تحكم مزيفة، وبنوافذ مزيفة، وبممرات لا تؤدي إلى شيء، تلك التجهيزات التي من شأنها أن تُشعر أى مصمم مواقع فى هوليوود بالخزي.

وما أن غادر الأمريكيون، تم تفكيك تلك المشاهد المعقدة سريعاً وتخزينها على مقربة تحسباً لجولة تالية. ورحل المفتشون بلا أدنى فكرة عما كان يحدث بالفعل فى ديمونة بعد زيارات عديدة ما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٩ . وفى النهاية استسلم الأمريكيون.

وطوال عقد الستينيات بأكمله كان بلومبيرغ يرافق شخصياً كل شحنة كبيرة من المعدات من وإلى المفاعل والمواد التي بدت أنها تظهر فجأة فى إسرائيل كما السحر، بأسلوب حاسم وإصرار يكاد يكون متطرفاً لإتمام المشروع. وفى حالة وجود أى فرد يفرط فى الكلام أو يحتاج للتقويم، كان بلومبيرغ هو من يتولى تلك المهمة شخصياً. كان يجلسهم وينظر فى أعينهم ويحذرهم بصوته الصارم الخافت الهادئ، وكأنه يهمس.

وبعد تلك المقابلات المدمرة للأعصاب، كان الأفراد نادراً ما يعودون لنفس

الخطأ مجدداً.

ويحلول منتصف الستينيات، تقريباً في ذات الوقت الذي تم تجنيد ميلتشان فيه، اتخذت فرنسا التي كانت تحت قيادة ديغول قراراً استراتيجياً بإصلاح علاقاتها مع العرب، على حساب إسرائيل. بدأ التحالف القوى بين فرنسا وإسرائيل والذي استمر على ذلك الحال منذ قيامها، يتداعى، وأجبرت إسرائيل على المضي قدماً وحدها حتى عثرت على داعم جديد.

غدت لأكام أكثر أهمية بعد انتهاء التحالف مع فرنسا، واحتاجت إسرائيل لمعدات ومواد إضافية لم تعد متاحة من فرنسا. كان من الواضح أيضاً صعوبة الحصول على أى من تلك المواد من أى مكان آخر. وبالطبع كانت مهمة لأكام ملء الفجوات وبدأت تتجه لأرنون ميلتشان لتحقيق ذلك.

ومن ذلك المنطلق، نشر بلومبيرغ شبكة من الملحقين العلميين عبر الولايات المتحدة وإيطاليا وبريطانيا العظمى وألمانيا وفرنسا، واختيروا جميعهم من نخبة من علماء الكيمياء والفيزياء والمهندسين، ومعظمهم كان على صلة بشكل ما بوكالة الطاقة الذرية الإسرائيلية، أو بفروع أخرى من صناعات الدفاع العسكرى الإسرائيلية. وكلفوا بالمتابعة الدقيقة لأى تطور علمى أو تكنولوجيا فى العالم، والاشتراك فى جميع الصحف الدورية والعلمية، وتطوير علاقاتهم المهنية والشخصية بالعلماء فى البلدان التى بعثوا إليها وإرسال تقارير عن مهامهم.

وقد كان الملحقون من العلماء يرفعون تقاريرهم لبلومبيرغ شخصياً، وكانت كل التقارير مألها إلى مكتبه. وكان موظفو لأكام يبلغونهم بالتعليمات فى خصوصية قبل أن يغادروا البلاد، ويستجوبونهم فور عودتهم. وفى بعض

الحالات كانوا يعملون أيضاً كحلقات وصل بين الجامعات الكبيرة والمعاهد العلمية، وبين العلماء اليهود والإسرائيليين الذين قد عملوا بها. وكان هؤلاء العلماء غالباً أكاديميين فى إجازات دراسية، وغالباً ما كان يطلب منهم خدمات لصالح لاكام. وقد ظل المجتمع العلمى فى إسرائيل وثيق الصلة بالمؤسسة، ومعتمداً عليها أيضاً.

أصبحت لاكام، ببطء ولكن بيقين، وبالتجربة، أكثر ثقة، وأكثر جرأة، وبمرور الوقت تولت المزيد من المهام، ثم أضافت ملحقين عسكريين بالسفارات الإسرائيلية إلى شبكتها أيضاً. وبعد فترة وجيزة بدأ بلومبيرغ بوجه ملحقه للبحث عن مواد مسروقة فعلياً من الهواة الذين كانوا يتعاطون معهم فى مختلف المعاهد العلمية، تقرير بحثى هنا، أو رسمة تقنية هناك.

وأدار بلومبيرغ بطرق كلاسيكية وسينمائية عمليات نقل المواد المسروقة وتسليمها، من تبادل الطرود أسفل المناضد فى المقاهى العامة إلى تسليمها فى حمامات المطارات. وفى النهاية كانت المواد توضع فى حقائب دبلوماسية وترسل إلى تل أبيب لتحليلها، وتوزع على الكيانات العلمية والدفاعية المتنوعة والتي يمكنها الاستفادة منها بأقصى درجة ممكنة.

حدثت إحدى أولى عمليات لاكام فى الولايات المتحدة فى مطلع الستينيات، اكتشف جون هادين رئيس مكتب السى آى إيه فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب -والذى أدار معركة دهاء حامية مع بلومبيرغ، بالإضافة إلى برنامج متكامل للتجسس على الأنشطة حول مفاعل ديمونة- شحنة تقدر بمائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ذهبت كلها إلى البرنامج النووى الإسرائيلى. وقادته عدة خيوط إلى شركة المواد والمعدات النووية، إن يو إم إى سى فى أبولو،

بنسلفانيا. كان مالك المصنع اسمه الدكتور زلمان شابيرو. الذى كان قد عمل فى مشروع مانهاتن، قبل ذلك بأعوام، ثم عمل لاحقاً فى الهيئة النووية التنظيمية الأمريكية.

وكان هادين مقتنعاً أن المصنع فى بنسلفانيا قد أنشئ بأموال إسرائيلية وأن الغرض الأساسى هو إمداد مفاعل ديمونة باليورانيوم المخصب. وبالرغم من أن هادين كان بحوزته دليل الإدانة، فقد تم تسوية المشكلة فى النهاية بغرامة دفعها المصنع بتهمة الإهمال. ولم يُتهم شابيرو قط، ولم يتم العثور على المائتى رطل من اليورانيوم المخصب، ولم يُقدم دليل قاطع بإطلاقه.

لكن كانت هناك مشكلة مع الملحقين العلميين، والذين لم يكونوا عملاء مدربين بحرفية. من ناحية، كانت تلك طريقة جريئة وغير تقليدية وعملت لصالح بلومبيرغ، لكنها من ناحية أخرى كانت تحمل المخاطر. وحدث عدد من الوقائع كادت تنتهى بدخول العملاء السجن، كما فى واقعة شركة المواد والمعدات النووية. ومع ذلك فقد تزايد الطلب على الاستخبارات العلمية مع كل خطوة صغيرة على درب تحقيق الأهداف الاستراتيجية. وأدرك بلومبيرغ أنه يحتاج للتوسع فى أساليبه إن كان له أن يستمر فى سد الاحتياجات المتزايدة لمنظّماته وللكيانات الأخرى المتعلقة بالدفاع العسكرى.

وهكذا توصل للبحث عن شخصيات رئيسية فاعلة فى قطاع الأعمال الإسرائيلى والدولى وتجنيدهم. وهذا ما حفز بلومبيرغ عندما قابل ميلتشان الشاب المبهر، والذى -كما هؤلاء العلماء- كان متحمساً لفرصة خدمة بلاده. وأصبح لبلومبيرغ ذراع دولية حقيقية.

ويطرق عدة، كانت علاقة بلومبيرغ بمن جندهم من قادة البرنامج تكافلية.

إذ فهم الجميع أنهم لا يعملون لصالح الحكومة الإسرائيلية بصورة رسمية، وكانوا لا يتلقون أجوراً ولم يتكفل أحد بدفع مصاريف التأمين على علاج الأسنان. وفي مقابل خدماتهم السرية كانوا يعاملون كأمرء بين الناس. وكانت أعوام ميلتشان الأولى مع لاكام هي الأكثر زخماً في تاريخ المنظمة، وكان إبداع ميلتشان ضمن أصول المنظمة الجوهرية.

ذاق الإثارة لأول مرة أثناء اثنتين من أشهر العمليات التي أدارتها لاكام، وحدثت كلتاها بعدما فرضت فرنسا حظراً كاملاً على إمداد إسرائيل بالسلاح بعد حرب الأيام الستة. إحداها كانت تدعى عملية تشيربورغ من قبل الموساد، بينما اضطلعت لاكام بالعملية الثانية وتدعى ستاربوت. وكانت العملية توضيحاً مبهرراً للطريقة التي كانت لاكام تجند بها عملاءها وتعمل بها عن كثب مع شخصيات رجال الأعمال القائدة من القطاع الخاص الإسرائيلي، والذين سعد أغلبهم بأن طلب منهم أداء الخدمة.

في عشية رأس السنة عام ١٩٦٩، غادر عملاء الاستخبارات الإسرائيلية ميناء تشيربورغ الفرنسي بخمسة قوارب محملة بالصواريخ كانت إسرائيل قد دفعت ثمنها بالفعل، لكن الفرنسيين كانوا يرفضون الإفراج عنها بسبب حظر السلاح الذي كانوا قد فرضوه مؤخراً. وفي هذه العملية بالتحديد، جندت لاكام رجل أعمال إسرائيلياً شهيراً يدعى ميلا برينر، وكان من أكثر الرجال ثراءً في إسرائيل ومالك لشركة شحن سفن كانت تنقل الموانع أصلاً من إسرائيل إلى أوروبا، وكانت مهمة برينر هي افتتاح شركة وهمية لاستكشاف البترول في النرويج تدعى ستاربوت، تمويلها حسابات لاكام السرية. وكانت ستسجل على أنها شركة من باناما ومن ثم تقدم عرضاً وهمياً للحكومة الفرنسية لشراء القوارب الموجودة في ميناء تشيربورغ. وقدمت الحكومة الفرنسية العرض إلى

إسرائيل والتي دخلت في مفاوضات حامية مع الشركة النرويجية. وبعد أسبوع من المساومات المزعومة، وافق الإسرائيليون على بيع القوارب إلى النرويجيين، والذين لم يوافقوا على البيع النهائي إلا بعد السماح لهم بتجربة القوارب في البحر للتأكد من صلاحيتها. ووافقت كل الأطراف على ذلك.

وانطلقت مجموعة من عملاء الموساد الإسرائيليين الشقر يلعبون دور بحارة نرويجيين إلى البحر المفتوح، بتصريح كامل من الحكومة الفرنسية، للقيام بما كان يفترض أنها تجربة أداء سريعة. ولم تعد القوارب قط لتشيربورغ، وبدلاً من ذلك توجهت مباشرة إلى شرق البحر المتوسط. وعندما فطن الفرنسيون لما كان يحدث، كانت القوارب قد قطعت نصف المسافة بالفعل إلى إسرائيل.

ونظمت لأكام عدة لقاءات سرية كانت قد حُددت مسبقاً لتزويد قوارب الصواريخ بالوقود في البحر المتوسط. وتم تحقيق ذلك بمكالمة واحدة إلى شركة الشحن الوطنية الإسرائيلية زيم.

وصدم الفرنسيون وأخرجوا عندما ظهرت العملية الاحتيالية الوقحة للعلن. وانتقموا بطرد الملحق العسكري الإسرائيلي موردخاي موشا ليمون من فرنسا.

كانت تلك الأيام الجامحة التي أعقبت حرب الأيام الستة، عندما بدا أن كل شيء ممكن وكانت الوقاحة فضيلة يحتفى بها. ازدهرت أعمال لأكام ووجدت أي مادة متعلقة بالدفاع العسكري يمكن تخيلها طريقها إلى إسرائيل. ومن نجاحات لأكام الساحقة الأخرى والتي عززت سمعة بلومبيرغ في الدوائر الاستخباراتية الإسرائيلية ودفعت بها إلى أفاق جديدة كانت هي السرقة

الوقحة لتصميم المقاتلة الجوية سوير ميراج، وهي أفضل طائرة حربية فى فرنسا، من مصنع سويسرى لحركات الطائرات، وهى عملية أخرى تم تنفيذها فى عام ١٩٦٩ .

كان الكولونيل دوف سيون زوج ابنة موشيه ديان هو الملحق العسكرى الإسرائيلى فى مدينة بيرن. تعرف سيون على عامل ساخط من الشركة السويسرية اسمه ألفريد فراونكنيخت وجنده، ولم يكن العامل يهودياً لكنه كان داعماً قوياً لإسرائيل. تم دفع حوالى ٢٠٠ ألف دولار لفراونكنيخت لتسليم التصميمات الكاملة للطائرة المقاتلة ميراج عن طريق وضع بروفات تصميم الطائرة كاملة فى صناديق فى مناسبات منفصلة مختلفة وتسليمها لسائق ألمانى اسمه هانز ستراخر، والذى كان ينقلها بالسيارة إلى روما ومنها إلى إسرائيل فى حقائب دبلوماسية.

فى النهاية لاحظت السلطات السويسرية ما كان يحدث، وأنذاك كان بلومبيرغ قد نقل معظم التصميمات إلى مكاتب لكام بتل أبيب، وسلمها سريعاً إلى آل شويمر، رئيس مجلس إدارة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية. تم القبض على فراونكنيخت واعترف فى الحال، وصرح بأنه فعل كل ذلك لأسباب أيديولوجية، بسبب تعاطفه مع إسرائيل.

حكم عليه بحكم مخفف وهو عام فى السجن. أما السائق هانز ستراخر فقد أفلت من القبض عليه بشق الأنفس وتم تهريبه إلى إسرائيل، حيث أعطته لكام هوية جديدة قبل أن ينتقل إلى بلد غير معروف لبدأ حياة جديدة أخرى. وتكرر منهج لكام مراراً فى حالات أخرى عندما كان يتم اكتشاف عملائها.

فى ٢٩ من أبريل عام ١٩٧٥ استعرضت إسرائيل أحدث طائرة مقاتلة

أصلية لديها واسمها الكفير، والتي بدت مشابهة بشكل صادم للطائرة ميراج. سافر فراونكنيخت إلى إسرائيل ليشهد انطلاقتها الأولى، وكان ضمن الحضور أيضاً بنيامين بلومبيرغ وأرنون ميلتشان وعملاء آخرون في لاكام.

في نوفمبر من عام ١٩٦٨، اشترت شركة كيماويات ألمانية اسمها أسمرة، من خلال شبكة معقدة من الشركات الفرعية، مانتى طن من أكسيد اليورانيوم أو الكعكة الصفراء. وأصدروا شهادة مستخدم نهائى كما هو مطلوب لأية صفقة بيع دولية تتضمن اليورانيوم، وكان لديهم جميع الوثائق المطلوبة. وصل الكعك الأصفر إلى ميناء أنتويرب فى بلجيكا من منجم للمعادن فى الكونغو مملوك لشركة بلجيكية اسمها سوسيستيه جنرال دى مينارو. ومن ميناء أنتويرب، تم تحميل الشحنة على سفينة اسمها شيزبيرغ أيه ترفع العلم الليبيرى.

وأخطرت السفينة المختصين بأن وجهتها هى جنوة بإيطاليا. ولم تصل هناك قط. وبدلاً من أن تتجه شمالاً عندما دخلت البحر المتوسط، مضت شرقاً. وفى مكان ما فى البحر المتوسط تلاقت مع سفينة إسرائيلية مملوكة لشركة زيم، ولم ير أحد المانتى طن من أكسيد اليورانيوم مجدداً أبداً. وبعد بضعة أيام شوهدت السفينة فى مدينة الإسكندرونة بتركيا، بدون حمولتها وباسم جديد.

وعرفت الواقعة برمتها باسم العملية بلامبات. وهو لفظ مشتق من الكلمة الإيطالية بلامبام وتعنى معدن الرصاص، فى إشارة إلى علامة الطبول التى كانت تستخدم لنقل الكعكة الصفراء. كانت شبكة شركات الواجهة والخداع المستخدم فى العملية معقدة للغاية لدرجة أن السلطات الأوروبية لم تتمكن يوماً من حل لغز خطة العملية.



وأثناء تلك العمليات تعرف ميلتشان لأول مرة على مجال الاستخبارات، وعرف كيف يعمل في الظل مع بنيامين بلومبيرغ. وتعلم أيضاً لم عليه أن يبتعد عن الإعلام، تعلم ميلتشان كيف يلتزم الصمت وكيف يعمل في عزلة مطلقة. وتعلم لم تُعد السرية المزدوجة مهمة: السرية عن العدو بالخارج والسرية عن الغرماء بالداخل... أي الموساد، وأمان، وشاباك، ووزارة الشؤون الخارجية.

تعلم كيف ينشئ شركات واجهة مستخدماً هوية لطرف ثالث، وحسابات مصرفية سرية، ووثائق مستخدم نهائي مزورة، وحقائب دبلوماسية، ومواعيد للقاءات في منتصف البحر لشحنات السفن. وتعلم كيف يجند ويحفز المواطنين الأجانب لتنفيذ أوامره من خلال إثارة الشهوة والطمع وأي ضعف آخر يمكنه استغلاله. باختصار، تعلم فن العملاء السريين من بلومبيرغ، الذي كان صبوراً للغاية مع الشاب أرنون. عندما كان ميلتشان يتحدث، كان بلومبيرغ يرتشف ببطء من قدح الشاي وينصت، في الأغلب وهو صامت.

راقت طبيعة لاكام لشخصية ميلتشان، إذ أديرت المنظمة بحسم وعلى عجل، بقليل من أخطاء الغفلة الرسمية، وكانت الفكرة وراءها هي تشجيع وجود بيئة خلاقة للجرأة والمخاطر المحسوبة. بحث بلومبيرغ عن عملاء عدوانيين يتمتعون بروح المغامرة ويفكرون خارج القوالب المعهودة، عن أشخاص يظهرون التوازن المناسب بين الحكم الصائب والقدرة على الارتجال الميداني ويقدرسون مسئولية المخاطر بدون الحاجة للاتصال بقياداتهم في الوطن كل دقيقة. وحقق إبداع لاكام نجاحاً غير مسبوق لإسرائيل، لكن تلك العقلية ذاتها هي التي أدت إلى الكارثة.

كانت علاقة العمل الوثيقة بين ميلتشان وبلومبيرغ مثمرة بما يفوق الحاجة،

ولن تُعرف تفاصيل معظمها أبداً. عندما يسترجع بلومبيرغ برضا بالغ تفاصيل الشبكة الدولية التي أنشأها، يبرز اسم ميلتشان كثيراً. عندما كان بلومبيرغ يحتاج لألف طن من بيركلورات الأمونيوم، والبيوتاريكز وألياف الكربون، وبوصلات جبرسكوبية خاملة، ومقاييسات تعجيل، ورادارات لتحديد الدقة، ومواد أخرى أساسية مطلوبة من أى شخص يسعى لتطوير سلاح ردع نووى، كان يتصل بميلتشان.

كان انتقال ميلتشان المستمر بين الدول والقارات هو ما جعله هدفاً مراوفاً لأى جهود استخبارات مضادة، وهذا ما جعله من أهم المكاسب المثمرة للأكام ولدولة إسرائيل.

الجمال الخطير

بدأت المشكلة عندما تعلمت هي العبرية وتعلمتُ أنا الفرنسية.

أرنون ميلتشان مجلة لوس أنجلوس في أبريل ٢٠٠٠

بالنسبة لأي شخص طبيعي فالفاعلية السياسية، وإدارة جمعية للكيماويات والأسمدة، والعمل كأحد مقومات الاستخبارات أنشطة كافية لشغل الوقت. لكن بالنسبة لشخص مثل ميلتشان، وحتى وهو في مستهل العشرينات، لم تكن كافية بأي شكل، كان منذ صغره مفتوناً بالأفلام وبالمشاهير، وبدأ يتردد على مواقع تصوير بضعة أفلام أنتجت في إسرائيل، وبدأت فكرة المساهمة في البيزنس تكبر معه.

و ذات يوم فى فبراير عام ١٩٦٥ ، وفى طريقه لاجتماع محدد الموعد مسبقاً فى رواق فندق هيلتون تل أبيب ، وكان أكبر وأفخم فندق شاطئى فى المدينة آنذاك، لاحظ شابة رائعة الجمال تصادف أنها عارضة أزياء فرنسية. ذكرته ببريجيت باربو، فتاة فرنسية فاتنة أخرى كانت من رموز ثقافة السينما الشعبية آنذاك، وكانت تلك الشابة قد دعيت إلى إسرائيل فى جهد لإضفاء السحر الأوروبى على أول عرض أزياء ضخم للبلد المنعزل. وكان سيقام فى نفس الفندق ذلك الأسبوع وكان حدثاً إعلامياً محلياً هاماً.

وبإصراره المعهود، لكن بحذر ولباقة، توصل لاسمها 'بريجيت غونمير'، وعرف أنها قريبة من بعيد لوزير الخارجية الفرنسى السابق بيير مينديز. وخلال ساعات تخلّى عن كل المحاذير وبدأت علاقة شغوفة.

ووقع أرنون في غرامها، واستأجر غرفة في الفندق، وبالرغم من أنهما كانا يتواصلان بصعوبة - إذ تعلم هو الفرنسية عقب ذلك بأعوام ولم تكن هي تتحدث العبرية وقليلاً من الإنجليزية - فقد تجاذبا جسدياً ونهلا من بعضهما.

في الأيام التالية تدله في الحب تماماً، واتصل بصديقه رافى شاعولى ودبر لإغلاق ملهه الليلي مانديز تلك الليلة لإبهار بريجيت بسهرة حصرية هناك. لم يدع سوى أقرب أصدقائه، وبطبيعة الحال، فقد حضر جميع أفراد مجتمع المبدعين في تل أبيب، أو الأشخاص البوهيميين، وصفوة الصفوة.

ودعا شاعولى زوجته المتألقة، ماندى، ولأجل تلك المناسبة دعا أرنون أيضاً فرقة الروك الواعدة في إسرائيل ذا ليونز. وكانت الفرقة تعتبر من أولى الفرق الإسرائيلية التي تجرب أداء موسيقى الريجى، وفي عام ١٩٦٨ أصبحت أول فرقة إسرائيلية تنتج

أغنية تحتل مركزاً متقدماً فى قوائم الأغاني الإنجليزية بعنوان "حبنا شىء ينمو". وكان أعضاؤها قد خرجوا من أحياء الطبقة الفقيرة والتي لم يكن أرنون يألّفها جيداً أو يرتاح لها.

وكان عازف الباص فى الفرقة فتى هيبيا معدماً مجهولاً طويل الشعر، والذي أصبح لاحقاً ملياديراً وأحد أباطرة الإعلام فى الولايات المتحدة، وأحد أكبر المتبرعين للحزب الديموقراطى واسمه حايم صبان، الرجل الذى قدم لكل طفل أمريكى شخصيات مشهورة عالمياً مثل سلاحف النينجا وبارو رينجرز، يمتلك أيضاً شركة يونيفيجن، وهى أكبر شركة إعلام إسبانية فى الولايات المتحدة، وأصبح فى النهاية شريكاً فى العمل مع أرنون ميلتشان، فى الملكية المشتركة للقناة العاشرة الإسرائيلية. اعتاد صبان والفرقة العزف فى ملاه ليلية وضيعة فى أحياء فقيرة قاسية، وجاءت دعوتهم فجأة للعزف فى أرقى ملهى ليلى فى تل أبيب كطرفة غيرت مسيرتهم. ويتذكر صبان جيداً اليوم الذى تلقت فيه فرقته دعوة للعزف فى ملهى مانديز حيث يقول:

"كنا متحمسين وكأنا نجحنا أخيراً، إذ فى النهاية سنتمكن من الاحتكاك بصفوة المجتمع فى تل أبيب، عاصمة البلد الثقافية، كل الوجهاء كانوا هناك. أبرم أرنون الصفقة معنا عن فقرتين من ثلاث أغان تتخللهما استراحة قصيرة فى المنتصف. وكانت تلك الفرصة التى كنا نبحث عنها بالتأكيد، إذ كانت الفرصة الأولى لأشخاص طويلي الشعر مثلاً للتعامل مع النخبة الثقافية للحصول على بعض الشرعية".

كان الأمر يتطلب أربعة عمال لحمل معدات الفرقة الثقيلة إلى أعلى المسرح، بما فيها أرغن ضخّم. كان كل شىء معداً للبدء. وبدأ فريق ليونز فى العزف وسار كل شىء على ما يرام، وبدأ الجمهور منسجماً مع العزف. لكن بعد الأغنية الثالثة فى

الفقرة الأولى حيث كان يفترض بهم أن يأخذوا استراحة، أخذت الأمور منحني سيئاً، ويتذكره حاييم قائلاً:

"بدلاً من أن يسمحوا لنا بالاختلاط بالحضور أثناء الاستراحة، صدرت تعاليم أرنون لنا بالانتقال إلى المطبخ، وكنا نسترق النظر عبر نوافذ المطبخ وكأننا من الخدم الفقراء. ثم صعدنا للمسرح وأنهيينا الفقرة الثانية وتم اصطحابنا في الحال من الملهى إلى الباب الخلفى. هكذا كان الحال في تلك الأيام، الأشكيناز الأخير هنا، والسفريديم المنحطون هناك. هكذا قابلت أرنون ميلتشان لأول مرة."

يتذكر أرنون الذى يزعم أنه قوى الذاكرة، الأمر بشكل مختلف.

"كان الاتفاق على ثلاث أغان مقابل ٢٠٠ دولار. لاحقاً، ويعد بعض المفاوضات، أضيفت ثلاث أغان أخرى. أثناء الأغنية الثانية، كنت أرقص مع بريجيت وفجأة سمعت وراء ظهرى حديثاً بالفرنسية. فاستدرت لأرى حاييم صبان عازف الباص، يرددش بالفرنسية مع بريجيت من فوق المسرح. كونا علاقة ما ولم أكن أفهم أية كلمة بالفرنسية، وكانت تبادل الحديث ويذا أنها فتننت به... تلك الفتاة التى كنت أرقص معها! أى ببساطة كان يغازلها من فوق المسرح. لذلك بعد انتهاء الفقرة أرسلتهم إلى المطبخ. وكان هذا أبعد مكان عن بريجيت يخطر ببالي، ولولا أن حاييم صبان غازلها، لكث مع الأشكيناز، الأمر بهذه البساطة."

وكان ليلة حصرية فى ملهى مانديز لم تكن كافية، فقد نقل أرنون فى ذات الوقت مكاتب شركته ميلتشان إخوان من سوق الجملة الزراعى القذر إلى موقع أرقى بكثير على مقربة من شارع كارلباخ. أتم تلك الخطوة فى عجلة فائقة، فى الوقت المناسب لاستقبال زيارة قصيرة من بريجيت والتى لم يكن لها أى علم بالجلبة التى حدثت بسببها.

وسواء كان الأمر صدفة أم لا، فقد كان موقع ميلتشان إخوان الجديد بجوار مقر أكثر منظمات الاستخبارات سرية في إسرائيل أى لاكام.

ترك أرنون انطباعاً جيداً لدى بريجيت، التي وقعت في غرامه وقررت البقاء في إسرائيل. ومن ناحيتها فقد تركت بريجيت انطباعاً جيداً على صديق أرنون الجديد شمعون بيريز، والذي انههر بجمالها وقدر صلتها بوزير الخارجية الفرنسي السابق بيير منديز، واستمتع بيريز أيضاً باستعراض فرنسيته الطلقة.

وخلال عشرة أيام تزوج أرنون وبريجيت وفق مراسم مدنية في باريس، وخلال بضعة أشهر بدأ بطنها يكبر بالحمل. واقترح أرنون بعد ذلك زواجاً يهودياً تقليدياً. ولم تجد بريجيت مشكلة في ترك عملها أو أصولها الكاثوليكية من أجل حياة يهودية في إسرائيل.

وطلب أرنون من بريجيت اعتناق اليهودية، وهي عملية طويلة وصعبة يمكن أن تستغرق عاماً بأكمله نظراً لأنه في إسرائيل، لا يُقبل اعتناق اليهودية بشكل رسمي إلا من المسيحيين الأرثوذكس. كان سباقاً يائساً ضد الزمن لأنه بدون شهادة اعتناق يهودية رسمية، لن يولد الطفل يهودياً. لكن أرنون كان واثقاً في قدرته على ممارسة نفوذه على البيروقراطية الإسرائيلية، بما في هذا السلطة الحاخامية. ويتطور حملها، تُوجت خطوات اعتناقها اليهودية بمراسم المحكمة الحاخامية.

وفقاً لأرنون، عندما وصلت بريجيت لمراسم الميكفاه -مراسم الغطاس لدى اعتناق اليهودية- كانت تصحب أختها وأمها كشاهدتين، وكانت حاملاً في الشهر التاسع بالفعل، وسألتها زوجة الحاخام:

"هل تقسمين أنك عذراء؟"، ويدون أن تطرف لها عين ويبطنها المنتفخ وهي تقف عارية على حافة المغطس، أجابت بصوت عال "أجل".

عندما أخبرت أرنون بذلك لم يتمالك نفسه وانفجر فى الضحك.

وأقيم حفل الزفاف اليهودى المتواضع قبل أيام فقط من دخول بريجيت بيطنها المنتفخ المستشفى ولادتها لطفلها الأول. وكان ولداً وأسمياه ياريف. وكاسم فهو يعنى العدو، الخصم، أو الغريم. وكفعل يعنى سيقاثل. وهى ترجمة حرفية لمقولة أن الرب سيقاثل [ياريف] أولئك الذين يريدون إيذاء أمة إسرائيل.

وبخلاف الافتتان الأولى، فقد رأت بريجيت فى أرنون رجلاً يستطيع أن يحميها ويعولها، ويعرفها على عالم مشوق يفوق بكثير آفاقها المحدودة. ورأى أرنون فى بريجيت امرأة أجنبية شغوفة جميلة، كانت تعد فى إسرائيل فى تلك الأيام رمزاً للرقى الاجتماعى.

ووفقاً لما قاله أرنون بعد ذلك بأعوام:

"بدأت المتاعب عندما بدأت بريجيت تفهم العبرية وتتكلمها وتعلمت أنا الفرنسية".

واقترس عنه قوله عندما بدأنا نتواصل حقاً، حينها بدأت المتاعب.

كلاهما كان شاباً سريع الغضب، وليس لديه خبرة فى العلاقات.

لم يخلق أرنون ميلتشان ليستقر فى عمل واحد، أو منزل واحد، وفى تلك الحقبة من حياته، لم يكن معداً لعلاقة واحدة أيضاً، وكما شهد على نفسه:

"أقع فى الحب طوال الوقت، أقع فى حب الروح، والوجه، العينين".

"كان بحاراً يطوف بكل ميناء" هكذا يزعم المخرج تيرى غيليام، ومع كل ذلك يصف ميلتشان نفسه بأنه "رجل المرأة الواحدة".

كانت عملية تجنيد ميلتشان فى لأكام تدريجية، لكن الوقت حان ليجلس مع بيريز

واديان ليناقشوا أكثر الوسائل فاعلية بالنسبة له للإسهام فى القضية.

كان لدى ميلتشان فكرة. فقد كون بالفعل عدة صلات مع العديد من متعهدي الدفاع العسكرى وشركات الفضاء الجوى ساعياً لتمثيلهم فى إسرائيل. وإن سعت وزارة الدفاع برفق لتشجيع تلك الشركات للعمل معه كممثلهم الحصرى فى البلد، حينها سيحول العمولات المكتسبة مرة أخرى إلى إسرائيل لتمويل العمليات السرية.

وكان هذا فى الواقع الاتجاه الذى انتواه كل من بيريز وديان عندما فكرا فى ميلتشان كوزير مالية محتمل أثناء حملة حزب رافى فى الماضى إذ انبهرها بقدرته على استيعاب الصورة الكاملة، والتوصل لحلول من تلقاء نفسه، وتقديم خدماته كعمل وطنى.

وكانت الخطة التى توصلوا إليها شبيهة بالخطة الأصلية التى مولت مفاعل ديمونة نفسه. إذ إن رأس المال سيجمع خارج البلد، ويوضع فى حسابات خارجية، وسيستخدم لتمويل مهام خارج القطر يستحسن أن تظل طى الكتمان، باختصار نظام مواز لا يمكن اقتفاء أثره إلى إسرائيل نفسها.

لكن ميلتشان قدم أكثر من ذلك، إذ عرض على ديان وبيريز استخدام شركته كواجهة فى سبيل افتتاح شركات فرعية وقتما يتطلب لأكام أو الموساد ذلك من أجل نشاطاتهما.

كان لميلتشان أن يفتح حسابات وشركات واجهة لأجل دولة إسرائيل، بما يجعله مسئولاً عن تقنيات وموارد تمويل الاحتياجات الخاصة لتكامل العمليات الاستخباراتية الإسرائيلية خارج القطر. وهكذا أصبح ميلتشان الرجل الوسيط الذى لا غنى عنه.

كان لتلك الحسابات السرية أن تمكن رئيس الوزراء الإسرائيلي من تنفيذ قرارات خارج حدود إسرائيل بدون الحاجة إلى الميزانيات الرسمية، وموافقة مجلس الوزراء، والسياسات الداخلية، وتسريبات الصحافة التي قد تُعرض العمليات للخطر. بمكالمة واحدة لميلتشان، كانت الأحداث تتوالى وتصبح الموارد متاحة.

كان أرنون مستعداً الآن لغزو العالم، واقترح بيريز أنه يمكن الاستعانة بزوجه الفرنسية الجديدة بريجيت كحلقة وصل مفيدة، إذ كانت فرنسا لا تزال المورد الأول للسلاح الإسرائيلي في منتصف الستينيات ولذا كانت هي محطة ميلتشان الأولى، حيث أبرم صفقةته الأولى عندما كان يزور ما يعرف اليوم بشركة أروسباتيال.

وكان قد أُخطِر بالفعل بأن مجموعة من نخبة قيادات السلاح الجوي الإسرائيلي قد زارت مؤخراً المصنع الكائن في مارينان بالقرب من مارسيليا، وانبهروا للغاية بمروحيات النقل الثقيل سوبر فريلون. أقنع أيروسباتيال بأنهم يحتاجون لوسيط لمساعدتهم على دفع الصفقة للأمام، وبعد تحريات قصيرة، انبهروا بما يكفي بعلاقات الشاب ميلتشان القوية بكل من بيريز وديان لدرجة تعيينه كممثلهم الرسمي في إسرائيل. وتمت الصفقة بنفس السرعة التي تم بها زواج أرنون مؤخراً، وتم استحقاق العمولات الأولى للحسابات السرية.

وكردة فعل على إغلاق مصر لمضيق تيران، في صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وفي الساعة ٧:٤٥ صباحاً، أقلع الأسطول الجوي الإسرائيلي كاملاً - باستثناء ١٢ طائرة - من إسرائيل وأغار على كل المجالات الجوية المصرية في نفس الوقت، ولاحقاً أغار على الأردن وسوريا والعراق فيما عرف بحرب الأيام الستة. نقلت طائرات سوبر فريلون التي تعاقد عليها ميلتشان جنود المظلات الإسرائيليين إلى شرم الشيخ، بما مكنهم من السيطرة على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء في

سرعة البرق وأنهوا الحصار.

سرعان ما تلت صفقة طائرات سويفر فريلون صفقة أخرى لاثنتي عشرة مروحية حمل خفيف تعرف باسم ألوت. وكانت تلك الطائرات المصنوعة أيضاً في شركة أيروسباتيال تستخدم في الانتشار السريع لجنود المشاة للملاحقات الحامية للمتسللين "الإرهابيين"، ولإجلاء الجرحى طوال حرب الاستنزاف ضد إسرائيل.

لعب ميلتشان دوراً حيوياً في نمو أسطول المروحيات الإسرائيلية الحديث بأكمله، ولاستيعاب تلك الصفقات، افتتح هيلي تريدينغ ليميتد، وهي شركة مكمل لشركة ميلتشان إخوان. وخلال بضعة أشهر، تعاقد أيضاً مع شركة الطائرات الألمانية دورنيير، وأبرم صفقة بيع عدد من طائرات التجسس للأسطول الجوي الإسرائيلي.

من خلال مصادره في لكام، عرف ميلتشان بأمر صفقة ضخمة من صواريخ هوك يجرى الإعداد لها لإسرائيل وتوجه في الحال لمعرض باريس الجوي لعام ١٩٦٧، بعد أيام فقط من حرب الأيام الستة. لفظ هوك وهو الأحرف الأولى من عبارة الصاروخ القاتل الموجه، هو صاروخ أرض/ جو موجه، متوسط المدى، يوفر تغطية دفاع جوي للطائرات منخفضة/ متوسطة الارتفاع، نظام متحرك، لكل أنواع الطقس، يصلح للنهار والليل، وفاعل في مواجهة المضادات الإلكترونية آنذاك.

وإذ يقف أمام سرادق شركة رايتيون، أرسل ميلتشان رفيقته السويدية الجديدة الفاتنة أولاً، والتي كان قد تعرف عليها قبل بضعة أيام فقط، لاستكشاف الانطباع الأول. وخلال لحظات أحاطها مندوبو مبيعات شركة رايتيون وهم يعرضون عليها الشمبانيا، فأشارت لحبيبها المزعوم، رجل الأعمال الإسرائيلي البارز والذي كان يتفقد المعرض ويبحث عن عروض جديدة. وكانت إسرائيل بالطبع تنعم ببريق

انتصارها العسكرى الأخير، لذلك عندما وصل أرنون بعد ذلك ببضع دقائق كان محل فضول الجميع. وقدم ميلتشان نفسه على أنه على علم تام بصفقة صواريخ هوك المتعثرة، ممّا حَمَلَ قيادات ممثلى رايتيون على الاعتقاد بأن الصفقة فى خطر بسبب الأسعار.

وخلال لحظات توالى المكالمات بشكل جنونى من باريس إلى مقر رايتيون فى ماستشوستس، ومنها إلى إسرائيل. ذكرَ ميلتشان صديقه وزير الدفاع موشيه ديان، والذى تلقى مكالمات هاتفية أيضاً. وسأى ديان الخطة بالطبع، وصرح بأن ميلتشان يمكن أن يكون وسيطاً جيداً لهم. وفهمت شركة رايتيون ذلك التلميح. وخلال أيام أصبح ميلتشان ممثلهم الحصرى فى إسرائيل، وأبرمت صفقة صواريخ الهوك الجديدة بـ ٩٠٠ مليون دولار. وكانت تلك بداية علاقة طويلة مُربحة.

كانت عمولة ميلتشان الرسمية من صفقة صواريخ هوك ٤٥ مليون دولار، والتي أودعت فى حساب سرى إسرائيلى لا يخضع للرقابة خارج البلاد. وكانت صواريخ هوك حتى آنذاك أعقد الأنظمة المضادة للطائرات وأغلاما فى الترسانة الإسرائيلية. ويمرور الوقت كان ميلتشان يعقد صفقات أخرى تشمل طرراً مطورة من صواريخ هوك. وبالطبع كان يجب استبدال، كل صاروخ يطلق ضد الأعداء، أو فى التدريبات، بما يعنى المزيد من الطلبات والمزيد من العمولات. ويمرور الوقت أسقط نظام صواريخ الهوك فى إسرائيل ٣٦ طائرة للعدو!!

ومرت أعوام قبل أن تصبح العلاقة المربحة بين رايتيون وأرنون ميلتشان معروفة للعلن. وكما جاء فى صحيفة واشنطن بوست عقب تحقيق فيدرالى فى الولايات المتحدة، فقد ازدادت الشكوك فى أن ميلتشان تلقى ٣٠٠ ألف دولار عمولة من شركة تابعة لرايتيون. ولم ينجم أى شىء عن ذلك، وذهب الأمر فى النهاية طى النسيان.

فى ١٩٨٨ وبعد ثلاثة عشر عاماً، أصبحت العلاقة بين شركة رايتيون وميلتشان قضية رأى عام عندما وصف المخرج الإنجليزى تيرى غيليام -والذى كان قد انتهى للتو من إخراج فيلم برازيل من إنتاج ميلتشان- كيف سار مع أرنون وابنه الأكبر ياريف إلى داخل سرادق شركة رايتيون فى معرض باريس للأسلحة الجوية نصف السنوى. حيث قال غيليام:

"كان رائعاً أن أرى طبيعة مجال تجارة السلاح، وكان أرنون متحمساً للغاية لألعاب الفيديو. واصطحب ابنه معه ليلعب بتلك الألعاب، والتى يمكنها أن تحاكي تدمير الكوكب".

وأضاف غيليام "اصطحبني إلى خيمة رايتيون، وكان الأمر برمته حالة من الاستعراض، وكان واضحاً أنه نجم هام فى عالم رايتيون".

أثناء حرب الأيام الستة، تزايدت الرقعة التى أصبحت تحت سيطرة إسرائيل وبدأ واضحاً أن جيش الدفاع الإسرائيلى سيحتاج لقدرة توفير قوات استجابة سريعة على مسافات أكبر. سعى الجنرال موتى هود قائد جيش الدفاع الإسرائيلى آنذاك لشراء أسطول كامل من طائرات أوغاستا بيل ٢٠٥ إريكويز والمعروفة باسم هايس، وهى طائرات حققت شهرة فى فيتنام، والتى ستصبح شديدة النفع فى أسطول المروحيات الإسرائيلى حتى التسعينيات.

تم رسمياً شراء طائرات هايس من الشركة الإيطالية أوغاستا لتجنب المقاطعة العربية، والتى كانت الشركات الأمريكية تخافها فيما خيفة آنذاك. فالأسواق العربية عالية الربح -على الأقل نظرياً- كانت بعيدة المنال عن أية شركة لها نشاط تجارى مع إسرائيل، وكان منوطاً بأشخاص مثل أرنون ميلتشان تيسير طرق مبتكرة لشراء تلك الأنظمة لإسرائيل بدون إفساد مصالح الموردين التجارية فى الأسواق الثرية مثل

أسواق المملكة العربية السعودية والكويت.

دبر ميلتشان الأمر لشركات واجهة تشتري المنتجات مثل المروحيات وغيرها في بلد ثالث، ثم تشحنها إلى إسرائيل. في النهاية كشف العرب تلك الطرق وأطلقوا مقاطعة ثانوية، تعاقب بمقتضاها الشركات التي تتعامل تجارياً مع الشركات التي تتعامل مع إسرائيل.

حل ميلتشان تلك المشكلة ببساطة بتكوين شركات واجهة أجنبية إضافية، تبيع لها شركة الواجهة الأولى، قبل الشحن إلى إسرائيل. وصعد العرب من الإجراءات الاستباقية بإجراءات لمقاطعة من الدرجة الثالثة، وأصبحت شركات الواجهة من الدرجة الثالثة ضرورية أحياناً.

وفي النهاية أدرك العرب عدم جدوى تلك الجهود وفقدت المقاطعة فاعليتها ببطء. وبحلول عام ١٩٧٧ مرر الكونجرس قانوناً وقع عليه جيمى كارتر الرئيس آنذاك، بتشجيع من صديق ميلتشان، إرفينغ شابيرو مدير شركة دويونت، ينص على فرض غرامات على أية شركة أمريكية تتعامل مع المقاطعة العربية. ولتطبيق القانون، افتتح مكتب الإذعان لمناهضة المقاطعة، وبحلول الثمانينيات، دخلت شركات مثل بيبسيكو وماكدونالدز والتي التزمت بالمقاطعة العربية لعقود، السوق الإسرائيلية بانفتاح، وكذلك فعل متعهدو الدفاع العسكري الأمريكي.

وكان دهاء ميلتشان وآخرين هو الذي حال دون أن تركع إسرائيل، إذ لعبوا دوراً هاماً في إمداد إسرائيل أثناء سنوات المقاطعة الأكثر تأثيراً. من ناحية أخرى وبالنسبة للصراع العربي الإسرائيلي نفسه، فإن المقاطعة العربية جعلت خدمات ميلتشان مصيرية. عقب حرب الأيام الستة، بدأت الرؤية الأمريكية لإسرائيل كمكسب استراتيجي محتمل في المنطقة تتزايد، ومن هذا المنطلق، بدأ الخط الائتماني لشراء

أسلحة أمريكية يتصاعد أيضاً.

وعلى مدار السنوات التالية أصبحت إسرائيل من أكثر الدول التي تتلقى مساعدة عسكرية مباشرة من الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية، وتحولت خطوط الانتماء الضخمة إلى منع ضخمة في هيئة معونات عسكرية بمليارات الدولارات. وكما بينت وقائع معرض باريس الجوي، كان ميلتشان من المعنيين النشيطين بالأمر بما يفوق غيره، وكان يشق طريقه بسحره عبر المتاهات المحتملة من الأغنام، ويمثل العديد من شركات النخبة الأوروبية الأمريكية في مجال صناعات الدفاع العسكرو والفضائية في مفاوضاتها غير المباشرة مع وزارة الدفاع الإسرائيلية.

وفي أواخر عام ١٩٦٧، تلقت إسرائيل السرب الأول من طائرات سكاي هوك إيه ٤ من إنتاج شركة ماكرونيل دوجلاس من الولايات المتحدة، والتي أصبحت طائراتها الأهم في الهجوم الأرضي. وبعد ذلك بعامين، وفي ٥ سبتمبر ١٩٦٩، تلقت أول سرب من طائرات إف ٤ فانتوم من إنتاج شركة ماكرونيل دوجلاس أيضاً.

لم يمثل ميلتشان شركة ماكرونيل دوجلاس، لكنه مثل الشركة التي تزودها بأنظمة الأسلحة الرئيسية، وبهوائياتها المتقدمة، وبالرادارات، وبأنظمة الأشعة تحت الحمراء، وأنظمة التوجيه، وأنظمة الملاحة. ويمرور السنين اشترت إسرائيل الآلاف من صواريخ سايدويندر تكلفه ٨٤ ألف دولار للصاروخ، وصواريخ سبارو تكلفه ١٢٥ ألف دولار للصاروخ، وأسلحة أخرى جو / جو وجو / أرض لمنصات طائرات سكاي هوك وفانتوم، ولاحقاً لأسرابها من طائرات إف ١٥ وإف ١٦ وخلاف الطائرات نفسها، كانت الصواريخ والقنابل تستهلك باستمرار، إما في التدريبات أو في الاشتباكات العسكرية الفعلية، وكانت تحتاج لإعادة الإمداد باستمرار عبر ميلتشان،

وعبر تضخيم الحسابات السرية الخارجية لإسرائيل، وبزيادة رقعة قدراتها السرية حول العالم.

أصبح أحد تلك الأنشطة السرية مألوفاً للعديد من مريدي السينما في فيلم الحركة والإثارة "ميونيخ" للمخرج ستيفن سبيلبرغ من إنتاج ٢٠٠٦. إذ يروي الفيلم القصة الحقيقية لعملاء الموساد الإسرائيليين من وحدة كيدون أو الرمح، الذين أرسلوا إلى أوروبا لاغتيال أولئك المسؤولين عن مذبحة ١٩٧٢ للرياضيين الإسرائيليين في دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ.

ويصف سبيلبرغ العملية بأنها كانت ممولة من قبل الحكومة الإسرائيلية، بمشهد غير واقعي يستدعي الضحك يشمل موظف حكومة إسرائيلياً يطالب بصوت عال أن يقدم القتلة فواتير عن كل التكاليف، بما سيوفر برهاناً ورقياً لكل أنشطتهم.

لكن ما كان واقعياً هو المشهد والذي يفتح فيه العميل الرئيسي أفنر -والذي لعب دوره إيريك بانا- صندوق ودائع في مصرف في زيوريخ ليحصل منه على المال اللازم لتمويل المهمة.

ويبدو أن يدري سبيلبرغ فقد تعرض بالصدفة لنفس الأنواع من الحسابات الخارجية التي استخدمتها إسرائيل لتمويل تلك العمليات وأمثالها. وكانت الشركة النووية الوهمية التي اشترت قوارب تشيربورج، والشركة الوهمية التي اشترت مانتى طن من أكسيد اليورانيوم والتي اختفت في البحر المتوسط، وعمليات الشراء السرية لطائرات سويفير ميراج الفرنسية بالغة السرية، كلها أمثلة على العمليات التي كانت تمولها الحسابات السرية.

وكان من المعتاد لأي عميل إسرائيلي أن يستميل كبار مديري الشركات ومسؤولي الحكومات في قطاعات هامة حساسة، من خلال تماهيهم مع إسرائيل، أو

بواسطة المال، أو كليهما. لكن تلك الحسابات لم تكن تستخدم فحسب فى عمليات التجسس. حيث كانت تستخدم فى الأغلب فى الشراء المباشر للتكنولوجيا المحرمة، أو حتى لإعالة أرامل الجواسيس الذين سقطوا وأطفالهم، مثل نادية، أرملة الجاسوس الإسرائيلى المحترف إيلى كوهين.

كان من الطرق المعتادة فى العمليات، توفير سبل الإنكار المعقول للمجرم، أى إقناع الموظف المسئول بترك التصميمات، بالصدفة، فى منطقة مكشوفة فى موعد محدد مسبقاً. كانت ساعة أو اثنتان مدة أكثر من كافية لتتيح لفريق مدرب تصوير تلك المواد وتوثيقها. قبل أن يعيدها مالكاها الغافل إلى مكانها.

يقول أرنون: "أياً كان الإنجاز، لطالما كانت الرحلة إلى الهدف أكثر إرضاء عن الإنجاز نفسه". كان هذا هو الحال بالتأكيد فى علاقته مع بريجيت، ثم كون أرنون - وخلال فترة قصيرة من الوقت-، صلة بأولا، وهى فارسة من جوتنبرج، التقاها فى باريس قبل المعرض الجوى، وتكفل بأولا وابنها الصغير، واستأجر لهما منزلاً فى قبرص، على مسافة ثلاثين دقيقة بالطائرة من تل أبيب، حيث افتتح مكتباً محلياً. ثم عاش حياة مزبوجة.

وكل أسبوع تقريباً كان مكتب ميلتشان إخوان فى تل أبيب يتلقى تلفرافاً مستعجلاً يطلب حضور أرنون فى اجتماع عمل طارئ فى قبرص، مما يستحثه للسفر لقضاء بعض الوقت بين نراعى عشيقته الجديدة. وخلال عام من السفر ذهاباً وإياباً، قرر أرنون أن يأتى بأولا إلى إسرائيل، حيث وقّر لها إقامة فى منزل صغير مريح فى ضواحي تل أبيب، واشترى لها أفضل حصان وجده. وبعد ذلك قضى أيامه بين زوجته، وعمله، وعشيقته السرية. لم يكن ذلك وضعاً يمكن استمراره، وكان عليه التخلّى عن بعض مصادر متعته.

العميل

إيران؟ لقد تعاقبت فقط على إزالة الأعشاب من مهبط الطائرات بالمطار.

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجلوس تايمز ٢٨ فبراير ١٩٩٢

أبرت مشاريع ميلتشان للأسمدة والكيماويات أموالاً وفيرة، وكانت غطاء جيداً، لكن ليس مثل صفقاته السرية المتزايدة باستمرار والخاصة بتنظمة الدفاع العسكرى عبر شركة ميلتشان إخوان والعديد من شركات الواجهة والمسابات المصرفية المفتوحة لتتولاهما.

وانتشرت أسطورة إعادة بناء شركة والده للأسمدة، مما جعله شخصية غامضة شبيهة بالنجوم في تل أبيب. واكتسب ميلتشان علاقات قوية مع النخبة السياسية، وأصبح محركاً حقيقياً في عالم ما وراء الكواليس للأمن والتسليح الإسرائيلي. عرف ذلك جميع من كان عليهم أن يعرفوا.

وكان متزوجاً من امرأة جميلة وأباً لابن حديث الولادة، بينما يمارس علاقته مع الحسنة السويدية من ناحية أخرى. لكن لم يجلب أى من هذا السلام الداخلي، فقط القلق الدائم. كان ما زال عليه أن يترك بصمته في العالم بأسلوب يقترب من إرضاء تطلعاته؛ وكان دائماً في رحلة بحث مستمرة عن تحديات جديدة وغير تقليدية. بحلول أواخر الستينيات بدأت هذه التحديات تواجهه وفي هذا يقول ميلتشان: من وجهة نظري، تعثرت فيها صدفة.

المفاجئ أنه في أواخر الستينيات قدمت إيران لعدد من الإسرائيليين الطموحين نوى العلاقات القوية أكثر فرص المشاريع النولية أهمية. تم تقديم إحدى هذه الفرص إلى ميلتشان على طبق من فضة. ومجدداً استفاد منها أقصى استفادة.

ومنذ قيام إسرائيل وحتى الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ -أثناء الفترة التي كان يحكم إيران فيها الشاه محمد رضا بهلوى- تمتع كلا البلدين بعلاقة حميمة وخاصة جداً. وكانت إيران في الواقع ثاني بلد في العالم يعترف بإسرائيل كدولة مستقلة، بعد الولايات المتحدة مباشرة، وكانت تعتبر أقرب أصدقائها في العالم الإسلامي.

وكشأن الجميع، انبهر الشاه خاصة بانتصار إسرائيل الساحق في حرب الأيام الستة، وخلال بضعة أعوام أصبح البلدان يشتركان في مجموعة كبيرة من

المشاريع، العسكرية، والزراعية، والتجارية. وأمدت إيران إسرائيل بمعظم احتياجاتها في مجال الطاقة، ودفعت إسرائيل ثمن ذلك بتبادل الخبرات. وبالمساعدة في تأمين وضع الشاه الداخلي المتقلقل والحفاظ عليه. دربت إسرائيل الاستخبارات السرية الإيرانية ساقاك، وكانت من أكبر قوات الأمن الداخلي في العالم آنذاك وأكثرها شراسة.

أنشأ البلدان معاً شركة مشتركة لتوزيع الطاقة اسمها ترانس أسياتيك أويل. وبعد إغلاق قناة السويس عقب حرب الأيام الستة، كانت إيران تشحن البترول إلى ميناء إيلات في جنوب إسرائيل، وكانت تنقل البترول عبر خطوط الأنابيب إلى مينائها أشدود على البحر المتوسط، ثم تشحنه إلى أوروبا من هناك، متجاوزة في ذلك قناة السويس كلياً. بالنسبة لإسرائيل كان اللاعبون الأساسيون في تبادل السلاح الإيراني الإسرائيلي هو ملحقها العسكري في طهران ياكوف نمرودي، ورجل الأعمال الأمريكي الإسرائيلي آل شويمر، وهو مهرب طائرات سابق أثناء حرب الاستقلال الإسرائيلية والذي كان مؤسس ومدير شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية واسمها حالياً صناعات الفضاء الجوي الإسرائيلية أو (أي إيه أي)، وهي شركة مملوكة للدولة وإحدى أكبر شركات التوظيف في إسرائيل وتقدر مبيعاتها السنوية بـ ٣ مليار دولار. وأدار كل من نمرودي وشويمر العلاقات الإيرانية الإسرائيلية على أعلى المستويات لأعوام وطورها. وحدثت الطفرة الكبيرة في أعقاب حرب الأيام الستة، بما عزز من سمعة إسرائيل في عيني الشاه ودفعه لتوقيع العديد من العقود السخية في مجال الأمن مع الإسرائيليين.

وبحلول أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان نمرودي وشويمر يحصدان الثمار الوفيرة لمجهوداتهما، ولم يكن لأحد علاقات قوية في إيران تفوق علاقتهما، لا الاستخبارات الأمريكية ولا وحدة M 15 البريطانية. فتح كل من هذين الرجلين

أبواب إيران للشباب ميلتشان وإسرائيليون آخرين. وفي عام ١٩٨٢، نشرت جريدة نيويورك تايمز أن أكثر من نصف كل أنظمة السلاح التي اشترتها إيران، حتى ثورة ١٩٧٩، كان مصدرها إسرائيل مباشرة، أو تم الحصول عليها بواسطة إسرائيل.

و بموافقة شمعون بيريز قدم نمرودي وشويمر للشاه ولكبار الجنرالات فكرة إنشاء شبكة متطورة من محطات الإنذار المبكر على قمم الجبال المتباعدة ومن مواقع التنصت القادرة على اعتراض الاتصالات وإشارات الرادارات من النول المجاورة لإيران. وأنشأت إسرائيل حلقة إلكترونية مشابهة حول حدودها لأغراض الإنذار المبكر وللتنصت عند الضرورة، وتشاركوا بعض المعلومات مع الشاه ومع قائد القوات الجوية الإيرانية الجنرال محمد خاتمي، كي يقنعوهم بأهمية مثل تلك الاستخبارات.

لكن مساحة إيران تفوق مساحة إسرائيل بأكثر من ٦٠ ضعفاً، وسرعان ما أدرك شويمر أن المشروع ستتجاوز تكلفته المليار دولار بكثير وربما كان أكبر من إمكانيات شركته صناعات الطائرات الإسرائيلية آنذاك. وكان واثقاً أن قسم الإلكترونيات في شركة (آي إيه أي) أو إلتا يستطيع توفير الهوائيات وبعض الإلكترونيات، وأن الطاقم الإسرائيلي يمكنه أن يتولى أعمال التركيب، والتي قد تصل لحوالي ٢٠٪ من حجم المشروع، لكن كثيراً من العناصر الأخرى كانت تفوق قدرات شركة (آي إيه أي).

لزم الأمر أن تضطلع شركة أكبر بدور المتعهد الأول، وشركة (آي إيه أي) كمتعهد ثانوي لها. ولم تكن إسرائيل تشعر بالارتياح سوى لعدد صغير من الشركات حول العالم وتثق في قدرتها على تنفيذ مثل ذلك المشروع. وكانت إحدى

تلك الشركات هي نورث أمريكا روكويل. وكانت علاقة شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية بشركة روكويل متواضعة، تقدر بعشرة ملايين دولار في العام من المشاريع المشتركة، أغلبها متعلق بشركة ويستويند للطائرات الخاصة، وهي شركة غير عسكرية لتصنيع الطائرات في إسرائيل. لكن حتى هذا كان يعد مخاطرة بالنسبة لشركة روكويل التي تحسبت لخسارة الأرباح المحتملة من الدول العربية الغنية بالبتروال والتي ظلت ملتزمة بالمقاطعة الاقتصادية لإسرائيل، لذا حُكم على تلك العلاقة بالسرية.

وبدأ قلق مجلس إدارة شركة روكويل يتزايد حيث بدأ البترول السعودي أكثر إغراء من الدخول في مشاريع مع إسرائيل، لذلك قرروا إرسال نائب الرئيس المعين حديثاً وممثل تطوير المشاريع الإقليمية إلى تل أبيب ليرى ما إن كان المشروع المشترك يمكن أن يعاد بناؤه ليكون أكثر سرية أو يلغى برمته.

وكان الممثل الإقليمي الذي أرسلوه مهندساً رفيع المستوى واسمه الدكتور ريتشارد أو ديك كيلى سميث. كان سميث وهو في أوائل الأربعينيات شخصية غير اعتيادية، إذ كان عالماً وعالم رياضيات ذا طموحات في مجال الأعمال. نشأ في ريف أكلاهوما وعانى مادياً لأعوام عديدة ليكمل دراسته، وفي النهاية حصل على شهادة جامعية في مجال الفيزياء من جامعة كالتيش، ثم الماجستير والدكتوراه في هندسة الكهرباء والرياضيات من جامعة جنوب كاليفورنيا. وأثناء ذلك كله تزوج سميث وأنجب خمسة من الأبناء. شق سميث طريقه إلى القمة، ليلعب في النهاية دوراً رائداً في تطوير أنظمة توجيه الصواريخ المتقدمة والتحكم في الطيران الأوتوماتيكي. واكتسب سمعة قوية بين أقرانه وتم تعيينه في العديد من مجالس الإدارات ومفوضيات الدفاع العسكري في وزارة الدفاع الأمريكية، والناثو وناسا.

هبط سميث في مطار إسرائيل الدولي ووقف في صف مراجعة جوازات السفر الطويل. وفجأة شعر بأحدهم يضع يده على كتفه من الخلف، وعندما التفت، مد شاب يده إليه وقدم نفسه بأنه أرنون ميلتشان. وتبادل كلاهما المزاح. وصدم سميث عندما رأى كم كان ميلتشان صغير السن. وكان قد سمع به لأول مرة من الجنرال غريتيل، والذي كان يعمل في قسم الحاسبة في شركة روكويل، وافترض أنه لاعب رئيسي في صناعات الفضاء الجوي الإسرائيلية المتنامية. ولم تتطابق الصورة التي رسمها في مخيلته مع الشخص الواقف أمامه.

ويسلاسة اصطحب أرنون سميث عبر الحشود في صفوف مراجعة جوازات السفر، وتجاوز سريعا الإجراءات الشكلية لإدارة الهجرة، وخرجا من المطار وتوجها إلى سيارة أرنون الشيفروليه الحمراء المكشوفة المركونة في الممنوع، لكنها لم تُقَطَّر أو تنال مخالفة.

في الحقيقة، فإن القول بأن أرنون كان يمثل شركة روكويل أو أية شركة أخرى متعلقة بالدفاع العسكري سيعيد بالمفهوم التقليدي أمراً على قدر من التضليل. كان أرنون يمثل الدولة الإسرائيلية ويمثل نفسه وشركته، ثم بعد ذلك شركة روكويل بذلك الترتيب بالضبط. من غير الواضح معرفة ما إن كانت شركة روكويل -أو شركة رابثيون أو بيتشكرافت، أو أي متعهد دفاع عسكري آخر كان يعمل معه- على دراية بتلك الحقيقة.

قد افترض كيلى سميث في الأساس أن الشاب أرنون ما هو إلا موظف حكومي بسيط تم تكليفه بتسهيل تواجد روكويل في إسرائيل، وتسامل بسداجة كيف يمكن لموظف مدني شاب أن يقدر مادياً على قيادة سيارة أمريكية مكشوفة مستوردة، وكانت نادرة في إسرائيل في ذلك الوقت. لكنه لاحقاً أدرك إلى أي مدى

استهان بأرنون، وبدأ يستوعب العلاقة المعقدة بين أرنون ودولة إسرائيل، لكنه لم يفهمها بشكل كلي أبداً.

وبقدر ما كان الإنكار الظاهري بالنسبة للمتعهد الأمريكي جزءاً من الصفقة، فإن ما فعله أرنون حقيقة بالمبلغ الذي تلقاه لم يكن من شأن شركة روكويل، فقد كانوا مهتمين فقط بالنتائج التي سيحققها، وعلى هذا الصعيد لم يكن ثمة سوى القليل من الشكوى.

ونظراً لجهلهم بأسلوب إسرائيل الفريد في إدارة العمليات وبدور أرنون الاستثنائي فيها، كان كلما عرض متعهدو الدفاع الأمريكيون على وزارة الدفاع الإسرائيلية عملية بيع محتملة، تم توجيههم بشكل روتيني إلى الحديث مع أرنون، وتحير بعضهم في سبب تفضيل الدولة للتعامل مع وسيط عن التعامل معها مباشرة. كانت تلك الصفقة بالنسبة لدولة في حالة حرب مستمرة منذ قبل قيامها، تُخصّص ٨٪ من إجمالي ناتجها المحلي، ونسبة متزايدة من صادراتها، وحوالي ١٦٪ من إجمالي ميزانيتها للنفقات المتعلقة بالدفاع العسكري الضرورية لبقائها - هامة وكانت قابلة للزيادة بسرعة.

عندما بدا واضحاً أن شركة صناعات الطائرات الإسرائيلية تحتاج لأن توقع شركة روكويل على مشروع المراقبة الإيراني وشركة (أي إيه أي) كمتعهدها الثانوي، تم استدعاء ميلتشان لتقديم بيان موجز في لكام لوضع استراتيجية لإقناعهم بذلك. وكان هذا أول اشتراك فعلي له في مشروع دولي سرى لا يتضمن مبيعات إلى وزارة الدفاع الإسرائيلية بل تصديراً من إسرائيل إلى بلد ثالث. ومنذ البداية تم إبلاغ أرنون أنه إن سارت تلك الصفقة على ما يرام مع عميلته شركة روكويل، فسيكون هناك المزيد من الفرص الدولية بالنسبة له بالإضافة إلى إيران.

وكان مفهوماً أيضاً أن الصفقات التي سيبرمها أرنون والتي لا تتضمن إرسال شحنات إلى إسرائيل ستعنى أن تتول العملات إليه وليس إلى الحسابات السرية الإسرائيلية. فعلى الرجل في النهاية أن يتكسب قوته.

وبعد شرح أهمية المشروع، وجه بلومبيرغ ميلتشان لتقييم ريتشارد كيلى سميث، ومعاملته كشخصية هامة، وبأن يأكل ويشرب معه، ويتعرف على نقاط ضعفه، ويبحث عن نقائصه الشخصية. والأهم من ذلك، كُلف بالزام سميث بالمشروع الإيراني.

وفي الحال بدأ ميلتشان في تنظيم مجموعة من الاجتماعات لسميث مع شخصيات إسرائيلية بالغة الأهمية، ليس لأن مساهمة تلك الشخصيات الهامة سيكون هاماً تقنياً للمشروع، لكن كان المهم هو التوضيح الكافي لسميث، ثم لرؤسائه في مقر روكويل في لوس أنجلوس، مستوى العلاقات التي أشركها أرنون في الصفقة. لكن كان هناك أيضاً دافع آخر، وهو أن يستوعب سميث أنه أهل للثقة بما يكفي للانضمام لدائرة النخبة الداخلية في إسرائيل، تلك الميزة التي لم يكن يتمتع بها الوافدون العاديون إلى إسرائيل، وتقييم ردة فعله أيضاً.

عقب لقائهما الأول في مطار بن جوريون، أوصل ميلتشان سميث بسيارته إلى فندق هيلتون تل أبيب على الشاطئ ليقدم له ملخصاً مبدئياً. كانت لأشعة الشمس الدافئة، والنسيم البارد العليل، ومياه البحر المتوسط الزرقاء، والصوت الرخيم للأمواج المتلاطمة وقع السحر، وكذلك منظر الشاطئ الرملي الطويل الممتد جنوباً حتى يافا، والتي شرح ميلتشان لسميث أن جده وصل إليها أول ما وصل في القرن الماضي. وعلى مرمى البصر كان يرى بوضوح التل الذي قذف إليه الحوت النبي يونس عليه السلام في القصة التوراتية الشهيرة التي تعلمها وهو طفل.

وكشأن الكثيرين من قبله، تعلق سميث بإسرائيل.

وبعد نوم ليلي هاني، تجول ميلتشان مع سميث في مكاتب الجنرالات والسياسيين المشهورين، وكان قد أطلعهم مسبقاً على الأمر، وشرح لهم أهمية العلاقة مع شركة روكويل عامة وأهمية المشروع مع إيران خاصة. وكان سميث قد أتى إلى إسرائيل ليناقدش بحرص تخفيض درجة علانية شركة روكويل بسبب مخاوفهم من المقاطعة العربية.

وبدلاً من ذلك وجد نفسه في دوامة من الاجتماعات وقُدِّمت فرصة ضخمة لشركة روكويل في إيران. غيّر هذا من وتيرة الأحداث في الحال. إذ استشعر سميث أن شخصاً ما قد أطلع الإسرائيليين مقدماً على الغرض من مهمته في إسرائيل، وكانوا مستعدين تماماً لإبرام صفقة مضادة مع شركة روكويل سيصعب عليها رفضها.

في تلك الليلة اصطحب ميلتشان سميث لتناول العشاء في مطعم الحمراء جنوب تل أبيب. وكان المطعم من أوائل المطاعم الراقية في إسرائيل وكان قطعاً من أغلى المطاعم في البلد آنذاك، حيث كان يقدم الأصناف الفرنسية غير اليهودية، ويُعد الوجهة الأولى لنخبة إسرائيل. وكان لوزير الدفاع موشيه ديان مائدة دائمة خاصة به، وتصادف في تلك الليلة أنه كان يستضيف ضيفين أجنيين ترافقهما امرأتان رائعتا الجمال.

وكان ديان المتزوج زير نساء سيئ السمعة وكان نصف البلد يعرفون بذلك. وكان أيضاً من مشاهير العالم وظهر على غلاف مجلتي تايم ونيوزويك، ثم تعرف عليه في الحال بفضل رقعة عينه الشهيرة. قدم ميلتشان ديان لسميث بشكل عفوي، وفي الحال فتن، وتفاجأ، وانبهر بدفء العلاقة بين ميلتشان وديان.

وعلى العشاء عبر سميث عن قلقه بخصوص قدرة شركة روكويل على استصدار تراخيص التصدير الأمريكية الضرورية لإيران لتلك التكنولوجيا الحساسة، إذ سيتطلب هذا موافقة عدة مستويات من الوكالات المتنافسة والكيانات المترفعة. وأكد له ميلتشان أن المسؤولين في سبيلهم للتوصل لحل لذلك. وتحرير سميث بشأن ثقة ميلتشان.

وفي الواقع، كان الإسرائيليون قد وضعوا في اعتبارهم كل العقبات وقاموا بالترتيب لحالة تفاوضية شعروا يقيناً بأنها ستغرى الحكومة الأمريكية بعرض لا يمكنها رفضه. بالطبع كان قد تم للموساد إطلاع جيمس جيزاس أنغلتن من الاستخبارات الأمريكية، والذي كان يتولى الملف الإسرائيلي، جزئياً على الأمر وأبدى موافقة مبدئية، لكن الاستخبارات الأمريكية سى أى إيه بقيادة رئيسها ريتشارد هيلمز كانت هى صاحبة الكلمة الأخيرة، وكانت هذه هى البداية فحسب. وأطلع ميلتشان سميث على الخطة، كما تم التنسيق لها مع فريق الشاه التفاوضى، كان موقف إيران هو أنها مهتمة فحسب بمواقع المراقبة بطول حدودها مع أفغانستان وباكستان والخليج العربى والعراق. ولم يأتوا بأى ذكر لحدودهم الشاسعة مع الاتحاد السوفييتى شمالاً.

عندما ترددت وزارة الدفاع الأمريكية ووزارة الخارجية مسبقاً بخصوص التصريح بتمرير تلك الصفقة الحساسة والتي تنطوى على تجسس إيران على حلفاء الولايات المتحدة مثل المملكة العربية السعودية، أضافت إيران عرضاً آخر مغرياً إلى الصفقة إذ عرضت موقعى مراقبة بطول حدودها مع الاتحاد السوفييتى، الأول فى بوشهر والثانى فى كابكان. بتكلفة إضافية بسيطة، تتكفل بها إيران.

بدأت الولايات المتحدة تميل إلى الفكرة لكنها كانت لا تزال مترددة.

ثم قدمت إيران دعوة للاستخبارات الأمريكية سى أى إيه والبنجابون للحصول مباشرة على كل المعلومات التى تم اعتراضها والاتصالات التى تم تجميعها من الجبهة السوفيتية بواسطة مواقع المراقبة الإيرانية. وكما هو متوقع كان لإسرائيل مصالحها المسبقة فى المعلومات الاستخباراتية التى تجمع من الدول العربية المجاورة.

وكانت الولايات المتحدة تواجه مشكلة فى تقبل فكرة حصول إيران على أحدث تقنياتها التشفيرية. بين ميلتشان أنه بدلاً من ذلك سيتم إشراك الشركة السويسرية التى قامت بتشفير نظام المصارف السويسرية السرى جميعه.

ودخل الأمريكيون إلى ذلك المجال.

كان للحكومة الأمريكية أن تحصل على استخبارات إلكترونية مجانية من الحدود الجنوبية السوفيتية، وحصل أحد المتعهدين الأمريكيين على صفقة بمليار دولار. وسمى الأمريكيون المشروع لاحقاً "دارك جين" بالنسبة للعناصر الجوية، و"آيبكس" بالنسبة لمواقع المراقبة الإلكترونية. آيبكس وهو اسم معزة جبلية نادرة توجد فى إيران، وكانت الحيوان البرى الذى يفضل الشاه اصطياده.

وطمان ميلتشان سميت أنه بالنسبة للإيرانيين فإن الصفقة قد أبرمت بالفعل. وأخطره بأن ممثل روكويل فى إيران سيكون الجنرال محمد خاتمي، قائد القوات الجوية الإيرانية وزوج أخت الشاه. وعيّن خاتمي وسيط اتصال مباشراً ليعمل كواجهة له، يتخفى خاتمي وراءها. وكان الشاه يدعمه.

صدم الشاب ميلتشان سميت حيث فتنه بسحره، وبإلمامه بالموقف، وتقديره المتطور، وحجم المشروع، والتبعات الجيوستراتيجية المحتملة، والجرأة المطلقة لتلك التجربة. أوجز له ميلتشان قصة ميراثه لشركة أسمدة فاشلة عن والده وتحويلها

لأحد مراكز القوة. ولم يفهم سميث أن وراء هذا الوجه الشاب كانت لاكام، وبنيامين بلومبيرغ، وياكوف نيمرودى، وأل شويمر، وفي النهاية الآلة الاستخباراتية للدولة الإسرائيلية. لكن ما أدركه هو أن ميلتشان ليس موظفاً مدنياً بسيطاً كما تكهن بداية. وفي النهاية ظن أنه بدأ يلم بالصورة العامة.

ومن ناحيته، استشعر ميلتشان أنه كان في سبيله إلى النجاح في ترك انطباع جيد لدى المهندس الأمريكى الأكبر منه سناً. وشعر أيضاً أن سميث شخص يمكنه تجنيده. ولاحظ في سميث تذوقاً قوياً للحياة المرفهة، وميلاً إلى المال والنساء، بالرغم أنه كان متزوجاً وتدفع له شركة روكويل راتباً ضخماً. ولاحظ غروره المتضخم -إذ أصر الرجل على استخدام لقب دكتور كلما أتاحت له الفرصة- وشعوره بأنه ومواهبه لا ينالون التقدير الكافى.

كان سميث بالفعل مهندس إلكترونيات موهوباً عميق المعرفة في مجال أنظمة السلاح، والمواد، والتكنولوجيات، وسبل الحصول عليها. كانت تلك مواهب يمكن لكل من ميلتشان ولاكام الاستفادة منها. وبدا سميث مهتماً بالتاريخ وكان يجيب بحماسة وتبجيل في لقاءاته مع الشخصيات الهامة فى إسرائيل.

وعندما كان يُسأل بشكل عفوى ولطيف عن تفهمه للصراع العربى الإسرائيلى، كان ينحاز لإسرائيل دائماً. وربما كان بعض من هذا لإرضاء مضيفيه ويمكن ألا يحتسب، لكن ميلتشان استشعر مستوى قوياً من الأصالة فى تعبيراته الداعمة. وكما هو مخطط له، لم يكن سميث يعرف أنه يجرى تقييمه.

أوضح ميلتشان أنه فيما يخص الإسرائيليين والإيرانيين، كان المشروع قد تمت الموافقة عليه، طالما ستحصل شركة (أى إيه أى) على نسبة ٢٠٪ من المشروع كمتعهد ثانوى. وأكد لسميث أنه قادر على توجيه روكويل عبر النظام الإيرانى،

وسيَعتمد ميلتشان على نمرودي ولاكام لتوجيهه، لكن لم يكن هذا ما يقلق سميث.

كان ميلتشان يعرف أن شركة روكويل تستطيع تولى تلك المهمة، لكن مصدر قلقه الأساسى كان كيفية تمرير المشروع عبر البيروقراطية الأمريكية للحصول على تراخيص التصدير اللازمة وموافقات الوكالات العديدة. كانت تلك هى العقبة الكبرى، وسعى لطمأنة سميث بأنه أهل لتلك المهمة. ولم يتردد سميث فى القبول، إذ كان يعلم أنه سيكون لديه قسم كامل يعاونونه.

ولاحقاً فى تلك الليلة أجرى سميث مكالمة هاتفية عاجلة من غرفته بالفندق إلى رئيس مجلس إدارة شركة روكويل ليبلغه بمستجدات الأحداث. وأعطى الضوء الأخضر لمواصلة المهمة.

شمل اليوم التالى إفطار عمل فى فندق هيلتون وبعض الجولات السياحية. وذكر سميث أنه مهتم بشراء ماسة لزوجته وكان قد سمع أن بورصة تل أبيب للماس هى المكان الأمثل لعقد الصفقات الجيدة. فاتصل ميلتشان بأحد معارفه وخلال لحظات دبر لاجتماع سرى بالبورصة حيث عرض على سميث صفقة بيع رائعة بسعر الجملة لماسة وزنها قيراط لزوجته. وبدأت كل ساعة وكأنها تحمل فرصة جديدة ليظهر ميلتشان سميث بعلاقاته.

وعقب شراء الماسة توجه الرجلان لكنيسة القبر المقدس فى القدس، وكنيسة المهد فى بيت لحم، وجبل مسعدة المطل على البحر الميت. وحاضر ميلتشان سميث فى تاريخ تلك المواقع وأوضاعها السياسية بمعرفة واسعة وبحماس متقد. وأخذ انبهار سميث بهذا الشاب يزداد اللحظة تلو الأخرى. وتأثر خاصة بجبل مسعدة والموقف المأساوى والبطولى معاً الذى اتخذته طائفة الزيلوت اليهودية أو الغيورون فى لحظاتهم الأخيرة فى المعركة أمام الجنود الرومان المعتدين قبل أن ينتحروا

بشكل جماعى فى النهاية بدلاً من أن يستسلموا للعبودية.

وفى اليوم التالى اصطحب ميلتشان سميث إلى المطار ورافقه شخصياً عبر الأمن إلى قاعة كبار الزوار لينتظر طائرته. وترك الرجلان بعضهما بمصافحة قوية وبوعود بدوام الاتصال والعمل جنباً إلى جنب لإنجاح المشروع. وأدى ميلتشان مهمته، وغادر سميث إسرائيل فى ذلك اليوم محملاً بمشروع كبير محتمل، وبمزيد من الإعجاب لإسرائيل، وبما شعر أن صداقة قوية مع ممثلى شركة روكويل فى إسرائيل قد بدأت.

وما أن عاد لمقر شركة روكويل فى لوس أنجلوس وأطلع مجلس إدارة الشركة على الجريات، تم إعطاؤه موافقة مؤقته. واجتمع الفريق التقنى وبدأت عملية تصميم المشروع المعقدة وتوجيهه ليمر عبر البيروقراطية الأمريكية الشرسة.

لكن كان هناك اجتماع روتينى آخر عقده سميث لدى عودته إلى لوس أنجلوس، وهو اجتماع يعقده أغلب متعهدى الدفاع العسكرى رفيعى المستوى لدى عودتهم من المشاريع الخارجية كشرط للحفاظ على تراخيصهم بالغة السرية، وهو اجتماع مع عميل من السى آى إيه يستجوب فيه مسئولى الدفاع العسكرى بخصوص مقابلاتهم مع المسئولين الأجانب أثناء رحلاتهم الخارجية، ليعرف ما يمكن معرفته عن النوايا والأساليب، وليقيم محاولات التجنيد أو الاختراق.

كان متعهدو الدفاع العسكرى من أمثال سميث يعملون كمصادر مساعدة لإمداد عملاء السى آى إيه حول العالم بالمعلومات، وبالرغم من اتفاقاتهم على ألا يتجسسوا على بعضهم البعض، كانت إسرائيل بالقطع من الدول التى تركز عليها السى آى إيه. وكشف ريتشارد كيلى سميث بشكل تلقائى عن كل معارفه وأصدقائه فى إسرائيل أثناء الرحلة، وذكر ميلتشان بالاسم، ضمن آخرين، بينما كان العميل

يدون ملاحظات كما اعتاد أن يفعل في اجتماعاتهما السابقة. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يلاحظ فيها عميل لسى أى إيه اسم أرنون ميلتشان.

ومن إسرائيل، أخذ ميلتشان يتابع تقدم سميث بعناية ومن خلال المساعدة السرية للملحق العسكرى الإسرائيلى فى طهران ياكوف نمرودى، وتمكن من توجيه شركة روكويل عبر العالم الإيرانى الفاسد والمعقد لشراء الأسلحة. وحرص رجل نمرودى الخفى على التعرف على سمسار الجنرال خاتمى.

وقّع الإيرانيون خلال أشهر على عقد مطول ومعقد صاغه فريق روكويل القانونى. وعقب ذلك ببضعة أشهر سافر مدير أمن شركة روكويل شخصياً على طائرة سابريلاينر ومعه كومة من الأوراق طولها أكثر من ١٠ أقدام تمثل مشروع المليار دولار، وشملت كل تصميم وكل تفصيلة، حيث كان قد مر بمكتب البنتاجون لمراقبة الذخائر لتفحصه البنتاجون، ووكالة الأمن القومى (إن إس إيه)، والاستخبارات المركزية الأمريكية سى أى إيه، ووزارة الخارجية، حيث كان يجب أن ينال المشروع موافقتهم جميعهم قبل أن يتم البدء فى تنفيذه. وبعد ستة أشهر -أى فى وقت قياسى- فى الواقع، تمت الموافقة على المشروع، وفى مطلع عام ١٩٦٩، بدأ تنفيذ الإنشاءات. وكان ميلتشان فى الرابع والعشرين من عمره.

فى ١٩٦٨، كان موتى بلوك -اختصاصى الإنشاءات بالقوات الجوية الإسرائيلية والبحرية، ومتخصص فى الاتصالات وتجهيزات الرادارات- يصف فى مذكراته عودته ذات يوم عرقان ومتسخاً من شبه جزيرة سيناء بعد العمل فى مشروع ضخّم. وعندما وصل لمنزله أخبرته زوجته أن شخصاً ما يحاول الاتصال به وأنه مطلوب لاجتماع عاجل فى تل أبيب.

ولأنه محترف مخضرم، ذهب فى الحال. "سنرسلك إلى إيران بعد ثلاثة أيام"

كان هذا ما أخطر به. لم يكن بلوك سعيداً بذلك وحاول أن يعرف من وراء هذه المهمة المفاجئة، "إن أخبرناك أن بنيامين هو الذي وراءها، أسيكفيك هذا؟" وجه إليه هذا السؤال بدون أى انتظار لإجابة منه.

"بلومبيرغ كان اسماً مقدساً" هكذا يقول بلوك "لم أقابله يوماً لكن كل المطلعين يعرفون أن له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بالأمن القومي". هكذا عرف بلوك أنه سيسافر إلى إيران ليس لأسباب تجارية فقط، لكن لغرض يخص الأمن القومي. "طلبوا منا أن نفتح أعيننا ونرسل التقارير".

قبل مغادرته، أطلع على حقيقة أنه سيعمل لدى شركة اسمها ساريك إيران. وخلال ثلاثة أيام من عودته من سيناء، وصل موتى إلى طهران. وانضم لفريق يشمل خمسة عشر إسرائيلياً وأمريكين من شركة روكويل، وعينوا حوالي ٧٥٠ إيرانياً لأجل هذه المهمة، أو ١٥٠ عاملاً إيرانياً لكل مشرف إسرائيلي

تم إنشاء مباني الاتصالات فى ١٤ موقعاً مختلفاً، وشمل كل موقع قبتين للرادار، و٤ هوائيات، وبرجاً للاتصالات ذا أطباق استقبال ضخمة كانت تستخدم فى اتصالات العمليات وكانت تسمى الوحوش. وكانت المواقع ممتدة من الحدود الجنوبية مع باكستان، إلى بندر عباس عند مدخل الخليج العربى، إلى الشمال الغربى تجاه بيشاور، مروراً بمركز البلد، ثم إلى شيراز، ثم إسبان، ثم طهران. وفى تلك الأيام كان الضباط ورجال الأعمال الإسرائيليون والإيرانيون يعبرون الحدود بشكل منتظم، ويتبادلون المعرفة، ويستثمرون فى مشاريع مشتركة. كان الأمريكيون يجلبون المعدات، وكان الإسرائيليون يقدمون الخبرة، وكان الإيرانيون يقدمون الأموال. كانت هناك شركات إسرائيلية قائمة هناك، وكان الإسرائيليون هم المهيمنين فى البلد.

وكان موتى بلوك يطلع لأكام على ملاحظاته فى إيران، وكان من أول من حذروا بشدة من تزايد قوة الإسلاميين المتطرفين فى البلد، وتنبأ بثورة قريبة. وخدمت تلك المعلومات ميلتشان بشكل جيد.

واستمتع ميلتشان بنشاطاته فى إيران، وقضى عدة سهرات فى الملامى الليلية فى جادة باهلانو الراقية فى طهران. وكان دوره فى مشروع المراقبة الإلكتروني الإيراني، أبيكس، يعد طفرة بالنسبة له، وامتدت عواقبه لمدى بعيد. وكسب ود الشاه نفسه فى القصر الملكى، وأبرم العديد من العقود الزراعية والعسكرية الإضافية فى حقبة السبعينيات بأسلوبه الساحر. وأسس العديد من الشركات فى إيران لخدمة تلك العقود، ومنها إنشاء قاعدة جوية كبيرة جديدة، والتي زعم لاحقاً أنه مجرد عقد لإزالة الأعشاب حول المهبط الجوى. وأصبحت شركته "فارم ميديسين" أكبر شركة كيموايات زراعية فى إيران.

ولم يتم تجاهل شركة رايتيون والتي كانت عميلة ميلتشان، إذ باعت رايتيون صواريخ هوك أرض/ جو مطورة متوسطة المدى لإيران فى السبعينيات، وتم تركيب أنظمة إلكترونية متطورة باللغة السرية فى طائرة الشاه الشخصية من قبل إى سيستيمز وهى شركة فرعية سرية تابعة لرايتيون. وطلب الجنرال خاتمي العديد من صواريخ سايدويندر وفينيكس وسبارو ومافريك من أجل القوات الجوية الإيرانية. ومن تلك الصفقات، ومن كل الصفقات خارج إسرائيل، كان ميلتشان يأخذ عمولته.

ويحلول سنة ١٩٧٣ كانت مرحلة الإنشاء فى مشروع أبييكس قد شارفت على الانتهاء وتم استبعاد المشاركة الإسرائيلية. ويانتقال الإسرائيليون وميلتشان إلى مشاريع أخرى فى إيران، تطور كل من مشروع "أبييكس" و"دارك جين" وتوسعا طوال السبعينيات ليصبحا عملية أمريكية مستمرة باللغة السرية على الحدود

الجنوبية للاتحاد السوفييتي.

واستثمرت شركة روكويل في العديد من المشاريع التحديثية. وفي ٢٨ أغسطس عام ١٩٧٦ تم اغتيال ثلاثة موظفين لروكويل يعملون في مشروع آيبيكس في طهران بواسطة من اشتبه في أنهم عملاء سوفييت أو متطرفون إسلاميون، ولم تكتشف ملابس تلك الواقعة بشكل حاسم قط. وأصبحت روكويل نفسها غارقة في فضائح الرشاوى المتعلقة بآيبيكس، والتي نشر تفاصيلها الصحفي بوب وودوارد على الصفحة الأولى لجريدة واشنطن بوست في ٢ يناير عام ١٩٧٧. وكانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها العالم عن آيبيكس، لكن آنذاك كان ميلتشان قد تملص منها منذ فترة طويلة، إذ كان لديه مشاريع أخرى في إيران وفي مناطق أخرى حول العالم.

وفي عام ١٩٧٥ توفي زوج أخت الشاه وأقرب مخلصيه الجنرال محمد خاتمي، والذي لعب دور الممثل الفعلي لشركة روكويل في إيران، مات في حادثة قفز بالمظلات غامضة تزامناً مع بدء القلاقل في البلاد بأسلوب منتظم. وكانت الجماعة المتطرفة تودا هي المشتبه به المعتاد. وكنتيجة للثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، تم تفعيل خاصية التدمير الذاتي لمواقع التنصت لتجنب وقوعها في أياد معادية.

كان ياكوف نمرودي من الأشخاص الذين ساءهم نجاح ميلتشان في إيران، إذ كان قد أصابه الملل من مشاهدة نخبة إسرائيل، وبخاصة شاب في عمر أرنون، يزادون ثراء في إيران نتيجة صلاتهم، تلك الصلات التي كان نمرودي نفسه قد عمل على تنميتها على مدار أعوام عديدة. وبحلول عام ١٩٧٠ استقال نمرودي من منصبه كملحق عسكري إسرائيلي في طهران وبدأ مشروعه الشخصي الناجح لتجارة السلاح، والذي جنى منه الملايين في النهاية بعقده صفقات في إيران

ومناطق أخرى. تورط نمرودي لاحقاً مع آل شويمر في فضيحة إيران كونترا، بينما نأى ميلتشان بنفسه عنها، بالرغم من أنها كانت تنطوي على بيع صواريخ هوك من شركة رايشيون عن طريق إسرائيل.

في عام ١٩٧٨، أدرك ميلتشان أن الشاه كان على وشك أن يطاح به، وأنها مجرد مسألة وقت قبل انهيار نظامه. وتحرك سريعاً لبيع شركة فارم ميديسين، والتي كانت قد أصبحت أكبر مجموعة شركات زراعية في إيران، ومعها كل مشاريعه الأخرى في إيران بأرباح كبيرة. وعقب ذلك بعام، استولى آية الله الخميني والمتطرفون الإسلاميون على البلد كلياً. وتجنب ميلتشان طلبة النهاية باتباعه لحدسه وغادر المشهد قبل قوات الأوان.

ومع بداية السبعينيات، كانت شركة ميلتشان إخوان قد افتتحت أفرعاً في بلاد عدة، ومنها عدد من الدول التي لم تكن بينها وبين إسرائيل علاقات دبلوماسية، وفي بعض الحالات بلاد كانت في حالة حرب مع إسرائيل. وعبر الشركات الفرعية في اليونان وقبرص، افتتحت لها أفرع في مصر والسودان وإثيوبيا والأردن وتركيا، ضمن بلاد أخرى. وكانت تلك الشركات غالباً ما تُستخدم كواجهات لوفاء المتطلبات المتعددة لدولة إسرائيل. وفي قمة تلك الأنشطة، كان ميلتشان يتحكم في أكثر من ٣٠ شركة في ١٧ دولة، وقال في هذا الصدد "أعطيت إسرائيل تفويضاً مطلقاً لاستغلال شركاتي للمساعدة في الدفاع عن بلدي وبقائه".

لكن إيران كانت أول مكان انهمرت عليه فيه المكاسب المالية المفاجئة على مستوى دولي، وربما كان المكسب الأهم من مشروع المراقبة الإيراني هو علاقة ميلتشان التي تطورت مع ريتشارد كيلى سميث في روكويل. عمل الاثنان جنباً إلى جنب طوال تطوير مشروع أبيبيكس، في إيران وإسرائيل، ونشأ بينهما مستوى من

الثقة، وأتيحت لميلتشان عدة فرص لنثر بذور المرحلة المقبلة. وفي أواخر عام ١٩٧٢ جلس ميلتشان وسميث معاً مجدداً على العشاء، وهذه المرة في مطعم كاسباه في شمال تل أبيب أثناء إحدى زيارات سميث الروتينية كجزء من مسؤولياته في تطوير منظومة العمل.

وشعر ميلتشان بالارتياح بما يكفى للإدلاء بتلميحات عن نواياه، حيث اقترح أن تلك اللحظة ربما تكون المواتية لسميث ليجنى مبالغ كبيرة في مشروعه التجارى الخاص. وكان يعرف سميث بقدر مكنه من أن يدرك أنه يشعر أن روكويل تبخسه قدره وراتبه. كان يعرف أن سميث لم يكن من محبى ثقافة المؤسسات حيث يدير الآخرون وقته وينسقونه، وأنه كان مسئولاً أمام أشخاص يراهم يعملون أقل منه لكنهم يتقاضون رواتب أكبر منه.

لكنها كانت مخاطرة بالنسبة لسميث الذى كانت أشياء مثل التأمين الصحى، ومعاش التقاعد، وأمان الوظيفة تثقل تفكيره. وفكر ملياً فى الطريق الطويل الذى قطعه من أوكلاهوما الريفية حتى وصل إلى مركزه الحالى فى أعلى مستويات مجاله. سنوات من التعليم المكلف، وعائلته، وأبناؤه، وأقساط الرهن. كان غارقاً فى الالتزامات.

واستشعر ميلتشان درجة من التردد من سميث. وأوضح أن الفكرة هى العمل بشكل قانونى ومعلن، وأنه يستطيع تزويده بكل الطلبات التى يمكنه توليها من قائمة طويلة من الأغراض المطلوبة لمشاريع عدة. وتحمس سميث لفكرة انخراطه فى بعض أكثر برامج إسرائيل سرية، لكن فكرة استقلاله بذاته، ووضع جدولته الخاص، وتحسين مستوى معيشته كانت أقوى المغريات. وعرف ميلتشان مواطن ضعفه، وبالطبع كان الطمع أبرزها.

كان العرض مغرياً، فألقى ميلتشان بنوره، ومضى سميث يتصور بالفعل كيف
سيخبر زوجته إيميلي بأنها يمكنها أن تستقيل من عملها كمعلمة. وامتلاً عقله
بصور لمنازل مواجهة للبحر وعضويات نوادي اليخوت.

الرجل الذي عرف أقل مما يجب

كان أرنون ميلتشان هو تشاك نوريس وكالة لاكام.

عمنون أبراموفيتش، صحيفة غلوس الإسرائيلية، ٢٤ أبريل ٢٠٠٨

اقترح ريتشارد كيلي سميث متحمساً أن تسمى الشركة ميلكو، مما رسم ابتسامة
عصبية على وجه ميلتشان.

افترض سميث أن الاسم سيعجبه، لكنه كان مقلقاً بالنسبة لميلتشان واعترض بلطف. وكان يفضل اسماً أكثر عمومية، لكنه لم يرد أن يبدو قليل الاحترام، ولم يُرد أيضاً أن يظن سميث أنه يناهى بنفسه عن التسمية لأى سبب كان. وشرح سميث أن الاسم هو مختصر لتعبير شركة المنتجات العسكرية، ولا علاقة له باسم «ميلتشان»، فالتزم به. ولاحقاً، عندما سمع بلومبيرغ بالاسم، وبخ ميلتشان، لكن الألوان كان قد فات.

وبالرغم من حماسه، ظل سميث يماطل لأسابيع قبل أن يُرد على عرض ميلتشان المغرى. فبعد كل شئ، فقد وصل لمنصبه في شركة روكويل بعد أعوام من الكفاح الشخصى، ونال درجة المدير العام فى أهم شركات معدات الفضاء الجوى فى أمريكا، واكتسب خبرة تجاوزت بكثير تدريبه الشخصى كمهندس، وتعامل مع عقود بمئات الملايين من الدولارات، ومبالغ لم يكن ليحلم قط بالحصول عليها

كموظف أو حتى كمدير عام. وعرف مَنْ هم الذين يجنون المبالغ الطائلة، وعرف أنه ليس واحداً منهم، ومن المحتمل ألا يكون أبداً.

وبدأ يعجب بميلتشان بشدة من نواح عدة، وكان يفار منه ويجله في ذات الوقت. إذ كان ميلتشان مثلاً للحياة المرفهة، وكأنه يسبح في بحور المال والشباب، وتحديه قدرة لامتناهية في الحصول على مراده أيما كان، كما كان مستقلاً وواثقاً من نفسه، وغير محدود بقيود الحياة، اجتماعية كانت أو اقتصادية. ومع كل يوم يمر، أصبح سميث أكثر انجذاباً للفرصة التي وضعها ميلتشان تدريجياً عند قدميه. في قرارة عقله، كان يرى أن ميلتشان يعرف كيف يجنى المال، وأنه من النوعية التي يجب عليه ملازمتها والاحتذاء بها إن أراد أن يتحرر من أغلال الوظيفة ليحيا الحياة التي شعر أنه يستحقها.

وعندما وافق سميث على عرض ميلتشان لم يكن لديه فكرة عن طبيعة عمل شركة ميلكو، وعن طبيعة الاتفاق الذي سيبرم بينهما. وتردد، هو وزوجته إيميلي، لكنه فوجئ عندما فتح الموضوع مع رؤسائه في روكويل، أنهم سروا به، إذ كان يمثل حلاً للضغط المستمر من السعوديين لقطع العلاقات مع إسرائيل.

وبدلاً من الطلب من روكويل مباشرة، كان بالإمكان تمرير التجارة مع إسرائيل عبر شركة ميلكو، ويمكن لشركة روكويل حينها أن تدعى أنها تتعامل قليلاً مع إسرائيل أو لا تتعامل مطلقاً معها، كما يمكن لميلتشان أن يمرر طلباته لروكويل عبر ريتشارد كيلي سميث، والذي بدوره سيبيع بالطلبات إلى إسرائيل مباشرة، أو إذا لزم الأمر عبر شركة ثالثة يتحكم فيها ميلتشان.

ووفقاً لسميث، فقد عرضت عليه شركة روكويل منصباً بمجلس الإدارة للحفاظ على تصريحه الأمني بالغ السرية، حتى يظل على اطلاع على أحدث التطورات السرية في تكنولوجيا الفضاء الجوي. وقدم ميلتشان العديد من الوعود، وفقاً لسميث، وقال إنه سيمرر كل طلباته من روكويل ومن أية شركة أمريكية أخرى عبر ميلكو.

وأدرك سميث أيضاً أنه إن عمل مستقلاً عن روكويل، فسيتمكن من فعل أشياء أخرى. كان قد حصل بالفعل على العديد من العمولات من الناتو وناسا، والذين كانوا يتعاملون في الأغلب في أنظمة توجيه الصواريخ والتحكم فيها. وكان عضواً بالمجلس الاستشاري العلمي في البنتاجون، وكان يحظى برتبة مدنية بروتوكولية بدرجة جنرال بثلاث نجوم. وكان يمكنه طلب طائرة نقل من القوات الجوية الأمريكية لنقله إلى أي مكان يريده. وكان مقتنعاً بأنه سيتمكن من إبرام بضعة عقود استشارية من تلك المؤسسات. وبطبيعة الحال كان ميلتشان يشجع خط التفكير ذلك.

كان ميلتشان يعرف أن استصدار الترخيص سيكون أكبر عقبة سيواجهها سميث وكان هذا من أهم الأسباب التي جعلته مهتماً بسميث في المقام الأول، إذ إن قدرته المحققة على تحريك المياه الراكدة في النظام الضخم للبيروقراطية الأمريكية قد ظهرت عن حق طوال مشروع آيبيكس. وعلى عكس الأمور في إسرائيل، حيث كان ميلتشان يستطيع أن يتجنب العديد من الإجراءات البيروقراطية بمكالمة هاتفية واحدة لبلومبيرغ، كانت البيروقراطية في الولايات المتحدة أكثر شراسة. كانت مكونات الصواريخ عالية الحساسية، والأنظمة الإلكترونية المعقدة، وأنظمة التوجيه تحتاج كلها، من الناحية النظرية، إلى تراخيص تصدير ذخائر، بالرغم من أن كل الجهود كانت تبذل لتفادي أى معوقات.

وكانت العديد من القطع تنال موافقات التصدير الاعتيادية من وزارة التجارة الأمريكية، وفي بعض الأحيان كانت لا تحتاج لذلك حتى. وكان ميلتشان يعرف أن معظم القطع مزدوجة الاستخدامات، والتي تُشتري وتُشحن بشكل منفصل، لن تعتبر قطعاً ذات تطبيقات عسكرية. في أغلب الحالات كانت الرخص الخاصة ضرورية إن كانت للقطعة غرض عسكري حصرى.

وبمرور السنين شددت الولايات المتحدة الإحكام على سوق القطع مزدوجة الاستخدامات، لكن في مطلع السبعينيات كانت تلك لا تزال في ظلال المنطقة الضبابية، والتي تتخللها فجوات واسعة يمكن لشخص مثل ميلتشان أن يقود شاحنات ضخمة متخفياً إياها. ووفقاً لسميث فقد ناقش الاثنان البنية التنظيمية للشركة، حيث سيمتلك سميث شركة ميلكو كلية، وسيكون مديرها ورئيس مجلس إدارتها، ولن يكون لميلتشان أية حصة في الشركة. لكن بما أن ميلتشان سيجلب لميلكو كل طلباتها تقريباً، طالب بأن يتم تقسيم الأرباح بنسبة ٦٠٪ له و٤٠٪ لسميث. وبالرغم من الاتفاق لم يكن سميث يعرف أن نسبة الـ ٦٠٪ من الأرباح التي

سيجنيتها ميلتشان ستؤول في الواقع إلى حسابات إسرائيل السرية والتي كانت تحت سيطرة ميلتشان. وسريعاً أقنع سميث نفسه أن التوزيع غير العادل للأرباح كان مقبولاً لكن التكاليف كانت شأناً آخر، ووافق ميلتشان على أن يخضع سميث كل نفقاته من أرباح الشركة في حدود المعقول.

وكان التمويل المبدئي للمشروع هو العقبة الأخيرة. وبما أن سميث لم يكن يملك هذا القدر من المال، وافق ميلتشان على تحمل تمويل الطلبية الأولى للمشروع. وشعر سميث بالرضا حيال ذلك. وكانت تلك فرصته للتحرر من أغلال المؤسسات الأمريكية، ومن تقارير سير العمل، وتقييم الأداء، والجداول الصارمة، وسجلات الدوام.

أصبح رجلاً مستقلاً، والأهم من ذلك، كانت تلك فرصته لجني الأموال الطائلة.

وفي الواقع ألقى ميلتشان بدهاء بنود تكوين شركة يملكو وطريقة تشغيلها. وأقام شركة لا تحمل بصماته وجند عميلاً مرموقاً واسع المعرفة، يعتمد كلية على استعداد إسرائيل -عبر ميلتشان- لتسليم الطلبات. ومقابل اعتماده عليهم، وفي مقابل فرصة العمل لصالح ميلتشان والذي هو امتداد للاستخبارات الإسرائيلية، ألقى ريتشارد كيلي سميث من نفقات شركته وخصه بنسبة ٤٠٪ من الأرباح.

وكانت طريقة التشغيل المتفق عليها بسيطة ومباشرة: ترسل مديرة مكتب ميلتشان ديبورا بن إسحاق، والتي تعمل مباشرة مع بنامين بلومبيرغ، تلغرافاً مشفراً إلى سميث بقائمة الأغراض الحساسة التي ترغب أية شركة من شركات ميلتشان في الحصول عليها. ويتوارى ميلتشان نفسه في الظلال الخلفية ويتصل بها عندما يلزم الأمر فقط.

وفي أواخر ديسمبر ١٩٧٢، غادر سميث شركة نورث أمريكان روكويل. وكان

البعض في روكويل يعرفون أن سميث قد افتتح بالفعل شركة ميلكو، والتي أدارها من منزله في مدينة هاوس أوف أورانج في جنوب لوس أنجلوس. وكان يدير المشروع في ساعات غير ساعات العمل بالولايات المتحدة، مراعاة لفروق التوقيت في إسرائيل.

وفي ١٩ يناير ١٩٧٣، افتتح سميث والذي كان قد بلغ أربعة وأربعين عاماً شركة ميلكو إنترناشونال، وسجل الشركة في أورانج كاونتي، كاليفورنيا. وكانت ديبورا تبعث له بقوائم طويلة من القطع ليشتريها. في المرحلة الأولى، كانت كل القطع التي يتم طلبها من أجل نظام جيريكو ٢ للصواريخ البلاستيكية النووية، ومهندس متخصص في أنظمة توجيه الصواريخ، كان سميث يستنتج بسرعة بالغة الغرض من كل قطعة، ومن أين يمكن الحصول عليها.

حاول لأقصى مدى ممكن، الالتزام بقوانين التصدير الأمريكية واستصدار تراخيص تصدير النخائر عندما يلزم الأمر. وكانت العديد من القطع مزبوجة الاستخدامات لا تتطلب رخصة على الإطلاق. وكان المستخدم الأخير لمعظم الشحنات هو شركة رحوفوت إنسترومينتس ليميتد، وهي شركة ذات علاقة وثيقة بوزارة الدفاع، ومقرها كان قريباً من معهد وايزمان للعلوم في مسقط رأس أرنون في رحوفوت. وكان من يدير شركة رحوفوت إنسترومينتس ليميتد كيميائي عبقري اسمه جوزيف يافى، والذي كان قد ترك معهد وايزمان ليؤسس الشركة.

وفي حالة طلب قطعة تعتبر حساسة للغاية لحد يجعلها لا يجوز ذكرها في التلغراف، كانت ترسل بشفرة محددة مسبقاً، أو يسلمها مبعوث خاص إلى سميث. وكان سميث يتحصل على القطع، ويضع عليها العلامات وفقاً لتعليمات ديبورا، ويدفع مقدماً بالأموال التي ترسلها شركات ميلتشان. وبعدها كان سميث يشحن

تلك القطع إلى إسرائيل.

ووفقاً لجريدة واشنطن بوست، أحياناً، كانت القطع ترسل إلى شركة أخرى في هيوستون، تكساس، ثم يتم شحنها إلى إسرائيل. وأحياناً كانت تشحن عبر بلد ثالث أو بواسطة الحقائق الدبلوماسية الإسرائيلية. وكان سميث يرسل إلى شركات ميلتشان الكميات المتفق عليها وكانوا يحولون ثمنها إلى حساب ميلكو المصرفي في الولايات المتحدة. وكان نسبة الـ ٦٠٪ الخاصة بميلتشان تحول إلى إحدى حساباته المصرفية السرية. وعمل النظام بسلسلة وفاعلية.

وعندما بدأت شركة ميلكو إنترناشونال لميتد تعمل بكامل طاقتها في الولايات المتحدة، كان ميلتشان على دراية تامة بقائمة طويلة من برامج إسرائيل بالغة السرية، مثل مصنع القنبلة الذرية في ديمونة، مساعي صناعة القنبلة النيتروجينية، وبرنامج تصغير القنابل، ومؤسسة أبحاث المياه الثقيلة، وإنتاج صواريخ جيريكو ٢ البلاستيكية في بئر الطابية، وصوامع صواريخ زكريا، والأسطول النووي في تل نوف، وأبحاث الأسلحة الكيماوية والبيولوجية في المعهد الإسرائيلي للأبحاث البيولوجية في نس زيونا. واطلع ميلتشان بتوسع على العناصر الناقصة في تلك البرامج، والتي كانت تحتاجها إسرائيل بشدة لكي تمضي قدماً، وكانت تعتمد عليه لتحقيق ذلك.

وفقاً للمعلومات التي كشفت للعلن من قبل التقنى النووى الإسرائيلى السابق مورديخاي فانونو، أنه كان من أهم أولويات إسرائيل آنذاك تصنيع قنابل نووية تحتوى على ٤ كيلو جرام من البلوتونيوم، والتي تعادل من ١٢٠ إلى ١٦٠ كيلو طن من المسحوق الانفجاري، أو ما يعادل ١٠ أضعاف القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما وناجاساكي من قبل الولايات المتحدة في نهاية الحرب العالمية الثانية.

أن الترسانة النووية الإسرائيلية تطورت بشكل كبير منذ صناعة القنبلتين البدائيتين في عشية حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧، كانت الترسانة الاستراتيجية لا تزال تُعتبر غير كافية، ولا توفى من نواح عدة المجال المعقد لاحتياجات إسرائيل من أسلحة الردع.

وفقاً لحسابات كل من بيريز وبلومبيرغ وديان كانت إسرائيل تحتاج إلى حوالي ٥٠ قنبلة لإنشاء سلاح ردع قوى طويل المدى بمساحة الإقليم، لكن حتى هذا لم يكن كافياً لأهدافهم الاستراتيجية الأبعد من ذلك.

كان الإسرائيليون في حاجة لأن يعرف السوفييت أن موسكو نفسها ليست حصينة. وبلا شك، فقد كان السوفييت لديهم القدرة على تفجير إسرائيل ألف مرة الواحدة تلو الأخرى، لكن طالما فهموا أن تلك الخطوة قد تنطوي على ثمن لا يمكن تخيله، حينها ستكون إسرائيل قد حققت هدفها الاستراتيجي الأهم. ولم يكن هذا يعني قتال ضخمه فحسب بل والقدرة على إطلاقها لمسافات أكبر.

لكن تلك كانت البداية فحسب. وشعرت إسرائيل أنها بحاجة لأسلحة نووية أصغر للاستخدام في ميادين المعارك، حجمها يعادل ٥٪ إلى ١٠٪ من قنبلة هيروشيما، ويمكن إطلاقها من مدافع مداها حوالي ٧٠ كيلومتر، أو ما يعادل ٤٣ ميلاً. وكانت تحتاج لصواريخ نووية مصغرة في حجم حقيبة اليد كأسلحة ردع لهؤلاء الذين يظنون أنهم خارج مداها. ونظراً للمسافة الصغيرة التي تفصل بين إسرائيل وأعدائها، فقد كانت في حاجة إلى القنبلة النيوترونية، وهي أسلحة نووية حرارية تحدث حرارة وانفجارات صغيرة وتطلق كميات كبيرة من الإشعاع القاتل، ولا يتجاوز مداها منطقة مساحتها بضع مئات من الياردات فقط. وبسبب قدرتها التدميرية قصيرة المدى وعدم وجود عواقب طويلة المدى، تعتبر قنبلة النيوترون

شديدة الفاعلية ضد الدبابات وتشكيلات المشاة في أرض المعركة لكنها لا تعرض المدن للخطر ولا التجمعات السكانية على بعد أميال قليلة.

جعلت المسافات القصيرة لمسرح العمليات الإسرائيلي، وتقارب المسافات بين سكانها للقنبلة النيوترونية أولوية هامة. وبهذا حددت لأكام العمل الذي يلائمها.

أثناء اجتماعات عدة مع بلومبيرغ وييريز، عرف ميلتشان خيار شمشون وفهمه، أي مبدأ الأسلحة النووية الإسرائيلية. بالنسبة للرأي العام، لن تكون إسرائيل الدولة الأولى التي تعلن أنها تُنتج الأسلحة النووية في الشرق الأوسط ولن تؤكد وجودها أو تنفيه.

أما ما لم يتم إقراره علناً، على الرغم من الافتراض العام بصحته، هو أن إسرائيل تمتلك سادس أو ربما خامس أكبر كتلة أسلحة نووية في العالم وأنها لن تستخدمها إلا إذا واجهت خطر الإبادة الفيزيائية ولم يتبق أمامها ما تخسره. ويشير مصطلح "خيار شمشون" بشكل رمزي إلى قصة شمشون التوراتية، وهو السجين اليهودي الذي هدم المعبد على رأسه ورعوس معذبيه.

ومع تصاعد أنشطة ميلتشان السرية وتوسع عمله من أجل إنجاز السر الكبير، شعر كل من ييريز وبلومبيرغ أن الوقت قد حان لضمه لعضوية ناديهم، وأن يتم اصطحابه في جولة طوال اليوم في مفاعل ديمونة والتي لم يرق بها إلا الأعضاء أهل الثقة والمطلعون من القيادة الإسرائيلية. وكان مرشداهم في تلك الجولة هو رئيس عمليات مجمع المفاعل آنذاك يوسف توبيمان.

كان أول ما انبهر به أرنون بمجرد وصوله إلى البوابة بعد رحلة طويلة بالسيارة، هو الأجواء السلمية، وكأن المكان واحة في وسط الصحراء، وكانت المساحة الخضراء معتنى بها جيداً وكانت صفوف أشجار النخيل الصديقة للبيئة

تتمايل برفق مع النسيم العابر.

وفى وقت زيارته الأولى، كان المجمع أصغر بكثير مما هو عليه الآن، ويحوى ستة منشآت فحسب، مقارنة بالعشرة منشآت الحالية.

وتم اصطحاب أرنون بشكل تلقائى عبر الأقسام المختلفة، وسرعان ما عرف أن المفاعل قدرته تبلغ ١٥٠ ميجاوات ويعمل به حوالى ٢٧٠٠ شخص فى مهام منفصلة بالغة الخصوصية. كان، ومعه نصف البلد يفترضون بالفعل أن الغرض الرئيسى من تلك المؤسسة هو إنتاج البلوتونيوم، وهو منتج ثانوى لليورانيوم بغرض تصنيع ترسانة للأسلحة النووية. وعلم أرنون أن إسرائيل لا تحتاج فى المتوسط سوى ٤ كيلو جرام من البلوتونيوم لإنتاج قنبلة واحدة من النوع الذى كان يركز عليه البلد وقتئذ.

ماكون ١: كانت البنية المهيمنة على المجمع بقبة عزل يصل ارتفاعها إلى ٦٥ قدماً وكانت مرئية بوضوح من الطريق الرئيسى الذى يصل بئر سبع بوادى عربية. كانت ولا تزال، الرمز المرئى الشهير للبرنامج النووى الإسرائيلى، وهناك بدأت جولة أرنون، وعلم أن أكسيد اليورانيوم المخصب بنسبة ٢ أو ٤٪ يتم تصنيعه فى هيئة كرات صغيرة، ثم يتم إدخاله فى قضبان الوقود.

وكانت تلك القضبان مولدات للنيوترونات، متراصة بالقرب من بعضها البعض، تتفاعل تفاعلاً متسلسلاً ذاتياً لإنتاج الطاقة وعناصر جديدة عن طريق انشطار اليورانيوم لإنتاج البلوتونيوم.

وكان هذا البلوتونيوم يتم تجميعه لإنتاج القنابل، لكنها كانت عملية بطيئة وشاقة. وسرعان ما استوعب عقل أرنون النابه العملية بدون حاجة لمزيد من الشرح. ومنها تم اصطحابه إلى ماكون ٢، متجاهلين ماكون ٢، والذى كان له أن

يعود إليه فى نهاية الجولة.

وكان ماکون ٣ يُستخدم فى الأغلب لمعالجة اليورانيوم الطبيعى من أجل المفاعل ولتحويل ليثيوم ٦ إلى مادة صلبة، لاستخدامه فى رعس الصواريخ النووية الحرارية، كما شرح له مرشده بشكل تلقائى. ثم انتقلوا سريعاً إلى جناح ماکون ٤، والمخصص لمعالجة بقايا المنتجات النشطة إشعاعياً، وكان يشمل مصنعاً لمعالجة البقايا ووحدة تخزين للبقايا النشطة. أما عن البقايا غير النشطة فكانت تمزج بالقار، ثم تُعبأ وتُدفن فى موقع سرى، يفترض أنه خارج البلد.

وكان ماکون ٥ يتعامل مع اليورانيوم الناتج من ماکون ٣، الذى كان يصنع على هيئة قضبان تبطن بالألومونيوم قبل أن ترسل إلى المفاعل فى ماکون ١. ومنها كان يذهب إلى ماکون ٦، والذى كان يستخدم فى الأساس كمنشأة للصيانة تخدم المجمع كله. وشعر أرنون بالتميز إذ تم السماح له بالدخول إلى عالم يمكن أن ترتكب جرائم قتل فى سبيل الاطلاع عليه لأقوى وكالات الاستخبارات العالمية. وصلت الجولة لذروتها عندما وصلوا إلى بناية مستطيلة بسيطة من طابقين وبلا نوافذ تعرف بـ ماکون ٢، أثنى ما فى مجمع ديمونة. ومن الموظفين الكثر الذين يعملون بمفاعل ديمونة، لم يكن يسمح سوى لحوالى ١٥٠ موظف فقط بالدخول إلى ماکون ٢، وأسفل البناية ذات الطابقين بريئة المظهر كانت تقبع ٦ أدوار شاسعة، على عمق سحيق تحت الأرض، لا تراها الأقمار الاصطناعية ولا الضيوف غير المدعوين. وكان ذلك هو قدس الأقداس، حيث أسست إسرائيل منشأة ضخمة لفصل البلوتونيوم بهدف واحد فقط... وهو صناعة القنابل النووية. ودخلوا إلى الطابق الثانى، والذى كان فى الواقع الطابق الثامن!

عندما زار المفتشون الأمريكيون مفاعل ديمونة فى الستينيات، زاروا ماکون ٢

أكثر من مرة، وشاهدوا المكاتب وتناولوا الغداء في مقصفه، وهم غافلون تماماً عن الأسرار الخطيرة التي تقبع تحت أقدامهم مباشرة، بفضل الحائط المزيف الذي أقامه بلومبرج أمام المصاعد المحرمة والتي تؤدي من المقصف إلى المجمع تحت الأرضي، ولم يتمكن المفتشون الأمريكيون من تخيل حجم الخداع الإسرائيلي.

انبهر أرنون وضغط مرشده على زر الدور الرابع، وفتح باب المصعد على شرفة كبيرة تطل على فضاء شاسع فوقها وتحتها. وكانت تلك شرفة جولدا مائير الشهيرة، وسميت على اسم رئيسة وزراء إسرائيل والتي وقفت في ذات المكان بالضبط عدة مرات، تتلقى التقارير وتفحص العملية. وقيل إنها علقت قائلة: لن يقاد أي يهودي أعزل إلى مذبحه كما حدث في المحرقة بعد ما رأيناه هنا.

دهش أرنون لما يشهده وشعر بالفخر والتمكين وهي مشاعر طغت على أي إحساس مشابه كان قد شعر به في الماضي. وإذا يقف في شرفة جولدا تلقى تقريراً مفصلاً عن عملية تصنيع الأسلحة النووية. وكان التقرير يشمل العديد من المصطلحات والإجراءات والمواد التقنية، والتي حفظها أرنون سريعاً في ذاكرته بينما كان يشاهدها، وهو مبهور بالعملية التي كانت تتكشف أمام عينيه.

عرف أرنون أن هناك شاحنات خاصة كانت تأتي بقضبان اليورانيوم المعالج والذي كان يعد بالدور الأرضي من ماكون ١ ويتم رفعه إلى الطابق السابع. وكان ثمة رافعة تقبض على الأعمدة وتنزل بها إلى منطقة العمل بالأسفل. وكانت القضبان تُغمر في أحواض حامض النيتروز ثم تطهى. وكانت شبكة من المواسير تُصفى المياه التي تحتوي على اليورانيوم والبلوتونيوم عبر عملية كيميائية كما كانت المواد تُفصل وتستخلص في القرن، لتنتج كرات بلوتونيوم صغيرة وزن كل منها ١٢٠ جراماً، بإجمالي ١٠,٧ كيلو جرام في الأسبوع، وكانت الكمية المطلوبة لصناعة

قنبلة مـى ٤ كيلوجرام.

وفقاً للحسابات التى أجراها أرنون سريعاً كان بوسع إسرائيل إنتاج قنبلة نووية كل أسبوعين ونصف، أو حوالى ٢٠ قنبلة نووية فى العام. وفى معامل أخرى تحت الأرض، تم إخبار أرنون بأن هناك مواداً ضرورية إضافية يتم إنتاجها، مثل التايتينيوم لصنع القنابل النووية الحرارية. ساد الصمت الرهيب الغرفة، مع قليل من الهمسات العرضية، كما لو كانوا فى مكتبة أو كنيسة.

وعقب ذلك تبع أرنون مرشده إلى الغرفة الأخرى، وكانت غرفة ترفيهية للموظفين مخصصة لمجمعى القنابل. وكانت الفكرة منها توفير بيئة خالية من الضغوط ومريحة بقدر الإمكان للمُجمعين، إذ كان من غير المقبول ترك أشخاص يعملون بمثل تلك الوظيفة يشعرون بالتوتر أو الانزعاج أو الكدر بأى شكل كان.

وفى الغرفة الترفيهية تلقى أرنون تقريراً هاماً عن احتياجات ديمونة من المواد، عبارة عن قائمة طويلة من الأغراض المطلوبة وبدأ أرنون يفهم الآن أن تلك من المهام المصيرية التى هياها لها كل من بيريز وديان وبلومبرج، ألا وهى تطوير البرنامج النووى الإسرائيلى.

وبطبيعة الحال كان أكبر الاعتبارات هى توفير مورد ثابت لليورانيوم. كانت إسرائيل قد أملت أن تستخرج يورانيوم كافياً من موارد البوتاس فى صحراء النقب، لكن النتائج كانت محبطة.

ونما لعلم أرنون أن المفاعل يعمل بشكل عشوائى، ويعتمد على عمليات لاكام المبتكرة والجريئة ليستمر فى عمله وكانت معظم الأغراض المطلوبة غريبة وغير مألوفة بالنسبة له، مثل الملح الأخضر، وهو مركب بلورى صلب من تترافلوريد اليورانيوم، والكرايترون وهى أنابيب من الكاثود البارد معبأة بالفان تستخدم

كمفاتيح فائقة السرعة لتفجير الأسلحة النووية، والنابذات وهي أجهزة تستخدم قوة الطرد لفصل المواد. والنابذ يمكن استخدامه لأغراض عدة، لكن لم يكن معروفاً آنذاك أنه يمكن استخدامه أيضاً لتخصيب اليورانيوم بدرجة تحقيق جودة الأسلحة. وضمت القائمة أيضاً دتريد اليورانيوم، وهي مادة ليس لها أى استخدام مدنى أو عسكرى محتمل سوى إنتاج القنبلة النووية.

كانت ميلكو وشركات واجهة أخرى أسسها أرنون معدة خصيصاً بغرض الحصول على تلك المواد. وحققت جولة المفاعل الغرض منها لدى بيريز وديان، إذ أصبح أرنون متحمساً أكثر من أى وقت مضى لأداء بوره.

أراد أن ينجح من منطلق الوطنية العميقة. وفكر فى جده الراحل حاييم إيلعازر ميلتشان، الذى نجا من المذابح وترك عائلته فى بولندا وهو فتى أغر فى الرابعة عشرة من عمره ليصل وحده على شواطئ أرض مقفرة، ومعه حلم كبير، نسج منه حياة مزدهرة بيديه. ورسخ حاييم فى حفيده حب بلده والاستعداد لفعل أى شىء من أجله، بما فيه التضحية بحياته إن لزم الأمر.

قال أرنون: أحب إسرائيل، وسأساعد بأية طريقة ممكنة، وسأفعل ذلك مراراً وتكراراً.

كان أحد أهدافه المتعددة هو جلب تصميم النابذات، وهى طريقة جديدة وبالغة السرية لتخصيب اليورانيوم. وكان المصنع الأول للنابذات فى العالم هو شركة يورينكو لميتد، وهى شركة مقرها فى يوليش، ألمانيا، ومملوكة لاتحاد شركات هولندية وألمانية وإنجليزية.

ووفقاً للدكتور أفنر كوهين، وهو خبير مخضرم فى الانشطار النووى، فقد بدأت إسرائيل تجرب النابذات من مطلع الستينيات حتى منتصفها، لكنها استغرقت

وقتاً طويلاً، ربما عقداً، لإتقان تلك التكنولوجيا. وفي الواقع لم تتقن إسرائيل يوماً تكنولوجيا النابذات من تلقاء نفسها، بل فعلت ذلك فقط بعدما حصلت على تصميمات شركة يورينكو للنابذات في مطلع السبعينيات من أحد المديرين التنفيذيين في يورينكو نفسها، وتم تبادل المال، ووضعت التصميمات في المكان الخطأ وتم العثور عليها لاحقاً، لكن ليس قبل أن تصنع منها نسخ، والتي ظهرت بأعجوبة على مكتب بينيامين بلومبرج في تل أبيب. وتم إنجاز المهمة.

وخلال بضعة أعوام من زيارة ميلتشان الأولى لمفاعل ديمونة، تم تخصيص مبنى "ماكون" جديد بأكمله لتخصيب اليورانيوم بشكل أسرع وأكثر فاعلية، بواسطة النابذات التي تم تصميمها كلياً في إسرائيل طبقاً لتصميمات يورينكو بالضبط، والمبنى هو ماكون ٨، الذي يضم آلاف النابذات الدوارة، والذي يستحق أن يسمى ماكون ميلتشان.

ولاحقاً، تم إضافة منشأة إضافية "ماكون ٩"، إلى مفاعل ديمونة لمواصلة تكنولوجيا الليزر المطورة حديثاً. وكان ميلتشان اللاعب الرئيسي في توفير الكثير من المواد الحساسة والمعدات التي احتاجها العلماء لتطوير تلك الطريقة الفريدة لتخصيب اليورانيوم.

وجدير بالذكر أنه بعد فترة وجيزة من حصول إسرائيل على تكنولوجيا النابذات من يورينكو، سلم الدكتور عبد القادر خان "أبو القنبلة الباكستانية"، والذي كان يعمل آنذاك في أحد المعامل التابعة لشركة يورينكو في هولندا، التصميمات ذاتها إلى باكستان، ثم باعها لاحقاً إلى إيران وكوريا الشمالية. وتمثل سرقة الدكتور خان وانتشارها لاحقاً أسوأ اختراق أمني ذي علاقة بتكنولوجيا الأسلحة النووية منذ فجر التاريخ الذري، ويفسر أيضاً سبب استخدام كل من إيران

وإسرائيل لنابذات نووية متطابقة، وتلك حقيقة استفادت منها إسرائيل لاحقاً.

وكان محطو الاستخبارات الأمريكية يعرفون بأمر الهدف من مفاعل ديمونة، واحتياجاته، وبرامج إسرائيل السرية الأخرى لتطوير أنظمة التوصيل، مثل صاروخ جيريكو ٢ .

وكانوا يعرفون دور ميلكو كمورد جديد لمتطلبات إسرائيل العسكرية، وكان ذلك في الأساس بسبب تقارير ريتشارد كيلي سميث المنتظمة إلى السي آى إيه كشرط للحفاظ على تصريحه الأمني. لكن أياً من هذا لم يضايق ميلتشان لأنه فهم أن المخاطرة الكبرى في الولايات المتحدة كانت هي العمل خارج المنظومة. وكان من الأفضل له العمل في النور، داخل حدود القانون، أمام أعين الجميع، وبذلك يستفيد أقصى استفادة من داخل المنظومة، ثم يدعى الجهل، وأنه خطأ برىء، أو سوء فهم نتيجة الترجمة الخاطئة للتعليمات، إن حدث خطب جلل. وكانت الأخبار الجيدة هي أنه إن افتضح أمر الشركة، فلم يكن لميلتشان أى حصة فيها.

وعلى أية حال، ففي عام ١٩٧٢ كانت السي آى إيه والولايات المتحدة بصفة عامة لديهم مشاكل أكبر من بحث إسرائيل عن مواد حول العالم ليهتموا بها. لم تكن الأمور تسير على ما يرام في جنوب شرق آسيا. وكانت إسرائيل حليفاً في الحرب الباردة وكانت تقدم استخبارات بالغة الأهمية، في الأغلب من المجتمع اليهودي بداخل الاتحاد السوفييتي. وكانت إسرائيل من أهم ميادين التجارب للأسلحة الأمريكية، وكان لها تأثير متزايد في المؤسسة السياسية الأمريكية تزامنت مع نمو اللوبي المؤيد لإسرائيل 'إيباك'، وكان لها أصدقاءها النافذون في كل قطاعات الحكومة، ومنها المجتمع الاستخباراتي.

سمحت تلك البيئة لريتشارد كيلي سميث بأن يشعر بالارتياح للمضى قدماً في

إرسال شحنات إلى إسرائيل خارج النطاق القانوني. وفي عام ١٩٧٣ شحن براميل البوتيل - وهو مركب يستخدم لتحويل المساحيق التفجيرية إلى وقود صواريخ صلب - إلى شركة أخرى في هيوستون، حيث تم شحنها إلى مستخدم نهائي تبين في النهاية أنه إسرائيل.

كان مكوناً بالغ الأهمية بالنسبة لصاروخ جيريكو ٢، ونجح سميث في جلبه بوفرة لكنها كانت البداية فحسب ثم تلى ذلك بيروكلورات الأمونيوم والبيوتارين، والجيروسكوب، ومولدات النيوترونات، ومنظار الأوسيلسكوب عالي السرعة، المئات من القطع مزدوجة الاستخدامات، بإجمالي تكاليف يعادل عشرات الملايين من الدولارات. كلها تم شحنها إلى سميث ثم منه إلى المستخدم النهائي هو شركة رحفوت إنسترومينتس ليتد.

ومع توسع ميلتشان في عملياته في الولايات المتحدة، كان أيضاً مستغرقاً بالعمليات في إيران وفي صفقات شراء معدات الدفاع العسكري المعتادة لإسرائيل. حيث كان يجوب العالم بطائرته، ويبرم الصفقات، ويقابل الأقوياء والنافذين، ويعيش بشكل عام الحياة التي يمكن الشخص العادي أن يحلم بها، لكن كانت هناك مشكلة واحدة.

بمرور الوقت، أصبحت "أولا" الحب المهيمن على حياته، وبدأ يفكر في طرق للانفصال عن زوجته، ووعد "أولا" بأنه سيتخذ تلك الخطوة. وقبل ذلك بعام في ١٩٧١، أخطرت بريجيت أرنون بأنها حامل بطفلها الثاني، ابنتهما ألكساندرا. ولم يكن هذا وقتاً مناسباً للحديث عن الانفصال. لكن بعد بضعة أشهر من ميلاد ألكساندرا، استجمع أرنون الشجاعة الكافية لإبلاغ بريجيت بنواياه تجاهها. وفي ذلك المساء، دخل من باب منزله، متوتراً لكن عازماً. واستدعى بريجيت إلى غرفة

المعيشة ليتناقش معها لكن قبل أن يتمكن من البدء، قاطعته بخبر قاتلة أنا حامل مجدداً.

ومجدداً تراجع أرنون عن حديثه مع بريجيت، وأخبر "أولا" بالموقف.

وفى اليوم الذى ولد فيه طفله الثالث أى ابنته الثانية إليانور، هرع أرنون إلى المستشفى لمرافقة زوجته. وبينما كان ينتظر خارج غرفة الولادة مع أفراد عائلته، لاحظ ممرضة توجه شرطين صارمى المظهر تجاهه. وباقترابهما منه سأله أحدهما هل أنت أرنون ميلتشان؟، وعندما أجاب أرنون الذى ملأته الدهشة بالإيجاب، كان السؤال التالى هو هل تمتلك حصاناً؟.

كانت "أولا" قد انهارت أخيراً، وحزمت حقائبها، وقبل أن تغادر إلى المطار أطلقت سراح الحصان الذى كان أرنون قد اشتراه لها. وثار الحصان المفزوع فى شوارع ضواحي تل أبيب، مسبباً الفوضى ومتلفاً العديد من أكشاك البائعين والسيارات. وعندما أمسكت الشرطة أخيراً بهذا الوحش الهائج، تحرروا عن مالكه المهمل.

وبينما كانت بريجيت تلد إليانور، تم اصطحاب أرنون إلى قسم الشرطة، وأجبر فى النهاية على دفع غرامة وتغطية الأضرار التى تسبب فيها الحصان. وعندما علمت بريجيت بتلك الواقعة، انقلبت علاقتهما رأساً على عقب. وكانت تلك صدمة هائلة بالنسبة لأرنون.

الآن وبعد أن خرجت "أولا" من الصورة، صار أرنون عازماً على إنقاذ زواجه. ووافق الزوجان على إحداث تغيير جذرى فى حياتهما على أمل أن يقربهما ذلك من بعضهما. كان الحل، أو ما أملا أن يكون حلاً، هو الانتقال إلى فرنسا كعائلة، حيث ستشعر بريجيت أنها فى وطنها وأنها بجوار أقاربها.

وقرر أرنون أن يشتري قصرًا كبيراً من القرن الثامن عشر على حافة بحيرة صغيرة، جنوب غرب باريس ويبعد عنها بحوالى ٢٥ ميلاً. وكانت تلك الضيعة ذات الخمسين فداناً على مشارف مدينة مونتفورت لامورى التاريخية الخلابة، وعلى حواف غابة رامبويليه، وكان البيت يستخدم ذات يوم كمنزل للصيد للعديد من ملوك فرنسا. كان جاره هو الرئيس الفرنسى المستقبلى جاك شيراك والذى كان يسكن منزلاً أكثر تواضعاً.

وكانت أقصى آمال أرنون هى أن تصلح البيئة الريفية الخلابة، بخيولها وكل الرفاهيات الممكنة، علاقته الزوجية المضطربة.

تحت الحصار

النجاح هو القدرة على الانتقال من فشل إلى آخر بدون أن تفقد حماسك.
ونستون تشرشل

في ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣، اندلعت حرب يوم الغفران، أكثر الحروب الإسرائيلية قسوة وتكلفة من بعد قيامها. كانت المفاجأة مكتملة الأركان. في هجوم متناسق ومتزامن، هزمت القوات السورية عبر مضبة الجولان وعبرت القوات المصرية قناة السويس في أكثر أيام السنة اليهودية قداسة.

ساد الخوف من احتمال سحق قوات الهجوم لإسرائيل قبل أن تتمكن من استدعاء احتياطيينها، وحينها سيكون الأوان قد فات. خيم الفزع وإحساس بالخطر الحقيقي، والموت، والدمار بظلاله الثقيلة.

وصعق ميلتشان عندما سمع أن معلمه وزير الدفاع موشيه ديان في لحظة يأس وصف الموقف بأنه شفير تدمير الهيكل الثالث وأنه ينذر بنهاية دولة إسرائيل، إذ كانت خسائر إسرائيل غير مسبقة، قُدِّرَت بالآلاف في النهاية، وبدا هذا جلياً في خسائر قوات المدرعات والقوات الجوية:

وكردة فعل لهذا الموقف الرهيب، قامت رئيسة الوزراء جولدا مائير بتنشيط المرحلة الأولى من خيار شمشون. وتم تجهيز أسلحة إسرائيل النووية غير المعدة للاستخدام، وأخطرت مائير الرئيس نيكسون أنه إن استمرت القوات العربية في

التقدم بدون إعادة تزويد إسرائيل بالسلاح لتتمكن من الدفاع عن نفسها، لن يكون أمامها سوى اللجوء للخيار النووي لإيقاف هذا الهجوم. وبدون خيار شمشون وأولئك الذين جعلوه ممكناً، لم تكن إسرائيل لتنجو من كارثة ١٩٧٣ .

كانت الرسالة واضحة وصريحة لواشنطن، وتم تمريرها بسرية إلى الاتحاد السوفييتي، والذي أبلغ بها كلاً من مصر وسوريا، واللذين أمرا بدورهما بعدم تجاوز قواتهما لما وراء الخطوط الحمراء التي حددتها إسرائيل.

وأتاح التردد العربي - خاصة فوق هضبة الجولان - لإسرائيل الوقت لإعادة تعبئة قواتها الاحتياطية. وأمر الرئيس نيكسون بإعادة إمداد كامل للقوات الإسرائيلية بالرغم من اعتراض مستشاريه، بمن فيهم هنري كيسينجر وجيمس شليسينجر. ولم يقبل نيكسون ذلك الاعتراض وقال: دعوني أقلق بشأن السياسة.

سيكون رد الفعل واحداً سواء أرسلنا لهم ثلاث طائرات أو ثلاثمائة طائرة، أرسلوا إليهم أى شيء يمكنه الطيران.

وخلال أيام، كانت طائرات جالاكسى العملاقة، وهى أكبر ناقلات طائرات فى الأسطول الأمريكى، تغدو وتروح بلا توقف تقريباً على مطار بن جوريون، محملة بأنظمة الأسلحة والذخيرة، والتي أرسلت فى الحال إلى الجبهة.

وإذ تم إمدادها باحتياطي حديث ومعدات جديدة، بحيث غيرت إسرائيل وتيرة الحرب، وعبرت قناة السويس، وحاصرت الجيش الثالث المصرى، ووصلت حتى عمق ٦٢ ميلاً بالقرب من القاهرة. وفى الشمال استعادت القوات الإسرائيلية هضبة الجولان بأكملها وتعمقت حتى مشارف العاصمة السورية دمشق.

آنذاك هدد الاتحاد السوفييتى بالتدخل العسكرى نيابة عن حلفائه العرب. ورداً على ذلك، أمر الرئيس نيكسون بتشغيل نظام ديفكون ٣ لحماية الولايات المتحدة، ووضعت وحدات نووية فى ديفكون ٢، وهو أقصى مستوى للاستعداد ووصلته القوات النووية أثناء الحرب الباردة. وأخيراً، صدر قرار بوقف إطلاق النار فى ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

كانت حرب يوم الغفران عسيرة على إسرائيل، وكشفت عن ضعف رهيب فى دفاعاتها. وكانت الصواريخ الأكثر فاعلية بالنسبة للجانب العربى هى صواريخ إيه تى ٣ ساغر السوفييتية المضادة للدبابات، والتي ثبت أن مداها أطول من الدبابات الإسرائيلية وكانت فاعلة فى ردع العديد من الهجمات المضادة الإسرائيلية. وسحقت الصواريخ الأرض/ جو الحرارية القوات الجوية الإسرائيلية التى قيل يوماً بأنها لا تقهر، وحرمت قوات الميدان من الدعم الجوى المنخفض، والذى كانوا قد يعتبرونه من المسلمات.

وتم تبادل الاتهامات المضادة القاسية في أنحاء المجتمع الإسرائيلي عندما وصف الجنود العائنون كيف كان الجيش المصري أفضل إعداداً ومعدات، وكيف كانت قوات الدفاع الإسرائيلية غير جاهزة بالمرّة لتلك الهجمة، وفهم ميلتشان أن إعادة بناء الجيش الإسرائيلي غداً أمراً ضرورياً. وفي البنتاجون، تم اعتبار خسائر إسرائيل المبدئية فشلاً في أنظمة السلاح الغربية في مقابل التكنولوجيا السوفيتية، وعزمت الولايات المتحدة على ألا يتكرر هذا الموقف.

وفي أعقاب الحرب، بدأت حملة محمومة غير مسبوقة لشراء السلاح لتحديث الجيش الإسرائيلي وإعادة تجهيزه. ومع انتهاء عام ١٩٧٣ القاسي، كانت الولايات المتحدة قد مولت إسرائيل بـ ٩٧٢,٧ مليون دولار في هيئة قروض، و١,٥ مليار دولار كمنحة لا ترد لشراء معدات عسكرية من شركات أمريكية.

وكانت تلك بداية برنامج معونة عسكرية ضخمة مصمم لردع أعداء إسرائيل، ولضمان وتأمين التفوق العسكري الإسرائيلي التكنولوجي النوعي طويل الأمد في المنطقة، وغدت تلك سياسة أمريكية رسمية، ويخصص الكونجرس اعتمادات مالية سنوية لخدمة هذا الغرض.

وفجأة انهالت الأموال على إسرائيل أكثر من أي وقت مضى لشراء معدات الدفاع العسكري من نفس نوعية الشركات التي يمثلها ميلتشان، والذي وجد نفسه في محور جهود إعادة البناء بفضل هذه الظروف المؤسفة والتي أدت للحاجة لمثل تلك الأنظمة بداية.

وكان من أهم أولويات إسرائيل بعد الحرب تقوية قدراتها للدفاع الجوي. وكانت حتى ذلك الحين تعتمد في الأغلب على صواريخ هوك العتيقة. واستحدث ميلتشان نظاماً جديداً، وهو صاروخ إم أي إم ٧٢ شابرال أرض/جو.

وكانت شركة رايشيون تواقّة لأن يثبت صاروخ شابرال فاعليته في أرض المعركة، وأتاحت لها إسرائيل تلك الفرصة سريعاً. وبعد فترة وجيزة من استيعاب النظام، وفي ٤ مايو ١٩٧٤، أسقط صاروخ شابرال طائرة ميغ ١٧ كانت تحلق فوق هضبة الجولان.

ومجدداً كانت تلك أول عملية إصابة محققة لنظام أسلحة أمريكي، وعُدّ هذا دليلاً آخر لدور إسرائيل كميدان تجارب رائد للمعدات العسكرية الغربية المتطورة. وسر ميلتشان بذلك.

من أولويات إسرائيل الأخرى في أعقاب حرب يوم الغفران كانت الحاجة إلى إيجاد حل لرد الهجوم على الأرتال المدرعة سريعة التحرك في شبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان. وكان الحل هو مروحية كوبرا المضادة للدبابات والتي يمكن إرسالها خلال دقائق إلى مسرح العمليات.

وقُرت منصة الكوبرا مزيداً من العمل لميلتشان، لأن الصاورخ الأساسي الذي كانت تطلقه هو إيه آى إم ٩ سايدويندر، والذي تصنعه رايشيون. وكان كل صاروخ يتم إطلاقه يحتاج إلى بديل عنه.

وبالرغم من أن ميلتشان كان يصب تركيزه على المنصات والأسلحة الفضائية باهظة الثمن وعالية التقنية، التي تناسب القوات الميدانية الإسرائيلية. كان صاروخ ساغر السوفييتي نداء صيحة مميتة للقوات المدرعة الإسرائيلية أثناء حرب يوم الغفران، حيث أصاب كل الدبابات الإسرائيلية التي أطلق عليها تقريباً. ولم يكن له مثيل في الترسانة الإسرائيلية ولم يكن هناك دفاع جاد ضده. وكان الرد هو صاروخ بى جى إم ٧١ الموجه المضاد للدبابات والذي أنتجته شركة رايشيون والذي أسموه تى أو دبليو، ويرمز لأنبوب الإطلاق نى التعقب البصرى، ووصلة البيانات السلكية.

وحتى يومنا هذا يعد صاروخ تى أو دبليو أكثر صواريخ موجه مضاد للدبابات يستخدم فى العالم، وتكلفته ١٨٠ ألف دولار للصاروخ الواحد. وسرعان ما أصبح السلاح الرئيسى فى نظام سلاح إسرائيل المضاد للدبابات، وشكلت ألوية المشاة فصائل الـ«تى أو دبليو» وأسمتها أوريف، ولُقبوا باسم صائى الدبابات.

وفى عام ١٩٨٢، استخدمت إسرائيل صواريخ تى أو دبليو بشكل مدمر ضد القوات السورية فى لبنان، فى معركة شهيرة على المنحدرات الشرقية لجبل باروخ، إذ دمرت وحدة تى أو دبليو إسرائيلية مضادة للدبابات تعلى سيارة جيب عشر دبابات سورية طراز تى ٧٢ فى ظرف دقائق بدون أية خسائر إسرائيلية. ومجدداً كان كل صاروخ تم إطلاقه يحتاج لبديل عنه عبر شركة ميلتشان بروس.

ومن الصواريخ الأخرى التى قدمها ميلتشان إلى جيش الدفاع الإسرائيلى كان صاروخ إم ٤٧ دراغون من إنتاج شركة رايتيون. وكان نظام أسلحة أرضياً مضاداً للدبابات موجهاً سلكياً، ويطلق بالتوجيه من أعلى الكنف، وله القدرة على هزيمة المركبات المدرعة، والخنادق المحصنة، ومخابئ الأسلحة الخرسانية، وأهداف أخرى منيعة.

بهذا، شكلت كل كتيبة مشاة إسرائيلية فرقة دراغون. وبلغت كلفة الصاروخ حوالى ١٢ ألف دولار، لكن كانت كلفة الصواريخ ذات أنظمة الهجوم الليلية ٥١ ألف دولار عن كل صاروخ. وكالمعتاد، كان كل صاروخ يتم إطلاقه فى التدريبات أو فى المعركة يستبدل من شركة ميلتشان بروس.

كان يتم تحديث كل الأنظمة التى يمكن تخيلها فى جيش الدفاع الإسرائيلى، على الأرض، أو فى البحر، وفى الجو، بواسطة شركات ميلتشان بتكنولوجيا جديدة. وعبر تلك العملية، تطور جيش الدفاع ليصبح من أهم القوات المقاتلة العصرية على هذا الكوكب. كانت أحدث معدات الرؤية الليلية، وأحدث القنابل الذكية والصواريخ

الموجهة، وأحدث الرادارات وأنظمة إلكترونيات الطيران، والتي لا يزال معظمها بالغ السرية حتى يومنا هذا، تندفق كالأنهار إلى إسرائيل عبر شركات ميلتشان.

مولت العمولات المستحقة من تحديث ما بعد ١٩٧٣ وإعادة الإمداد حسابات إسرائيل السرية التي كان ميلتشان يخفيها بشركات واجهة، وبتزايد الربح، تزايدت قدرات إسرائيل الاستخباراتية عالمياً.

وبتوسعه في صفقات الدفاع العسكري، فهم أرنون أنه لكي تستمر شركته في الماضي قدماً على طريق النجاح والنفوذ، وممارسة العمل المريح، كان في حاجة لتعيين جنرال متقاعد من جيش الدفاع الإسرائيلي. وكان الشخص الذي وجده هو الجنرال ذا السادسة والأربعين عاماً شلومو لاهات الملقب بشييتش. وكما تبين، فقد كان خياره محل ترحيب بأكثر مما تصور.

بعد شهر محدود فقط من الانضمام للشركة، دعا ميلتشان لاهات لحضور مباراة لكرة السلة للمحترفين في النوري الأوروبي في تل أبيب. وعندما دخل الملعب في طريقهما إلى مقصورة الشخصيات الهامة، تلقى لاهات تصفيقاً حاداً من الجمهور. إذ إن الإسرائيليين يحبون أبطالهم.

وفي تلك اللحظة التفت ميلتشان إلى الجنرال لاهات واقترح على سبيل المزاح أن يرشح نفسه في منصب العمدة. وراقته الفكرة، وخلال شهر، دخل لاهات المعترك الانتخابي بعدما وعده ميلتشان بأن منصبه محفوظ في حال خسارته الانتخابات. ووافق ميلتشان أيضاً على تصميم استراتيجية حملته ودعمها مالياً. وفي فبراير عام ١٩٧٤ لم يفز لاهات بالانتخابات فحسب، بل وظل عمدة المدينة المحبوب لحوالي ٢٠ عاماً. وأثمرت جهود ميلتشان في عالم السياسة للمرة الثانية.

أدى ظهور مطلب ملح إضافي إلى استعجال تطور برنامج الأسلحة

الإسرائيلي غير التقليدي. لم يكن هناك ما يتوجب إخفاؤه، في أغسطس عام ١٩٧٤، وفي ذات الوقت تقريباً الذي أجبر فيه الرئيس الأمريكي نيكسون على الاستقالة وتولى السلطة نائب الرئيس جيرالد فورد، أصدر رئيس الاستخبارات الأمريكية سى آى إيه تقريراً يؤكد فيه أن إسرائيل لا تمتلك أسلحة نووية فحسب، بل وتعد موزعاً نشطاً للتكنولوجيا النووية إلى أصدقائها وحلفائها، مثل إيران وجنوب إفريقيا. جاء بمذكرة كولبي والتي كان عنوانها «تقييم استخباراتي خاص: مخاطر الانتشار النووي» وكان بالغ السرية، جاء به ما يلي:

تساعد إسرائيل بنشاط عدداً من الدول لتطوير تكنولوجيا الأسلحة النووية، وفي حالة معينة تفعل ذلك في مقابل الحصول على اليورانيوم من أجل برنامجها النووي الخاص. وفي كل أنحاء إسرائيل تتواجد العديد من منشآت التصنيع مخصصة بشكل حصري تقريباً لتطوير صاروخ قادر على توصيل الرؤوس النووية. تم إجراء تحسينات في إسرائيل على تصميمات الصاروخ الأصلية والتي تحصلوا عليها من فرنسا. ويشمل تقييمنا معرفة بصفقات حصول إسرائيل على كميات ضخمة من اليورانيوم، وبرنامجها المستمر لتخصيب اليورانيوم، وبرنامجها لتطوير أنظمة توصيل الأسلحة النووية. ولا نتوقع أن تستخدم إسرائيل الأسلحة النووية إلا إذ غدا وجودها في خطر. وبدون أدنى شك، فستسمر إسرائيل في تطوير تلك القدرات وتحسينها بصواريخ باليستية ذات مدى أطول، وبأنظمة خاصة بالطيران، وبمجموعة أشمل من الإمكانيات النووية.

عندما تلقى ريتشارد كيلي سميث أول قائمة أغراض من ميلتشان، فهم سريعاً ما كانت تركز عليه إسرائيل آنذاك. كانوا يربون مكونات الصواريخ ذات الوقود الصلب، وأرادوا الحصول على تعليمات التصنيع وأى شيء آخر يمكن أن تطاله أيديهم.

كان من مزايا الصواريخ ذات الوقود الصلب أنها من الممكن تزويدها بالوقود مسبقاً لفترات طويلة، ويمكن إخراجها من مخبئها وإطلاقها في الحال، قبل أن تُرصد وقبل أن تتخذ أي إجراءات مضادة.

لكن من ناحية أخرى فإن الصواريخ ذات الوقود السائل، تتطلب عملية تزويد بالوقود بطيئة على منصة الإطلاق قبل الإطلاق مباشرة، وهي عملية مستهلكة للوقت يمكن أن تكشف عملية الإطلاق مبكراً لتتخذ الإجراءات المضادة.

وفي النهاية، فالوقود الصلب نفسه أكثر أماناً وأسهل في التعامل معه عن الوقود السائل.

كانت صواريخ جيريكو الإسرائيلية ذات الرؤوس النووية صلبة الوقود يمكن إطلاقها في الحال إن لزم الأمر، وكان تطويرها وتحسينها يتم باستمرار. وتم تكليف كل من ميلتشان وسميث وشركة ميلكو بإمداد مشروع صاروخ جيريكو ٢ ذي تكلفة المليار دولار بالمواد اللازمة، ولعبا دوراً حيوياً في الحصول على مكوناته بالغة الأهمية.

من أكثر الفترات غموضاً في علاقة ميلتشان بسميث كانت تلك التي تلت استقالة سميث من شركة روكويل، بحجة التركيز الكلى على شركة ميلكو. وبدلاً من ذلك، قبل سميث فجأة وظيفة لفترة وجيزة، ما بين فبراير ويونيو عام ١٩٧٤، مع مؤسسة مارتن مايبيرتا في الجانب الآخر من البلاد في أورلاندو، فلوريدا، وترك أسرته في كاليفورنيا.

ومارتن مايبيرتا هو مصمم ومصنّع نظام بيرشينغ للصواريخ النووية، وهو أول صاروخ باليستي نووي دافع متوسط المدى يستخدمه الجيش الأمريكي. سعت إسرائيل لشراء صاروخ بيرشينغ الجاهز من الولايات المتحدة كجزء من اتفاق وقف

إطلاق النار في حرب يوم الغفران، لكن الولايات المتحدة لم توافق.

وبعد بضعة أعوام، وفي ٢٤ سبتمبر عام ١٩٧٥، واجه وزير الخارجية السوفيتي أندريه غروميكو وزير الخارجية الإسرائيلي بيغال عالون في اجتماع في الأمم المتحدة، وسأله عن سبب شعور إسرائيل باحتياجها للصواريخ متوسطة المدى. وكان عالون دبلوماسياً فلم يعط غروميكو إجابة مباشرة، والتي كان من المرجح أن تكون من أجل أن تستهدف موسكو لأهداف ردعية.

كان صاروخ بيرشينغ قد ظل في الخدمة بأمريكا لحوالي ٣٠ عاماً وتم تحديثه عدة مرات. وفي عام ١٩٧٤ عندما هرع سميث ليقبل الوظيفة في شركة مارتن مايرتا، كانت الشركة تطور صاروخ بيرشينغ ٢، وهو أكثر تطوراً من ناحية المدى والدقة عن صاروخ بيرشينغ ١. وسواء حدث ذلك بالصدفة أم لا، وبعد فترة وجيزة من فترة عمل سميث القصيرة الغامضة في شركة مارتن مايرتا، بدأت إسرائيل فجأة تخطو خطى واسعة في تطوير برنامج صاروخ جيريكو ٢ مستخدمة تقنية مشابهة بشكل مثير للدهشة لتقنية صاروخ جيريكو ٢.

والشيء اللافت أيضاً أنه لدى عودته إلى كاليفورنيا عقب فترة عمله القصيرة مع شركة مارتن مايرتا، أصبح لدى سميث فجأة الاعتمادات المالية اللازمة لنقل عمليات شركة ميلكو من منزله إلى مكاتب جديدة في هانتجتون بيتش، كاليفورنيا، والتي تلقب بسرف سیتی أو مدينة التزلج على الماء. ومن الواضح، أن فترة عمل سميث في مارتن مايرتا كانت مثمرة للغاية بالنسبة له، وليلكو، وإسرائيل. واجتاز سميث اختباره العصيب.

سمع ميلتشان لأول مرة بالكرايترون أثناء جولته في مفاعل ديمونة النووي. والكرايترون عبارة عن أنابيب من الكاثود البارد معبأة بالغاز وهي رخيصة وبريئة

الشكل تستخدم كمفاتيح فائقة السرعة. يمكن استخدام الكرايترون لتشغيل مصابيح الفلاش الضخمة في آلات تصوير الأوراق، والليزر، وأضواء الهبوط في المطارات، والأجهزة العلمية في العديد من المجالات من بينها المعدات الطبية. وحقيقة أن هذا الجهاز الصغير هو أكثر مفتاح تشغيل للقبلة النووية فاعلية كانت من الأسرار المحكمة. وكانت هناك شركة وحيدة في الولايات المتحدة تصنع هذا الجهاز، وهي إى جى أند جى فى ماستشوستس، وهي مؤسسة معنية بأكثر التكنولوجيات الحساسة لدى الحكومة الأمريكية. وكانت عمليات بيع الكرايترون وتوزيعها تراقب بعناية، خاصة في أسواق الصادرات.

وفي صيف ١٩٧٥، أرسلت إسرائيل عبر ديبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان طلباً إلى سميث لشراء ٤٠٠ مفتاح كرايترون. وفي طلب الشراء والمعتاد، وضعت ديبورا اسم القطعة المطلوبة، والغرض من استخدامها، «مجسات استشعار المعدات عن بعد»، ووضعت اسم المستخدم النهائي وهو شركة رحو فوت إنسترومينتس ليميتد.

وتوصل سميث للمصنع، واشتراها بسعر ٧٥ دولار للوحدة، وتأكد من صحة متطلبات الترخيص الضرورية، وكان المطلوب في تلك الحالة هو ترخيص تصدير ذخائر من وزارة الخارجية الأمريكية. وكان قد أمن مثل تلك الرخص مرات عديدة في الماضي. وفي ٢٠ أكتوبر عام ١٩٧٥ قدم لوزارة الخارجية الأمريكية طلباً باستصدار ترخيص ذخائر تقليدى لجلب الكرايترون. وبعد بضعة أيام، قدمت السفارة الأمريكية في تل أبيب تحذيراً لوزارة الدفاع الإسرائيلية بخصوص محاولة شراء مفاتيح كرايترون.

ويزعم سميث أنه لم يكن على دراية بالرفض أو التحذير لإسرائيل بخصوص

هذا الشأن، حتى تلقى مكاملة من ديبورا لإلغاء الطلب. ولم يفكر سميث في الأمر كثيراً ومضى في عمله.

لكن الكرايترون ظل مكوناً مصيرياً لبرنامج السلاح النووي الإسرائيلي يجب اللجوء لبعض المحاولات الخطيرة لجلبه. وبطريقة ما، وخلف الكواليس، أجريت تحقيقات دبلوماسية أمريكية من قبل وزارة الخارجية ووزارة التجارة، ودفع الإسرائيليون بأنهم يحتاجون الكرايترون لأجل قائمة طويلة من الأغراض المدنية. وما أن حققوا تقدماً لدى واشنطن، أشاروا لبلومبيرغ بأن عليه إعادة المحاولة. وفي مارس ١٩٧٦، أضاف بلومبيرغ الكرايترون إلى قائمة المشتريات.

وقدم سميث طلباً لترخيص تصدير ذخائر لوزارة الخارجية مجدداً، ومجدداً تم رفض الطلب. وتم إلغاء الطلب. لكن في تلك المرة رصدت السي أي إيه أنشطة ريتشارد كيلي سميث.

وقررت إسرائيل أن تغض الطرف عن أمر الكرايترون لفترة طويلة. وكان سميث قد نجح في الوفاء بعدة طلبات حساسة ولم يكن هناك جدوى من تعريض العميل لمزيد من المخاطر، على الأقل للفترة تلك. وبالنسبة لسميث، فقد كانت علاقته بميلتشان تمثل له كل شيء. فما يتجاوز ٨٠٪ من إجمالي مشاريع شركة ميلكو كانت تتم عبر شركة ميلتشان بروس. وشركات تابعة مثل هيلي تريدينغ لميتد. وبالرغم من أن ميلكو كانت على الورق شركة متواضعة مكافحة، إلا أن سميث كان قد تعلم بعضاً من حيل المهنة، ومنها أن إظهار الأرباح، ليس مكسباً بالضرورة لكن من الأفضل بكثير أن تُظهر كثيراً من النفقات.

وكان سميث قد تملك منزلاً على الشاطئ في هانتجتون بيتش وشقة في كتالينا أيلاند. وانضم إلى نادي اليخت المحلي، وبحلول عام ١٩٧٧ وصل لدرجة

عضوية رئاسة نادى اليخوت. واشترى أيضاً مزرعة مساحتها ١٥٠ فداناً فى أوكلاموما من والده. واستمتع بطيب الحياة.

وفى النهاية استقالت زوجته إيميلى من عملها كمعلمة وانضمت لشركة ميلكو كمديرة مكتب، وكانت مسئوليتها الأولى التواصل مع ديبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان. وتطورت بينهما علاقة صداقة دافئة بمرور الوقت. وكان سميث يسافر فى رحلات متقطعة إلى إسرائيل للاطلاع والاستشارات وأحياناً كان يصطحب إيميلى أو أحد أبنائه معه للاستمتاع بالمرح وبالشمس، فيما يجتمع هو بميلتشان وبيلوبيرغ نفسه.

وكما شهدت ديبورا لاحقاً حيث قالت «إن الدكتور سميث، وزوجته، وأبناءه، أصبحوا أصدقاء مقربين لزوجى ولى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وفى لوس أنجلوس عندما ذهبنا لحضور زفاف ابنته. وأشعر أننى أعرف الدكتور سميث بشكل جيد نتيجة لسنوات عديدة من العلاقة الحميمة».

وبمرور السنين، قام سميث أيضاً بتعيين ثلاثة من أبنائه فى شركة ميلكو، فى قسم الحسابات وفى قسم تكنولوجيا المعلومات لحواشيب المكاتب. وحاز أحد أبنائه على ميدالية أوليمبية فى الإبحار، وعملت ابنته بعدما أنهت الجامعة فى مدريد، إسبانيا، كمذيعة فى يونيفيجن، أكبر قناة متحدثة بالإسبانية فى الولايات المتحدة، والتى يمتلكها حاييم صبان صديق ميلتشان.

كانت عمليات سميث فى أغلبها ناجحة، لكن جهوده لتوقيع عقود استشارية مع الناتو وكالة ناسا، والبنجابون كانت مخيبة للآمال وغير مثمرة. وتمكن من توقيع عقود صغيرة قليلة لا تزيد قيمتها عن ٢٥ ألف دولار للعقد. ومن المحتمل أنه كان قد تم إدراج سميث فى القوائم السوداء بسبب واقعة الكرايترون فى عام ١٩٧٥، على

الرغم من أن تصريحه الأمنى لم يتغير.

وفى جهوده لتوسيع مجال شركته، بدأ سميث يعرض أغراض دفاع عسكريه إسرائيلية الصنع على الحكومة الأمريكية والشركات الخاصة، ولهذا الغرض طبع كتيبات فاخرة تروج لقائمة طويلة من المنتجات الإسرائيلية المتعلقة بالدفاع العسكرى. والتى استوردها من إسرائيل إلى الولايات المتحدة من دون عملية استخراج الرخص المُنصية. ولم تكن تلك العمليات بديلاً عن تدفق الطلبات المنتظمة الحساسة لميلتشان من الولايات المتحدة. وعلى أية حال، لم نسمع عن صفقات تصدير إسرائيلية عُقدت عبر شركة ميلكو.

واستمرت طلبات ميلتشان للمواد الحساسة تتوالى، وببطء، ويمرور الوقت، عرفت شركة ميلكو كعميل شراء أساسى للاحتياجات العسكرية الإسرائيلية فى معظم الجهات التى كان منوطاً بها المعرفة فى وزارة الخارجية، والسى أى إيه، والبنجابون، ووزارة التجارة. ولم يكن هذا غير متوقع بالمرة من جانب ميلتشان. فبعد كل شىء، كانت الفكرة هى العمل بشكل واضح للعيان، والمجازفة المحسوبة، وفى الأغلب بالتنسيق مع الولايات المتحدة. لكنه لم يكن سعيداً بالشهرة التى نالتها الشركة، وأصبح أكثر قلقاً من اسم الشركة، والذى كان يشير بشكل مباشر له. فبعد كل شىء، كانت فكرته عن الشهرة، هى ألا توجد على الإطلاق.

لم يتخيل ميلتشان ولا سميث أهمية طلبية الكرايترون الصغير الرخيص فى حياتيهما.

وإذ انغمس أرنون فى شبكة متنامية من المشاريع والأنشطة غير التقليدية، وصلت علاقته بزوجه لنهاية الطريق. ولم يحقق الانتقال إلى فرنسا الهدف المنشود، ولم يَعد الحب الأصلى بينهما، واتخذوا قرار الطلاق.

وخلال أشهر، دخلت امرأة سويدية جديدة «أولريكا» حياته، وأثناء أول ليلة لهما معاً، تفاجأ أرنون عندما عرف أنها من نفس مدينة «أولا» وأنها تقيم في الشارع ذاته الذي تقيم فيه وهو شارع جوتنبيرج، وأنهما لا تعرفان بعضهما، وتعجب أرنون لذلك بشدة.

واشتري شقة مريحة لبريجيت وللأولاد في قلب باريس، على بعد مسافة قصيرة من برج إيفل، واشتري شقة لنفسه على مقربة منهم. ثم قضى الكثير من وقته في باريس ليكون قريباً من أبنائه، وزاول جميع أعماله من هناك بينما كان يسافر بشكل متكرر إلى إسرائيل، والولايات المتحدة وإيران، وإلى وجهات عمل أخرى. وكانت إحدى تلك الوجهات لاس فيجاس، حيث أصبح مقامراً محترفاً، لدرجة أن فندق سيزار بالاس كان أحياناً يبعث له بطائرة خاصة لتقله وحاشيته لقضاء العطلات الأسبوعية في المراهات المرتفعة والاستمتاع بوقتهم. وذات مرة، أعطى فيشات البوكر المتبقية منه، والتي وصلت قيمتها لـ ٢٠٠ ألف دولار لشخص مجهول، وهو خبير تنمية إسرائيلي ويدعى ماشير تيبير، وكان قد تعرف عليه قبل ذلك ببضع ساعات، وأخبرنا تيبير قائلاً: «لزمته بجوار مائدة البوكر حتى وافق على الاستثمار في مشروع خاص بي. أظن أنه أعطاني المال لكي يتخلص مني فحسب».

واستثمر تيبير المال في محل للملابس وأسماء تيد لابيديوس في فندق سيزار بالاس. ثم تلقى ميلتشان بعد ستة أشهر شيكاً قيمته ٦٠٠ ألف دولار حصته في تلك الشراكة، والتي كان ميلتشان قد نسيها. وكان هذا التصرف هو الذي دعم صداقتهما والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

مهام الشيطان

سأناضل بقية حياتي ضد العنصرية والتمييز العرقي

أرنون ميلتشان لجريدة لوس أنجلوس تايمز في ٢٨ فبراير ١٩٩٢

في يونيو ١٩٧٥، دعى أرنون ميلتشان من قبل صديقه شمعون بيريز، والذي كان آنذاك وزير الدفاع في حكومة رئيس الوزراء إسحاق رابين، إلى أحد أغرب الاجتماعات في حياته. وطلب منه أن يشترك في مخطط مغر، بزعم مساعدة بلده، وأنه إن جرى هذا المخطط، فسيتاح له عالم جديد كامل من الفوائد المحتملة.

عقب حرب يوم الغفران، قطعت خمس وعشرون دولة إفريقية علاقاتها الدبلوماسية بإسرائيل. وحتى ذلك الحين، كانت إسرائيل تربطها علاقات جيدة عبر قارة إفريقيا، وكانت تقدم التدريب والمعونة إلى العديد من الدول النامية، وكانت تحصل على المواد الخام فى المقابل. لم يحمل المستشارون الإسرائيليون، الذين كانوا ينتشرون عبر قارة إفريقيا، الطابع الاستعماري مثل أقرانهم من فرنسا وإنجلترا. وانبهر الأفارقة حقاً بقيم المساواة التي يبديها الإسرائيليون، والذين كانوا لا يمانعون مشاركة العمل الشاق مع الأفارقة.

وأبقت إسرائيل على علاقاتها بدولة جنوب إفريقيا سرية وذلك لتجنب إهانة الدول الإفريقية الصديقة ذات الأغلبية السوداء وكانت هناك معارضة أصيلة داخل إسرائيل لفلسفة الفصل العرقي. وكانت الدولتان لا تربطهما حتى علاقات دبلوماسية كاملة على صعيد السفراء، لكن أياً من هذا لم يكن كافياً بالنسبة للدول

الإفريقية لتجاوز الضغوط العربية، وما صاحبها من دولارات نفطية، لقطع العلاقات مع الدولة اليهودية عقب حرب يوم الغفران. واكتمل الانعزال الإسرائيلي عن إفريقيا مع نهاية عام ١٩٧٣ تقريباً.

وكان الموقف بالنسبة لجنوب إفريقيا بائساً بنفس القدر، وتصاعدت المشاعر المناهضة للعنصرية حول العالم واندلعت أعمال العنف في البلاد. وبحلول ٣٠ نوفمبر عام ١٩٧٣، أعلنت الأمم المتحدة أن الفصل العرقي يعد جريمة ضد الإنسانية، وتبع ذلك المقاطعات الاقتصادية وحظر الأسلحة. بل إن رياضى جنوب إفريقيا حرموا من الاشتراك فى المسابقات الدولية. ووصلت العزلة الدولية لجنوب إفريقيا مستويات غير مسبوقة وكانت تشارف على ما هو أسوأ.

وعلى النقيض من التخلي الإفريقى عن إسرائيل فى أول اختبار حقيقى

لعلاقاتهم، هبت جنوب إفريقيا للعون فى ساعة يأسها عام ١٩٧٣، بالرغم من أن الدولتين لم تكن تربطهما علاقات دبلوماسية كاملة. بحث وزير الدفاع بى دبليو بوثا -والذى أصبح رئيس الجمهورية لاحقاً- عن أية وسيلة ممكنة لتقديم الدعم المعنوى وحتى المادى لها. هرع أكثر من ١٥ ألف جنوب إفريقى معظمهم من اليهود للقتال فى صفوف إسرائيل، وقدمت حكومة جنوب إفريقيا أكثر من ٢٠ مليون دولار كمعونة لإسرائيل.

وعقب الحرب، أطبقت الحقيقة القاسية للانعزال الدولى على كلا البلدين، وعلى سبيل الحفاظ على بقائهما كان من الحتمى أن تتعاون الدولتان معاً.

وفى يونيو عام ١٩٧٥، نظم أوسكار هوريتز وهو رجل أعمال جنوب إفريقى بارز ومهندس معمارى، وعميل سرى فى المجتمع الاستخباراتى جنوب الإفريقى، اجتماعاً الهدف الرئيسى منه بناء علاقة جديدة بدولة إسرائيل.

ووصل الوفد جنوب الإفريقى محفوفاً بسرية بالغة. وكان على رأس الوفد وزير الداخلية الدكتور كونى مولدر، والذى كان نجماً صاعداً فى النشاط السياسى فى جنوب إفريقيا، وبدا وريثاً محتملاً لرئيس الوزراء جون فوستر، وصاحبه الجنرال هنريك فان دين بيرغ، رئيس هيئة الأمن القومى فى جنوب إفريقيا، ووزير المعلومات المستقل إسثيل رودى. وتجاهلت المهمة وزير الخارجية، والذى اعتبروه كسولاً وبيروقراطياً وغير فاعل.

وكانت المهمة هى وضع أسس اجتماع لم يكن ليخطر على بال فى السابق، بين رئيس الوزراء جون فوستر ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين.

وتناقشوا بصراحة بشأن مأزق جنوب إفريقيا الصعب وكشفوا عن خطة خمسية بالغة السرية، وافق عليها رئيس الوزراء فوستر، ليحاول التأثير على رأى

العام العالمى ليؤيد النظام العنصرى لجنوب إفريقيا، ويطلب المشاركة الإسرائيلية فى دور استشارى.

طلبوا على وجه التحديد من بيريز ورايين تسمية شخص للانضمام لمجموعة سرية تدعى نادى العشرة. تتكون من عشرة أشخاص فاعلين من عشر دول مختلفة، ويفعلون كل ما بوسعهم لإيقاف الحظر والمقاطعة، وتحسين صورة جنوب إفريقيا بواسطة شراء القنوات الإعلامية أو التأثير فيها.

وأختير هؤلاء العشرة بعناية وفقاً لجشعهم، وعلاقاتهم، وحماسهم، وكفاءتهم، وقدرتهم الفائقة على إنجاز الأمور، على أن يعملوا فى تعاون سرى مباشرة مع وزارة المعلومات التى يرأسها إسشيل روى. وكان إسشيل قد أسس شركة واجهة بالفعل وأسماءها "ثورة للاتصالات" لتنسيق أنشطتهم وتمويلها، شملت تلك الأنشطة التخطيط للعملية ديفيد والإشراف عليها، واحتوت كل شىء بدءاً من التبادل الثقافى الرياضى بين جنوب إفريقيا وإسرائيل إلى صفقات الدفاع العسكرى السرية والتعاون النووى.

وتم تصميم المشروع برمته كحرب نفسية مكتملة التمويل لا تطبق عليها أية رقابة حكومية أو قواعد، مع الالتزام بأن تكون الأعمال الورقية بأقل قدر ممكن وتدمير أى شىء غير ضرورى مع تفضيل العمل بدون أوراق. كان هذا ما قاله رئيس الوزراء فوستر لإسشيل روى، والذي اختاره للإشراف على العملية برمتها.

وتم تمويل المؤسسة السرية بمئات الملايين من الدولارات الأمريكية.

وكما فى حالة الإسرائيليين، فقد تم تمويل المشروع السرى الطموح بشكل غير رسمى، وبدون موافقة البرلمان. وكانت التمويلات تأتى من احتياطى الذهب الضخم لجنوب إفريقيا فى لندن، وتم نقل شحنة ضخمة من القضبان الذهبية فى ظل تأمين

مكثف من لندن إلى خزينة مصرفية في زيوريخ، ويعكس بريطانيا، فقد كانت قوانين السرية المصرفية السويسرية آنذاك مناسبة أكثر لخدمة أهداف جنوب إفريقيا السرية.

وفي مقابل المساعدة الإسرائيلية في مجال التكنولوجيا العسكرية والعلاقات العامة التي تدار بشكل سري، كانت جنوب إفريقيا مستعدة لخلق عالم كامل من الاحتمالات فيما يخص عقود الدفاع العسكري والوصول لمواردها الطبيعية الكثيرة، وخاصة اليورانيوم. وكان لابد من اختيار رجل طليعة من إسرائيل، لينضم إلى نادي العشرة. وكان لهذا الشخص أن يبرم عقوداً وصفقات مربحة محتملة أخرى في خطوط الأنابيب.

وعقب الاجتماع فكر كل من رئيس الوزراء رابين وشمعون بيريز في الأمر بعناية، ليقِيما المخاطر والمكاسب المحتملة. وبما أن علاقات الدولة العنصرية مع معظم الدول الإفريقية كانت متفسخة، كانت الحاجة للحفاظ على سرية علاقة إسرائيل مع جنوب إفريقيا. وأنداك طلب وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر أن تكون إسرائيل وكيلته في دعم معركة جنوب إفريقيا ضد القوات الشيوعية في أنجولا.

بعد أن تجرعت إسرائيل مرارة حرب يوم الغفران وغدت على مشارف الدمار الكامل، كان الاتجاه السائد في إسرائيل هو أن يوضع بقاؤها في الاعتبار قبل أي شيء آخر. وكانت جنوب إفريقيا تمثل سوقاً كبيراً وغنياً لمبيعات الأسلحة الإسرائيلية والحفاظ بذلك على استمرار صناعات المعدات العسكرية المحلية. والأهم من ذلك، كانت إمكانية توفير مصدر إمداد ثابت لليورانيوم ومواقع الاختبار النووي هي الأكثر إغراء.

وعلى الرغم من أن الفصل العنصرى كان فلسفة مكروهة ومرفوضة، وأن رئيس وزراء جنوب إفريقيا جون فوستر، سجن فى شبابه لاتهامه بالتعاطف مع النازية، وعلى الرغم أيضاً من حظر السلاح الذى فرضته الأمم المتحدة على جنوب إفريقيا منذ ٧ أغسطس ١٩٦٣، كانت كلها حقائق مقلقة، لكنها لم تطغ على المكاسب المحتملة لتحالف استراتيجى سرى بين البلدين.

أقنع بيريز رايبين بأن الخيار المتاح كان خياراً بين بديلين موصومين، وأن حركة جنوب إفريقيا السوداء تدعم عرفات والاتحاد السوفىيتى، وتقف ضد إسرائيل. وأضاف قائلاً: لكننا لن نكف أبداً عن شجب العنصرية، ولن نوافق عليها أبداً.

قرر كل من بيريز ورايبين المصادقة على خطة مولدر ورودى، ووقع اختيارهما بالفعل على شخص نشط يجيد كتمان الأسرار، ويعمل فى الخفاء، ولا يخاف الخطر ويكره التورط فى شىء. وكان هذا الرجل هو ميلتشان، وتحرك بيريز فى الحال لتنظيم الاجتماع.

وعندما وصل ميلتشان قويل بتحيات حارة من بيريز، الذى قدمه لمولدر، والجنرال فان دين بيرج، ورودى. كان ديفيد كيمشى، وهو عميل بارز فى الموساد ومتخصص فى الشأن الإفريقى، حاضراً أيضاً، ولم تكن هناك حاجة للمقدمات، وتبادلوا كلهم التحيات وجلسوا لإجراء حديث هادئ.

وبدا بيريز الحديث بأن أخبر الضيوف بأن ميلتشان رجل أعمال مستقل، تثق فيه الحكومة الإسرائيلية، ويمتلك شركة للأسمدة والمواد الكيماوية. وشرح أنه قام بإتمام العديد من المشاريع الهامة الإسرائيلية الأمريكية المشتركة فى إيران، وأنه يتولى توفير نسبة كبيرة من مشتريات الدفاع العسكرى

الإسرائيلية، وأنه طموح للغاية.

وتفاجأ كل من مولدر ورودي عندما رأيا أن ميلتشان لا يزال في الثلاثين من عمره. وبدأ رودي يمطر ميلتشان بالأسئلة عن أرائه في جنوب إفريقيا والعالم بشكل عام. وسرعان ما نجح ميلتشان في جعل ثلاثي جنوب إفريقيا يتخلون عن حذرهم بسحره المميز، وذكائه، ومعرفته المدهشة بشئون العالم، وحماسه الشبابية. وكمعظم من قابلوه، أعجبوا كلهم به في الحال.

كان الشعور متبادلاً. وبالرغم من أن إسشيل رودي كان في الأربعينيات، لكن سرعان ما اكتشف الرجلان أن طباعهما متشابهة، إذ إن كليهما كان رياضياً وشغوفاً بالتنس، وكان لهما أن يلتقيا في ملاعب التنس لسنوات عدة، وكان كلاهما يقدر الحياة المترفة، والنبذ الفاخر، والأطعمة الراقية، والنساء، والقمار. وكلاهما كان جامع الخيال وذا نزعة للمجازفة في أى شيء يفعلانه.

دعا رودي ميلتشان إلى جنوب إفريقيا لتعزيز صداقتهما، ومن هنا بدأت مغامرة ميلتشان الرائعة في جنوب إفريقيا، والتي أحيط معظمها بالسرية، لكن ما عرف عن أنشطته هناك يكفي ليجعلنا نستنتج بكل ثقة، أنها كانت عميقة، وسرية، وعالية الريح، ومثيرة للجدل.

لم يكن ميلتشان محباً يوماً للفصل العنصرى على المستوى الفكرى. قال فيما بعد بصوت متألم: فقط لو كنت أعرف، كنت شاباً، جاهلاً، وساذجاً، وظننت أن وجودى هناك ممتع. وبدأت مشاركته، بمعرفة من حكومته من أجل المصلحة العليا لبلده، وعلى سبيل الوطنية، ويمكن تقسيم أنشطته إلى ثلاث فئات رئيسية: شراء معدات الدفاع العسكرى، وحرب الدعاية، والتعاون النووى.

عندما وصل ميلتشان لجنوب إفريقيا لأول مرة، فوجئ بأنه تم استقباله وكأنه

رئيس دولة. «قابلنى إسشيل رودى بحفاوة بالغة، ولم يكن فى وسعى إلا أن أنبهر بذلك». رأى أفارقة سعداء يرقصون على دقات الطبول المحلية، وقدم له الأطفال الصفار الهدايا التراثية، بدا الأمر مثالياً، وعلى النقيض تماماً من حقائق الفصل العنصرى.

وبعد الرسمية، تم اصطحاب ميلتشان إلى فندق فخم فى جوهانسبيرج، وعلى العشاء، قدم إليه رودى شيئاً ليتفحصه. وكان ذلك هو جواز ميلتشان جنوب الإفريقى الجديد، وكانت تلك هى طريقة رودى ليخبر ميلتشان بأنه صار واحداً منهم.

وعلى العشاء أطلعته رودى على خطة العمل. كانت مهمتهم هى التعرف على صناع الرأى العام فى الإعلام الغربى والقنوات الترفيهية، مثل الصحفيين، والرموز الثقافية، والسياسيين، وإستهدافهم بغرض تجنيدهم بدهاء لخدمة القضية جنوب الإفريقية [العنصرية] بواسطة الإقناع الرقيق، والرشاوى، وحتى شراء الأهداف المسيطرة فى جل القنوات الإعلامية إن لزم الأمر.

كانت الحاجة للسرية واضحة. وكان الهدف هو عدم الدعاية للفصل العنصرى بشكل مباشر، إذ فهموا أن تلك مسألة خاسرة، بل التأكيد على القيمة الاستراتيجية لجنوب إفريقيا بشكل عام للعالم الغربى الحر، وعلى أنه بلد غنى بالمواد الخام ومهدد بانتشار الاستبداد الشيوعى من الداخل، ومن قبل الدول المجاورة والمدعومة بشكل مباشر من الاتحاد السوفييتى فى أوج الحرب الباردة.

فى الصباح التالى سافر رودى وميلتشان جنوباً تجاه بورت إليزابيث. وبوصول الطائرة لحدود المحيط الهندى مالت غرباً وحلقت بمحاذاة خط غاردين روت الساحلى الجميل، وهو على الحافة الجنوبية للقارة. وهبطوا فى مدينة بليتنبيرغ

باى الصغيرة الخلابة، بشواطئها البيضاء الذهبية. كانت تلك جنوب إفريقيا، المنعزلة، الشاعرية، السالمة، الآمنة التى أراد رودى أرنون أن يشاهدها.

وأخبر رودى أرنون أنه دبر له شقة فارمة دائمة فى بليتنبيرغ باى، وأن عليه أن يعتبرها منزله فى جنوب إفريقيا. وفيما استرخوا فى الشقة الجديدة، مضوا يتعمقون أكثر فى تفاصيل الخطة.

جوهرياً كانت الخطة هى أنه سيؤدى ذات الدور المالى لجنوب إفريقيا الذى كان يؤديه لإسرائيل، ويفتح حسابات مصرفية سرية ويودع فيها الأموال حسب توجيهات إسشيل رودى، بدون أى آثار تشير إلى جنوب إفريقيا. كان ذلك هو التفاهم الذى توصلوا إليه ومضت الخطة قدماً.

بلغت الأمور ذروتها سريعاً بعد زيارة رئيس الوزراء فوستر الرسمية لإسرائيل فى ١٩٧٦ . وكان محور محادثاته مع رابين وبيريز يتعلق بتجارة الأسلحة والتكنولوجيا النووية فى مقابل رأس المال جنوب الإفريقى والمواد الخام. وتمت الموافقة فى الحال على بيع مدافع الهاون، ومعدات المراقبة الإلكترونية، وأنظمة الإنذار ضد حرب العصابات، ومعدات الرؤية الليلية، والرادارات، وقوارب الدوريات، ومروحيات بيل، والمركبات المدرعة، وقطع المدفعية لجنوب إفريقيا. وأمدت إسرائيل جنوب إفريقيا أيضاً بتصميمات طائرة كيفير المقاتلة، والتى كانت قائمة فى ذاتها على التصميمات المسروقة لطائرة سوپر ميراج من تصنيع شركة داسولت. ونتج عن ذلك إنتاج طائرة شيتا المقاتلة جنوب الإفريقية. وكان لابد من إمداد منصات الطائرة شيتا بالصواريخ اللازمة لها، وتكفلت بذلك شركة رايتيون عبر ميلتشان وقدمت أحدث الأنظمة.

وأتى يوم ٤ نوفمبر عام ١٩٧٧ بمزيد من الأخبار، إذ تبنى مجلس الأمن التابع

للأمم المتحدة القرار ٤١٨، والذي يفرض حظر الأسلحة الإجبارى على جنوب إفريقيا. وحتى ذلك الحين، كان حظر الأسلحة اختيارياً، لكن الآن تصرفت الأمم المتحدة بصرامة غير معهودة، مما عني أن الولايات المتحدة والدول الأوروبية كان عليها أن تمتثل، أو على الأقل تدعى ذلك.

ووضع هذا القرار كلاً من إسرائيل وميلتشان فى الوضع المثالى للعمل كوسطاء سريين. وبالطبع ظاهرياً امتثلت إسرائيل رسمياً للقرار ٤١٨ لكن فى السر، وبمساعدة خدمات الشركات التى أسسها ميلتشان، لعبت إسرائيل دور المورد الرئيسى لأنظمة الدفاع العسكرى إلى جنوب إفريقيا، وكانت توجه ملايين الملايين من الدولارات للشراء من طرف ثالث ومن خلال البيع المباشر لصناعاتها العسكرية. وما كان الحظر ليكون فى وقت أفضل من ذلك بالنسبة لكل من إسرائيل وميلتشان سواء بسواء. إذ كان متورطاً بقوة فى التحالف الإسرائيلى جنوب الإفريقى الذى كان أخذاً فى التطور السريع بصفته ممثل إسرائيل فى نادى العشرة، وكان ميلتشان يتمتع باعتباره جزءاً من دائرة النخبة الداخلية فى إسرائيل لأعوام، كان يعمل فى وضع مماثل فى جنوب إفريقيا، وهى بيئة أوسع كثيراً. ومثل زهرة ليلية، كان ميلتشان ينشط ليلاً.

وعمدت الدول الغربية إلى اللجوء لوسطاء من دول ثالثة حول العالم للتجارة فى السوق جنوب الإفريقى المريح بينما كانت تعلن موقفها المعارض شكلياً للفصل العنصرى. ويمكن القول إن كل ماسة تم شراؤها فى العالم الغربى كان تم استخراجها فى الأصل من جنوب إفريقيا وبذلك كانت تلك الدول تساعد على التمويل المريح للمنظومة العسكرية جنوب الإفريقية.

وخافت إسرائيل من الدلالات السياسية وخاصة الرمزية لحظر السلاح ووجدت

أنه من الأجدى لها تفويضه بشكل سرى، حيث اعتقدت أنه كان من الممكن دفع الغرب لدعم الحظر ضد جنوب إفريقيا، ومهما كان ذلك غير مؤثر، فإنه بالإمكان الدفع بحظر مماثل ضد إسرائيل أيضاً. ولهذا تبنت إسرائيل سياسة عدم الالتزام بالحظر، بالرغم من أنها دعمته شفهيًا بشكل كامل.

كان يجرى شراء أى نظام أسلحة تحتاجه جنوب إفريقيا، والذي كان بالإمكان شراؤه مباشرة من إسرائيل، من السوق الدولية، وبدلاً من أن تنتهى الشحنة فى إسرائيل كما هو مبين فى وثائق المستخدم النهائى، كانت تحول إلى جنوب إفريقيا. وسرعان ما أصبحت شركة ميلتشان أكبر مشتر لمعدات الدفاع العسكرى لصالح الحكومة جنوب الإفريقية.

لكن بقدر أهمية أنظمة الدفاع العسكرى وربحيته، كان اليورانيوم هو شاغل إسرائيل الرئيسى فى علاقاتها بجنوب إفريقيا، إذ إن المواد الخام المبدئية لمفاعل ديمونة كانت تأتى من فرنسا ومن خلال سلسلة عمليات سرية أخرى لوكالة لاكام. وسهل بلومبيرغ شراء أول شحنة وقدرها خمسون طناً من أكسيد اليورانيوم من جنوب إفريقيا، لكنهم كانوا يبحثون عن شىء أكثر خطورة من ذلك، وهو حقل اختبارات نووى. وكانت إسرائيل واثقة من كفاءة أول جيل لها من الأسلحة النووية، والتي تم اختبارها فى فرنسا. لكن عقب حرب يوم الغفران، طورت إسرائيل القنبلة النيوترونية والتي تنطوى على تكنولوجيا أكثر تعقيداً، وكانت تتطلب على الأقل اختباراً واحداً.

وفى مقابل نقل التكنولوجيا النووية الحساسة، وافقت جنوب إفريقيا فى النهاية على السماح لإسرائيل بالدخول إلى المساحة الشاسعة لصحراء كالاهارى والمحيط الأطلسى لأغراض التجارب النووية. وجاء النقل النووى فى هيئة التايتينيوم. وكان

الجنرال فان دين بيرغ توافقاً لشراء ثلاثين جراماً من التايتينيوم من إسرائيل، أى ما يكفى لصناعة اثنتى عشرة قنبلة ذرية. وكان التايتينيوم يستخدم لزيادة قوة الأسلحة النووية بواسطة إحداث اندماج مع القنبلة النووية الحرارية.

وفى عملية اسمها الحركى تبيلير أو أوراق الشاى باللغة الأفريكانية، سلمت إسرائيل اثنتى عشرة شحنة من التايتينيوم المصنع فى ديمونة إلى جنوب إفريقيا فى هيئة كبسولات صغيرة، زنة كل منها ٢٥ جرام. كان بنيامين بلومبيرغ وإسشيل رودى، وميلتشان، وآخرون يعملون كمرافقين فى الرحلات الخاصة لطائرة سى ١٣٠ التى تحمل الكبسولات. وأمنت تلك الصفقات مواقع التجارب، وبمرور الوقت، تم شحن ٥٠٠ طن أخرى من اليورانيوم لإسرائيل.

ويحلول أغسطس ١٩٧٧ كانت إسرائيل مستعدة لإجراء اختبار تحت الأرض فى موقع اختبارات صحراء كالاهارى الجديد، لكن قبل ذلك ببضعة أيام، فى ٣٠ يوليو، لاحظ قمر استطلاع اصطناعى سوفيتى الاستعدادات للاختبار لما افترضوا أنها قنبلة جنوب إفريقية. وأبلغ السوفييت قلقهم لواشنطن. وبعد سبعة أيام، أكد قمر اصطناعى أمريكى اكتشاف السوفييت. وأرسلت اعتراضات فورية من الحكومات الأمريكية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية الغربية، وتم إلغاء الاختبار فجأة فى اللحظات الأخيرة. وكانت تلك نكسة، لكن لم يكن من المستحيل تخطيها.

كان ٢٢ سبتمبر عام ١٩٧٩، مساءً عادياً آخر. لكن كانت هناك عاصفة عاتية تهب فى المنطقة الجنوبية الغربية النائية فى المحيط الهندى، وكان هذا معتاداً فى ذلك الوقت من العام. وعلى بعد آلاف الأميال، رصد التلسكوب اللاسلكى فى أريسيبو فى بورتوريكو فجأة موجة كهرومغناطيسية شاذة فى السطح السفلى من طبقة الأيونوسفير الجوية منبعثة من منطقة المحيط الأطلسى والمحيط الهندى.

وفى ذات الوقت بالضبط، رصد قمر "فيل" الاصطناعى الأمريكى وميضاً مزدوجاً مميزاً. وأبلغ بضعة صيادين تجاريين فى المنطقة عن وميض هائل فى الجوار قادم من جزيرة برينس إدوارد، والتي تقع على بعد ١٥٠٠ ميل جنوب غرب بليتينبيرغ باى. وأشارت بيانات مجسات الأشعة تحت الحمراء إلى ما يبدو كانفجار نووى، ربما من قنبلة نيوترونية ذات إشعاعات عالية. وساد الاعتقاد بأنه من المرجح أن التفجير قد تم على سفينة شحن تقع على مقربة من مركز قيادة عائم، ومن المحتمل أيضاً أنها انفجرت داخل حاوية صلبة مثل قبو تجارى.

انتظرت العقول المدبرة لتلك العملية بدءاً هبوب عاصفة قوية قبل البدء فى التفجير، إذ إن العاصفة كفيلة بإزالة الأدلة الإشعاعية فى البحر سريعاً. وعندما وصلت طائرات الاستكشاف الأمريكية إلى المنطقة لإجراء اختبارات على طبقات الجو، كانت العاصفة قد محت الأدلة بالفعل وكان لابد أن يستغرق الأمر أياماً قبل أن تصل سفينة مجهزة جيداً إلى الموقع لتجد القليل أو ربما لا تجد شيئاً.

كان البحر هائجاً ولم ترسل سفينة القيادة أية إشارات لاسلكية. كانت السفينة محملة بالكرونيات معقدة ومجسات وكانت تتمايل بقوة. وعلى متنها كان العديد من العلماء والتقنيين الإسرائيليين وجنوب الأفارقة، والوسطاء الرئيسيين فى العلاقة النووية السرية. شاهدوا الوميض وشعروا ببعض الخوف، وكثير من الحماس والإثارة.

كانت تلك ضربة موفقة مفاجئة وإحدى العمليات الأكثر سرية التى أدارتها إسرائيل ولاكام. وبدأت تفاصيلها تظهر للعلن بعد سنوات، بعد سقوط حكومة الفصل العنصرى جنوب الإفريقية فى عام ١٩٩٥، بعد أن كانت إسرائيل قد أجرت اختبارها. وكانت قنبلة نيوترونية صغيرة حجمها التفجيري يعادل ٢ أو ٢ كيلو طن،

وأثبتت مستوى عالياً من التطور.

واجتمع الخبراء الأمنيون الأمريكيون في محاولة يائسة لفك شفرة البيانات، وكان مجهوداً بدأ في الحال واستمر لأشهر تالية. استمر الجدل بشأن تفسير البيانات لأعوام، واستنتج معظم العلماء والخبراء النوويون عن يقين أنه كان انفجاراً نووياً. وكان الرئيس كارتر في موقف حرج، إذ إنه وفقاً للقانون الأمريكي، إذا أكدت الولايات المتحدة علناً أن إسرائيل على صلة بالاختبار النووي، فسيكون على كل من الرئيس والكونجرس وفقاً للمادة ١٦ من قانون ١٩٦١ المنظم للمساعدات الأجنبية، قطع المعونات العسكرية والاقتصادية لإسرائيل.

وينص القانون صراحة على أن تحرم الدول التي تمتلك أو تنقل الأسلحة النووية، أو المواد النووية، أو التكنولوجيا خارج الأنظمة الدولية لحظر الانتشار النووي - مثل معاهدة حظر الانتشار النووي والتي لم توقعها إسرائيل - من تلقي أية معونات عسكرية أو اقتصادية من الولايات المتحدة. ولهذا السبب لم تعترف الولايات المتحدة يوماً علناً بالترسانة النووية الإسرائيلية، ولهذا السبب ظل اختبار ١٩٧٩ مغلفاً بالغموض.

وإذا كان هناك وسيط مالى فاعل في حملة الدعاية العالمية المستترة لتحسين صورة جنوب إفريقيا، فقد كان هو ميلتشان، الذي قال إنه تصرف بناء على طلب بلده.

وأدار إسشيل رودى تدفق الأموال بشكل ثابت من شركة "تور" للاتصالات التابعة لوزارة المعلومات، عبر حسابات أوروبية يسيطر عليها ميلتشان، والذي أنشأ بدوره شركات واجهة لشراء القنوات الإعلامية المؤثرة والهامة لجنوب إفريقيا.

ركز هو والعميلان جنوب الإفريقيان ديفيد أبرامسون وستيوارت بيبغ أولاً على

الإعلام الإفريقي مثل ويست أفريكا، وهي مجلة هامة تصدرها أفترميديا إنترناشونال. واشترى التحكم الإداري في أفريكان ديفيلوبمينت وهي مجلة ربع سنوية. واشترك في شراء يورأفريك، وهي مجلة شهرية تقرأ في كل الدول الإفريقية المتحدثة بالفرنسية. ثم سعى جاهداً للسيطرة على عملاق النشر الإنجليزي مورغان غرامبين، وكان هذا تتويج العملية.

وعبر مورغان غرامبين كانت الخطة هي السيطرة على العديد من الصحف الهامة في الغرب، ومنها الأوبزيرفر في إنجلترا، ولوكسبيريس في فرنسا، وواشنطن ستار في الولايات المتحدة، ولم يكن ثمة أداة أفضل من مورغان غرامبين للتحكم في تلك الغنائم كما كتب إسشيل رودى في كتاب فضيحة المعلومات الحقيقية الصادر عام ١٩٨٣ .

وفي نوفمبر ١٩٧٧، أفرج رودى عن ١.٨ مليون دولار لشراء أسهم كافية للسيطرة على إنفيستورز كرونيكال في إنجلترا، وهي صفقة لم تتحقق. وجوهرياً نسق، رودى وميلتشان كشريكين، كل الأنشطة مستخدمين الحسابات السرية. والتي كان لها أن تنفجر لاحقاً في وجهيهما!

الوحل

لا أستطيع أن أكون رساماً أو كاتباً، ولهذا قررت أن أكون منتج أفلام.

أرنون ميلتشان

ميلتشان رجل ذو نزعة فردانية، وقناص وحيد من نواح شتى، لكنه لديه ضعف تجاه الاستعراضات الضخمة للنشاط الإنساني المنسق، سواء كان في الحرب أو في الترفيه. يريد المشاركة فيه، لكن عن بعد ليس بالكبير، وبشروطه الخاصة.

والمعتاد، كان يحتاج إلى وسيلة جديدة للحفاظ على اهتمامه باللعبة. وأدرك أنه كان مؤمناً مادياً آنذاك بما يكفي ليحفظه يخوض بعض المجازفات خارج نطاق مجاله المعتاد وبدأ يحقق فانتازيا قديمة بالعمل في مجال الترفيه وصناعة الأفلام. إذ لطالما أحب السينما ونظر بإجلال إلى الممثلين الذين كان يشاهدهم على الشاشة. وأعجب بكتاب السيناريو الذين أبدعوا وصنعوا بنية القصص. وبالمخرجين الذين تمكنوا بطريقة ما من تنسيق المشروع وإدارته برمته. وكان مفتوناً بالقوى الإبداعية واللوجيستية التي تجتمع لإنتاج فيلم ناجح، وكان مفتوناً أيضاً بمجال صناعة الأفلام.

في البداية مضى يزور مواقع الأفلام لمراقبة العملية. وتذكر ابنته إيلانور كيف كان والدها يجلس مع أبنائه ويشاهد الأفلام بلا توقف أثناء زيارته وتقول إن كل أفراد عائلتهم مدمنون للأفلام، وإنها أصبحت مهووسة منذ أن كانت في

الخامسة بالأفلام من خلال أبيها.

وفى عام ١٩٧٦ قام ميلتشان بأول استثمار له فى مجال الترفيه. وفتح إلباب له المنتج إلبوت كاستنر، والذى سرعان ما تعرف على القدرات التمويلية للمليونير المفعم بحماس الشباب لتلك الصناعة الساحرة. كان كاستنر وكيل مواهب يهودياً أمريكياً قبل أن يعمل كمنتج. ونقل عملياته إلى أوروبا فى الستينيات، وبالرغم من أن مسيرته المهنية السينمائية فشلت فى إبهار النقاد، فقد نجح فى إنتاج العديد من الأفلام الشهيرة التى نجحت فى شباك التذاكر ومنها فيلم جسارة النسور، وهو فيلم حركة درامى عن الحرب العالمية الثانية من بطولة ريتشارد برتون، والذى قاد فريقاً من قوات الكماندوز فى عمق ألمانيا. وقدم كاستنر ميلتشان بشكل ممنهج إلى اللاعبين الفاعلين فى هوليوود.

ويصف ميلتشان كيف قابل نجماً حقيقياً من هوليوود لأول مرة:

"كنت في مطعم في تل أبيب ذات ليلة عندما أتاني شخص وقال لي إن اسمه إليوت كاستنر. عجباً! الرجل الذي أنتج للتوفيلم ذا ميزوري بريكس. وكنت مجرد معجب آخر، لكنه سحرني بشدة. وكان ينتج فيلم "أليتل نايت ميوزيك" مع إليزابيث تايلور في أستراليا آنذاك. وقال "أو تعلم، أنا واثق أن إليزابيث ستسعد بمقابلتك" فقلت "هل أنت جاد؟" فقال "سأذهب إلى هناك غداً، تعال معي".

واتصل أرنون بأمه شوشانا في الحال وقال لها:

لن تصدقي ما يحدث لي، سأقابل إليزابيث تايلور.

وأنذاك كان نجم إليزابيث تايلور قد بدأ يخبو، إذ كان وزنها قد ازداد ولم تعد في الصدارة، لكنها كانت أسطورة هوليوودية بأصدق معنى للكلمة واحترمها أرنون بشدة.

وعقب العشاء المنتظر بلهفة مع تايلور، حسم أرنون أمره. وفي هذا يقول "دخلته واعياً، وأردت أن أستغل، وتطوعت لأكون المغفل المقبل في مجال السينما. وأخبرت إليوت أنني أريد أن أعمل في المجال. وفجأة صرنا نتعاون معاً في صناعة الأفلام".

تُفسر عدة مواقف حماس أرنون المفاجئ لمجال صناعة الأفلام وكيف اختلطت بمشاريعه الأخرى، مثلاً، كان الكاتب البريطاني أنتوني سامسون قد أصبح مشهوراً نتيجة لمعارضته النشطة للفصل العنصري في جنوب إفريقيا، ولاحقاً أصبح كاتب سيرة نيلسون مانديلا. معارضة سامسون للعنصرية ودوره

كصحفى وكاتب مؤثر لم يمر مر الكرام على إسشيل رودى، وكونى مولدر، وجهاز الاستخبارات جنوب الإفريقى.

كان سامسون قد أصدر مؤخراً كتاباً أسماه "بازار الأسلحة، من لبنان إلى لوكهيد" يناقش العديد من صفقات الأسلحة الضخمة فى منتصف السبعينيات، ويركز بخاصة على جنوب إفريقيا.

بالطبع لم يكن سامسون يعى سوى جزء يسير من الحقيقة. وبعد إصدار الكتاب بفترة وجيزة، تلقى سامسون مكالة فى شقته فى لندن من إليوت كاستنر يقترح عليه إنتاج فيلم مقتبس من كتابه الجديد. وأوضح له أن ممول المشروع سيكون إسرائيلياً واسمه ميلتشان، وأنه جديد على مجال السينما وأنه أكثر شخص مبهر قابله فى حياته. وأكد أيضاً لسامسون أن الرجل يتحرك بسرعة الضوء، ليس لديه مكتب ولا سكرتير، ومكتبه فى رأسه، وأنه يغازل الخطر ويجوب العالم بحقيبة من الأموال مختلفة العملات، ارتاب سامسون لكنه وافق على الحديث معه.

وبعد محادثته مع كاستنر بفترة وجيزة، تلقى سامسون سلسلة من المكالمات الهاتفية السريعة من ميلتشان، والذي طلب منه أن يقابله على الفور. وبعد بضع ساعات، فتح سامسون بابه ليستقبل ميلتشان، والذي كان يرتدى حلة رياضية وحذاء التنس، ويحمل حقيبة سوداء ذات قفل رقمى من ٦ أرقام.

وصفه سامسون قائلاً: بدا وكأنه نجم سينمائى، وسيم، مبتهج، وساحر. شرح لى أنه يجنى أمواله من شركة الأسمدة والكيماويات التى ورثها عن والده.

قال ميلتشان: "أريد أن أكون مبدعاً ولا أستطيع أن أكون رساماً ولا

كاتباً، لذا قررت أن أصبح منتج أفلام وأريد أن أصنع فيلماً عن تجارة السلاح وكان ذلك موضوعاً قريباً من قلبه.

ولم يكن لدى سامسون فكرة أنه يقابل محرراً رئيساً للأمور في جنوب إفريقيا، شخصاً كان من السهل أن يكون المادة الأساسية لكتابه.

تحدث الرجلان لفترة، بداية عن فيلم محتمل ثم لاحقاً تحدثا بشكل عام. وسرعان ما فهم ميلتشان أنه يتعامل مع رجل واسع الاطلاع ذى آراء مقنعة عن جنوب إفريقيا. لم يفتح قط تلك الحقيقة السوداء، واتفقا على أن يستأنفا نقاشاتهما التي لم ينتج عنها أى فيلم، لكن سامسون ألقى بذور الشك في عقل أرنون بشأن أنشطته التي كان يقوم بها لحساب جنوب إفريقيا.

لكن صحوته الحقيقية عن حقائق الفصل العنصرى في جنوب إفريقيا جاءت لاحقاً، وفي زيارته المعتادة لجنوب إفريقيا، عندما لم يعد يُستقبل لدى وصوله في المطار بمراسم استقبال فخمة ولم يعد يصحبه المسئولون الحكوميون. وأثناء تلك الرحلات، استغل الفرصة لاستئجار سيارة جيب ليستكشف ما وراء المناطق المعزولة التي يتمتع البيض بالعيش فيها، لتتفتح عيناه على الحقيقة. وفي هذا الصدد نجده يقول:

"وجدت نفسى وجهاً لوجه مع أكثر فقر مدقع رأيته فى حياتى، إذ زرت بلدات وقرى صغيرة.

وكان الجور الذى شهدته تجربة غيرت حياتى. كنت حراً فى الذهاب إلى أى مكان أريده، وأدركت أن هذا ليس حال الناس الذين قابلتهم فى تجوالى. وكان هذا عبئاً يتشاقل على ضميرى. لكن كان ثمة واقعة قسمت ظهر البعير. ذات يوم زرت حديقة حيوان محلية، وعلى مدخلها لاحظت لافتة كتب عليها غير

مسموح بالسود ولا الآسيويين. ولم تكن تلك اللافتة الأولى التي رأيتها على تلك الشاكلة، لكن فجأة خطر ببالي أنني أسيوى وأخذت هذا على محمل شخصى بطريقة لم أفعلها من قبل. وعرفت أن التصريح الذى حصلت عليه عنصرى أكثر منه جغرافياً، لكننى ببساطة لم أستطع أن أحمل نفسى على الدخول.

ولم أستطع أن أمنع نفسى من التفكير فى العنصرية التى هربت منها عائلتى نفسها، أو فى أولئك الذين تخلفوا فى أوروبا وقتلوا بسبب التحيز.

فى تلك الليلة لم يستطع النوم. وفى الصباح حزم حقائبه واتجه إلى المطار، إذ اتخذ قراراً شخصياً بالآ تطفأ قدمه أرض ذلك البلد مجدداً أبداً حتى تنتهى منها العنصرية، وأنه سيفعل كل ما بوسعه للقضاء عليها.

أثناء تلك الفترة تعاون كاستنر وميلتشان فى إنتاج فيلم اسمه "Mad"، وتم تغييره لاحقاً إلى "ستيك أب" بطولة ديفيد سول. قال ميلتشان إن الفيلم كان سيئاً لحد أنه لم يضع اسمه ضمن القائمين على الفيلم، لكنه رفض أن تثبط همته. تنطبق ملاحظة ونستون تشرشل أن صفة الشخص الناجح هى قدرته على الانتقال من فشل إلى التالى بدون أن يفقد أياً من حماسه على شخصية ميلتشان.

وفى مشروع الفيلم التالى تعامل مع منتج من نيوزيلندا وهو مارتن كامبل، فى فيلم من إنتاج عام ١٩٧٦ واسمه "بلاك جوى"، وكان موسيقياً كوميدياً مقتبساً عن مسرحية تحكى عن شاب أسود يصل من جزر الكاريبى إلى حى بريكستون القاسى المتحيز فى لندن، وينتقل من كارثة كوميدية إلى الأخرى، "الحياة موجودة لكى نعيشها كان شعار الفيلم"، ودعونا من السياسة" كان معناه المضمهر.

وتفاجأ الكثيرون عندما عرفوا أن فيلم "بلاك جوى" سيعرض بأسلوب لافت فى مهرجان كان السينمائى المهيّب وأن مخرجه أنتونى سيمونز رُشِحَ لجائزة السعفة الذهبية.

وللحفاظ على المظاهر، اصطحب ميلتشان إسشيل رودى المفتون بالانجومية إلى مهرجان كان ذلك العام، حيث قدمه ميلتشان إلى صديقه رومان بولانسكى وآخرين فى مجال السينما. وعلى المائدة أيضاً كان ديفيد أبرامسون وستيوارت بيغ، خبيرى المال جنوب الإفريقيين اللذين كانا يعاونان وزارة المعلومات جنوب الإفريقية، وعملا عبر شركات الواجهة المملوكة لميلتشان لشراء القنوات الإعلامية المستهدفة. ولم يكونا يعرفان بأمر التغير الذى اعترى أرنون وأنه بدأ بالفعل يتجه إلى تقويض جهودهما.

لم تكن السينما فقط هى المجال الوحيد الذى بدأ ميلتشان يقتحمه. فى ٢٨ ديسمبر عام ١٩٧٦، افتتح مسرحية موسيقية فى برودواى اسمها "أببى تومبى" وتعنى أين الفتاة؟ بلغة الزولو. وكانت أببى تومبى مسرحية موسيقية جنوب إفريقية الأصل عن زعيم قبيلة إفريقى شاب تعاني قريته من الفقر والجفاف، ويسافر إلى المدينة الكبيرة على أمل أن يجد الثروة لينقذ بها قومه. وبدلاً من ذلك يجد الطمع، والفساد، والفنانين المحتالين. ومتحرراً من الأوهام يعود الشاب إلى قريته فى الوقت المناسب ليحول دون نشوب الحرب فيها.

كانت قصة تقليدية تشبه قصة فيلم "بلاك جوى"، ولم تشهد المسرحية الموسيقية سوى تسعة وثلاثين عرضاً فحسب. فى فبراير ١٩٧٧. وفى ذات العام، اشترك ميلتشان وكاستنر فى إنتاج فيلمهما الثانى "ذا ميدوسا تاتش"، ولعب دور البطولة فيه ريتشارد برتون الأسطوري.

ويمكن وصف فيلم "ذا ميدوسا تاتش" بأنه فيلم مؤامرة شيطانية سبعينيّاتى تقليدى، يماثل مزيجاً من سلسلتى أفلام "ذا إكسورسيست" و"ذا أومين" وأفلام الكوارث مثل "إيرثكويك" و"إيربورت"، إذ يؤدى ريتشارد برتون دور وسيط روحانى مهووس يحاول أن يقنع طبيباً نفسياً بقدرته الشيطانية على قتل الناس وعلى إحداث الكوارث من خلال قوة أفكاره.

كان الفيلم مقتبساً عن رواية لبينتر فان غرينواى، وظهر على غلاف الرواية طائرة ركاب ضخمة تصطدم فى ناطحة سحاب. وبعد أعوام، ألهمت تلك الصدفه خيال نظريات المؤامرة عن حادث ١١ سبتمبر.

استثمر ميلتشان ٤٠٠ ألف دولار فى فيلميه الأولين "ماد" و"بلاك جوى". وساهم بأكثر من نصف ميزانية فيلم "ذا ميدوسا تاتش" والذى قدرت بـ٤ مليون دولار.

سرعان ما تلقى مكالمه من اللورد لو غريد، وهو من أساطين المال الإنجليز، حيث دعا ميلتشان على الغداء ليناقشه فى فيلم "ذا ميدوسا تاتش". وفقاً لجاك ماثيوز المحرر الفنى فى جريدة لوس أنجلوس تايمز، لم يستمر الاجتماع أكثر من نصف ساعة، اشترى فيها اللورد غريد حقوق عرض الفيلم بـ٤ مليون دولار. وبغض النظر عن احتمال فشل الفيلم، فقد كسب ميلتشان مليون دولار بالفعل. كانت المراجعات عن الفيلم جيدة فى إنجلترا لكنه لم ينجح فى الولايات المتحدة.

وعقب "ذا ميدوسا تاتش"، شعر ميلتشان أن كاستتر لا يشاركه الرؤية بشأن نوعية الأفلام التى يحلم بإنتاجها، وشعر أيضاً أن أفلامه لا تحقق نجاحاً فى السوق الأمريكية، والذى انتوى ميلتشان غزوها. تعلم ميلتشان الأساسيات من كاستتر، وكان الوقت قد حان للمضى قدماً. ومضى كل منهما فى طريقه.

لكن بحلول عام ١٩٧٨ كانت حرب إسشيل رودى وكونى مولدر المعلوماتية فى خطر كما كان محتوماً. وأعلن رئيس الوزراء جون فوستر استقالته فى ٢٠ سبتمبر وبدأ سباق محموم للحصول على منصبه وبدأ تنافس قوى بين مولدر ووزير الدفاع بى دبليو بوثا، لكن مولدر لم يتمكن من الحصول على دعم فوستر.

لكن الكلمة الأخيرة فى نتيجة الانتخابات كانت لشخص آخر يدعى بوثا، لا علاقة له ببى دبليو. كان وزير الخارجية بيك بوثا الذى كان قد ظل فى منصبه لوقت طويل، رجلاً متآمراً عنيداً يحب الترويج لنفسه، لم يكن يحب أياً من رودى أو مولدر، ورأهما كوجهين لعملة واحدة فى الساحة السياسية جنوب الإفريقية. وكان قد تعرض شخصياً لمحاولاتهما لإضعاف مكانته على مدى أعوام، حيث أبقياه ووزارته خارج دائرة الأحداث لمرات عدة.

وكانت الإطاحة بمولدر كمرشح أهل الثقة ستعزز من موقف بيك بوثا مع بى دبليو، والذى اشتهر بمكافأة المخلصين، وانتوى بيك بوثا مساعدة بى دبليو بوثا للفوز بمنصب رئيس الوزراء، لينتقم من مولدر ولينال مكافأته فى ذات الوقت.

كانت هناك طريقة واحدة تصلح لتقويض مكانة الدكتور كوني مولدر وموقفه الانتخابى فى الحال، وهى إثارة فضيحة مالية ضخمة تنطوى على اختفاء ملايين الراندات [عملة جنوب إفريقيا] أثناء حرب مولدر ورودى المعلوماتية الخبيثة.

وافترض رودى أن بيك بوثا تسلم تلك المعلومات المهلكة من خلال صديق مشترك سابق بينهما طعنه فى ظهره وكان أيضاً شريكاً فى العملية، وكان

اسمه ريتيف فان روين، ووفقاً لرودى، كان كاتم الأسرار الذى كان، بشكل ممنهج ومن وراء ظهره، يبلغ بيك بوثا بكل المعلومات الحساسة عن حرب المعلومات السرية.

لكن ما لم يكن رودى يعرفه هو أن ميلتشان وليس ريتيف. فان روين، كان المصدر النهائى للتسريبات. كان ميلتشان بالفعل كاتم أسرار فضيحة المعلومات الكبرى فى جنوب إفريقيا، والتي تعد أكبر ضربة قاسمة لنظام الفصل العنصرى منذ أن وجد.

وفى الحال بدأت تطرح الأسئلة العامة عن شراء العديد من قنوات الإعلام العالمية وتظهر فى الصحف التى تساءلت: من أين أتوا بالمال؟ وفيما أنفق بالضبط؟ ومن المسئول؟ ومن المالك الفعلى لتلك القنوات الإعلامية الآن؟، كانت تلك كارثة مباشرة قاسية لكل من مولدر ورودى. وتم كشف العملية برمتها، ولأنها كانت سرية من البداية، لم تكن لها وثائق كثيرة، وتحمل كل منهما العواقب كاملة. ولم يُرد أحد بمن فيهم فوستر أن يبادر ويقر بأنه كان على دراية بالعملية برمتها، أو أنه وافق عليها.

وخلال أسابيع، تم تسمية تلك الفضيحة بمولدرجيت وتناقلتها كل الصحف، ليس فى جنوب إفريقيا فحسب بل وفى كل أنحاء العالم. أهين رودى وأجبر على الاستقالة. وبقي مولدر لفترة أطول، لكنه استقال محفوفاً بالعار أيضاً. وهكذا أنهى ميلتشان حرب جنوب إفريقيا المعلوماتية السرية فجأة وبشكل مخرج.

وذات يوم فى شقته فى باريس فى أوج زمن الفضيحة، تلقى ميلتشان زيارة مفاجئة من شخص قدم نفسه بلهجة جنوب إفريقية ثقيلة بأنه مبعوث من

بريتوريا. وأخبر هذا الشخص ميلتشان بعد ذاك بأنهم كانوا على علم تام بتسريباته وحذره قائلاً إن كان يعرف مصلحته هو وأطفاله، فعليه أن يغلق فمه الكبير المحب للزنج. ويزعم ميلتشان بأنه لم يُخطر بباله الواقعة لا الموساد ولا لاكام حتى يتمكن من الاستمرار في أجدته الخاصة، في تفويض المؤسسة العنصرية بأكملها.

تنبأ إسشيل رودى بما كان ينتظره وهرب من البلد، أولاً إلى الإكوادور، ثم إلى كان فى جنوب فرنسا، حيث شرع فى تأليف كتاب يكشف فيه أركان المؤامرة. وبينما كان فى فرنسا تلقى رودى زيارة من الجنرال فان دين بيرغ، والذى نصحه بتجنب المغالاة فى مكاشفاته، خاصة وأنها مرتبطة بالجوانب الحساسة للعلاقة الإسرائيلية جنوب الإفريقية. والتزم رودى بنصيحته وحذف الإشارات إلى العملاء السريين الفاعلين من الكتاب بأكمله. لكن لسبب مستغرب، نسي أن يحذف اسماً واحداً من تلك القائمة وهو أرنون ميلتشان.

وفى الواحدة والرابع من صباح ١٩ يوليو ١٩٧٩، قام رودى وقبّل زوجته، وأخبرها أنه كان متوجهاً سيراً على الأقدام إلى الناصية لينتظر وصول صديق. وأخذ مفاتيح الشقة. ولم يتكبد حتى عناء توديعها إذ توقع أنه سيعود خلال دقائق بل إنه ترك محفظته.

وخرج من شقته ونزل السلم، وعبر الباب الأمامى إلى ضوء الشمس القوي. ولم يكد يخطو خمس عشرة خطوة عندما سألته صوت من ورائه السيد رودى؟ فالتفت، ليجد رجلين آخرين قد أطبقا عليه وأمسكاه من ذراعيه وهرعا به إلى سيارة مركونة أمام المبنى. وكان الثلاثة يرتدون ملابس عادية.

قال كبير الثلاثة بلهجة فرنسية ثقيلة "أنت مقبوض عليك"، وارتاح إذ كان

قد تخيل ما هو أسوأ من ذلك.

ولأول مرة فى حياته شعر روى بالأصفاد تضيق على معصميه. كان متبلداً ومصدوماً، وسأل ما إن كان بإمكانه إبلاغ زوجته، لكنهم رفضوا ثم طلب أن يترك مفاتيح الشقة مع البواب، لكنهم رفضوا. وسألهم عن سبب القبض عليه، فلم يجبه أحد. وتم اصطحابه إلى مقر الشرطة فى نيس لأخذ بصماته، وحبسوه فى زنزانة قذرة، بدون سرير ولا كرسي، ولا مياه جارية، مجرد ثقب فى الركن ليستخدم كمراحيض.

وبعد عدة ساعات، تم إبلاغه وهو لا يزال فى الأصفاد، أنه قد صدرت بحقه مذكرة قبض وأنه سيتم ترحيله فى الحال إلى جنوب إفريقيا. وطلب الاتصال بعائلته لإبلاغهم لكن طلبه قوبل بالرفض. طلب محامياً وأيضاً قوبل طلبه بالرفض. وتبين أن محاميه الفرنسى أبلغ باختفائه، وشك فى أنه تم اختطافه بغرض الترحيل الفورى، وقدم بلاغاً بمبادرة شخصية منه.

صدمت الشرطة التى كانت قد حاولت ترحيله من البلاد قبل أن يحدث ذلك، عندما أصدر أحد القضاة أمراً طارئاً ببقائه. بدأت عملية طويلة وصعبة لتسليمه بينما كان هو قابلاً فى زنزانه الفرنسية القذرة.

وفى النهاية تم ترحيل روى إلى جنوب إفريقيا وتمت محاكمته بتهمة تورطه فى تلك المؤامرة. أدين وحكم عليه بالسجن ١٢ عاماً، لكن الحكم تم إبطاله فى محكمة الاستئناف التى قضت بأنه كان يتصرف بصفتة الرسمية بناء على تعليمات رؤسائه والذين كانوا على دراية كاملة بأنشطته. ورحل عن جنوب إفريقيا رجلاً يتجرع المرارة، وبدأ حياة جديدة فى الولايات المتحدة، حيث أصبح وكيل إعلانات فى منطقة أتلانتا، جورجيا. وفى ١٧ يوليو ١٩٩٣، وبينما

كان يلعب التنس الذى يحبه، انهار فى الملعب ومات بأزمة قلبية وهو فى الستين من عمره.

كانت فضيحة المعلومات جنوب الإفريقية حدثاً عالمياً مثيراً حيث كُشِفَت تفاصيل حملة تتضمن عشرات المشاريع لقمع صحافة المعارضة الداخلية وشراء التغطية الصديقة فى الخارج. تحمل رودى وطأة اللوم العظمى فى الفضيحة بينما تمكن المحرك المالى الرئيسى "أرنون ميلتشان" من تجنب التورط فيها. ولم تكن تلك هى المرة الأخيرة. إذ قبل فترة وجيزة من نهاية النظام العنصرى، نقلت جنوب إفريقيا كل موادها النووية تقريباً إلى إسرائيل، وكان من بينها التايتينيوم والقنابل الستة التى تحوزها. وأخطرت حكومة جنوب إفريقيا بعد ذلك الوكالات الدولية أنها قامت بتفكيك كل أسلحتها النووية.

وعلى حين أنه كان فى البداية يتخذ موقفاً متردداً بشأن الفصل العنصرى، إلا أن أرنون أصبح تدريجياً يناهضه بأسلوب نشط. وبحلول عام ١٩٩١، قبل ثلاثة أعوام من سقوط نظام الفصل العنصرى، أنتج أرنون فيلم "ذا باور أوف وان"، وأخرج جى أفيلدسن مخرج الفيلمين الشهيرين "روكى" و"ذا كاراتيه كيد"، وكان الفيلم مقتبساً عن رواية لجرايس كورتناى عن دخول ناشط مناهض للعنصرية مرحلة النضوج أثناء حقبة الحرب العالمية الثانية فى جنوب إفريقيا. كان بطله بى كيه ذو السبعة أعوام فتى أبيض جنوب إفريقى تربى فى مزرعة عائلته على يد مربيته التى تنتمى إلى قلبية الزولو. وعندما مرضت أمه، تم إرساله إلى مدرسة داخلية أفريكانية، حيث كان يتم التحرش به وكاد يقتل على يد بلطجى المدرسة. ثم يصادق موسيقاراً ألمانياً، وملاكماً أسود سابقاً - والذى يلعب دوره مورغان فريمان - الذى يُعَلِّم بى كيه كيف يستخدم قبضتيه للدفاع عن نفسه.

وعندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، يصبح بى كيه الأمل الأبيض العظيم للأفارقة السود، ويشق طريقه بالملكمة إلى قلوبهم وعقولهم. ويتحالف مع خصم قديم ملاكم، ويخوضان معاً صراع مناهضة العنصرية.

يمثل فيلم "ذا باور أوف وان" تحولاً مذهلاً لميلتشان، مقارنة بمواقفه فى الأعوام السابقة. قال ميلتشان: سأناضل طوال حياتى ضد العنصرية والفصل العرقى.

ثمة المزيد مما يقال بشأن ميلتشان والعنصرية وجنوب إفريقيا والتنس. فى عام ١٩٨٨ استضافت إسرائيل مسابقة تنس دولية دعى إليها لاعبون من جنوب إفريقيا. وكان رياضيو جنوب إفريقيا مُقاطعين دولياً، لذا استغلوها كفرصة للمنافسة بالخارج. وكأمانة على العلاقة الخاصة بين البلدين، وافقت إسرائيل على إتاحة المسابقات الرياضية التى تشترك فيها جنوب إفريقيا. وفى تلك المسابقة شاركت بطلة التنس أماندا كويتزر من هوبستاد، جنوب إفريقيا ذات السابعة عشر عاماً لأول مرة دولياً، وأصبحت لاحقاً المصنفة الثالثة عالمياً، وهزمت لاعبات قويات مثل شتيفى غراف ومارтина هينغيز. وبعد ذلك بفترة طويلة، أصبحت زوجة ميلتشان الثانية وأم أصغر أبنائه.

يمتلك الزوجان ضمن أماكن أخرى، منزلاً فى مدينة بليتينبيرغ باى الجميلة، المكان الذى وقع ميلتشان فى حبه منذ سنوات عديدة ماضية.

وفى أغسطس ٢٠٠٣، حضر أرنون وأماندا عيد الميلاد الثمانين لشمعون بيريز فى فندق هيلتون تل أبيب. وكمعظم الناس الذين يتحرون السرية، استقلا مصعد الخدم. ولدى نزولهما انضم إليهما بالصدفة ضيف آخر يتحرى السرية، وكان رئيس جنوب إفريقيا السابق إف دبليو دى كلارك، الحاصل على جائزة

نوبل للسلام والذي أشرف على تقويض النظام العنصرى. تعرف على أماندا
فى الحال، لكنه لم يكن واثقاً من هوية الرجل الواقف إلى جوارها. وكما تتذكر
أماندا، عندما قدمت رفيقها أرنون ميلتشان، تعرف دى كلارك على الاسم فوراً،
ورفع حاجبيه، وابتسم وقال "لقد فعلت أشياء هامة لجنوب إفريقيا".

مذنب بالاشتباه

لنقل إنه لا يوجد شيء تفعله إسرائيل والولايات المتحدة بشكل مستقل عن بعضهما.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس أبريل ٢٠٠٠

كانت الأموال تتدفق. واستمرت إيرادات المشاريع في إيران. واستمرت ميلكو وعمليات أخرى في تأدية مهامها لتوفير التكنولوجيا والمواد الداعمة لبرامج إسرائيل النووية والصواريخ الباليستية.

كانت الخطوات التي اتخذها ميلتشان لصالح إسرائيل في جنوب إفريقيا قد آتت ثمارها الوفيرة، إذ ازدهرت واردات الدفاع العسكرى وصافراته وزادت المخصصات التي يخصصها الكونجرس الأمريكى سنوياً للمعونة العسكرية، فيما استمرت شركة ميلتشان إخوان في أنشطة توزيع الأسمدة والكيماويات المربحة. وأثناء كل ذلك كان ميلتشان غارقاً في علاقة ملتبهة بالحسنة السويدية أولريكا.

أثناء تواجده في إسرائيل ويعيداً عن قاعدته في باريس، كان أرنون يقضى معظم وقته في عقد الاجتماعات في ملهى خاص جديد افتتحه صديقه رافى شولى في أبريل ١٩٧٧ في شمال تل أبيب. وسمى المكان الجديد "الملهى" ببساطة.

وإن كان "مانديز" هو مركز مجتمع النخبة الإسرائيلى، فقد تجاوز "الملهى" ذلك بمراحل. إذ كان منعزلاً وحصرياً، وتم اختيار أعضائه بعناية من النخبة

الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، من قبل لجنة عضوية متشددة. وأضفى هذا جواً من السرية حيث كان ينتظر من الأعضاء استخدام نفوذهم للعناية ببعضهم البعض.

يوم الجمعة ١٠ ديسمبر ١٩٧٦، هبطت ثلاث طائرات إف ١٥ مقاتلة في قاعدة تل نوف الجوية خارج روحوفوت، مما جعل إسرائيل الدولة الأولى بخلاف الولايات المتحدة التي تمتلك طائرات إف ١٥. لكن بسبب الرياح المعاكسة التي واجهتها الطائرات في رحلتها الطويلة، بالإضافة إلى التزود بالوقود في منتصف المسافة، فقد هبطت متأخرة في ذلك اليوم، هبطت ويوم السبت المقدس يوشك على البداية.

ونتيجة لذلك، لم يتمكن عدد من الوزراء المتدينين من العودة لمنازلهم من

مراسم الاستقبال في موعدهم، وأجبروا على انتهاك قدسية يوم السبت. وكانت تلك هي القشة الأخيرة بالنسبة لبعض السياسيين، وترك بعض من أعضاء الكنيست المتدينين الائتلاف الحاكم، بما سبب انهيار أول حكومة لرايين وتمت الدعوة إلى انتخابات جديدة.

لكن المفاجأة التي زلزلت إسرائيل عقب انتخابات الدورة التاسعة من الكنيست في ١٧ مايو ١٩٧٧، صدمت البلد في عمقه السياسي، وكانت هي وصول حزب الليكود المحافظ بقيادة مناحم بيجين، إلى السلطة لأول مرة، وأقصى بذلك حزب العمل، والذي كان قد هيمن على الحياة السياسية في البلد بشكل أو آخر منذ قيامها. وفجأة أصبح بنيامين بلومبيرغ مدير وكالة لاكام يقف على أرض غير صلبة. وغدا مدير ميلتشان ومعلمه في خطر حقيقي من خسارة منصبه إذ سعت الإدارة الجديدة إلى تعيين رجالها في المناصب الهامة. كان وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان -ابن شقيق حايم وايزمان أول رئيس لإسرائيل- يسعى للتخلص من بلومبيرغ ليحل محله موالٍ للحزب.

لم يكن بلومبيرغ ليستسلم بسهولة، وذهب مباشرة إلى رئيس الوزراء بيجين، ودفع بأن عضويته في لجنة الطاقة الذرية الإسرائيلية، ومسئوليته عن مجمع المفاعل في ديمونة، وموقعه القيادي في برنامج الأسلحة النووي، وتوليهِ المباشر لشبكة إسرائيلية من العملاء السريين غير الرسميين حول العالم يعني بأنه يتلقى أوامره مباشرة من رئيس الوزراء لا من وزير الدفاع.

ولم يكن بيجين أخرق سياسياً، وبخلاف العديد من وزرائه، لم يكن ليتسرع في التخلص من الأشخاص الموهوبين بسبب ميولهم السياسية. واقتنع بيجين بحجة بلومبيرغ، وأصدر أمراً بإلغاء إقالته. ومن الواضح أن بيجين فهم أن

برنامج إسرائيل النووي، وتطور الصواريخ الباليستية فيه، وأنشطته الاستخباراتية لم تكن دُمى سياسية يلعب بها.

وتأقلم ميلتشان سريعاً مع القادة السياسيين الجدد في إسرائيل، وكان شمعون بيريز صديقه المخلص، لكنه سرعان ما كون صداقات حميمة مع آخرين، ومنهم وزير الدفاع الجديد عيزر وايزمان. كانت صداقاته وعلاقاته عميقة ومنتشرة في كل الأطياف السياسية، بما جعله بمثابة جسر بين المؤسسة الاستخباراتية والحكومة الجديدة، وهو دور لا يزال يلعبه مذاك، في كل حكومة إسرائيلية تقريباً.

وفي الأعوام التالية، تسلمت إسرائيل ١٢٠ طائرة إف ١٥، وبحلول عام ١٩٨٠ عقب سقوط الشاه في إيران، حلت الطائرة إف ١٦ محلها في الترسانة الجوية الإسرائيلية. وكانت طائرات إف ١٦ تلك، مصنعة خصيصاً لأجل إيران لكن تم نقلها إلى إسرائيل بعد سقوط الشاه في ١٩٧٩.

في الواقع، تزامن حدثان في تلك الآونة حفزا على زيادة المعونة العسكرية الأمريكية إلى إسرائيل، أولهما كان الثورة الإيرانية، والتي أنهت اهتمامات ميلتشان بإيران، وثانيهما كان اتفاقية كامب ديفيد الموقعة في ١٧ سبتمبر عام ١٩٧٨. وبالرغم من أن سقوط الشاه كان هزيمة استراتيجية لكل من إسرائيل والولايات المتحدة، فقد عزز من مكانة إسرائيل بصفتها الحليف الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في المنطقة بأكملها، وكان جزء من اتفاقية كامب ديفيد يشترط زيادة كبيرة في المعونة العسكرية الأمريكية مقابل موافقة إسرائيل على الانسحاب الكامل من شبه جزيرة سيناء.

ولأول مرة استفادت أنشطة ميلتشان من اتفاقية للسلام، بالرغم من أن

المحرك الرئيسى لأرباحه كان قد ظل يتمثل فى أنظمة الدفاع العسكرى المتقدمة. وكان جيش الدفاع الإسرائيلى يعرف أن لطائرتى إف ١٥ وإف ١٦ منصات صواريخ متطورة، لكنها ستحتاج لأحدث الصواريخ لبلوغ كامل إمكانياتها. وهنا أتى ميلتشان وعملآؤه بتركيبة فاعلة منحت جيش الدفاع الإسرائيلى التفوق التكنولوجى النوعى على كل خصومه فى المنطقة.

كان صاروخ إيه آى إم ٧ سبارو الجوّ جو الموجه متوسط المدى النشط جزئياً، والذى بلغت قيمة الواحد منه ١٢٥ ألف دولار بأسعار ٢٠٠٩، مناسباً لجيش الدفاع الإسرائيلى. وكان سبارو ومشتقاته هى صواريخ جو/ جو تتخطى مدى الرؤية الأساسية فى الغرب حتى السنوات المتقدمة من التسعينيات. وكان من بينها أيضاً صاروخ إيه آى إم ٩ سايدويندر الحرارى قصير المدى الجوّ جو والذى تبلغ قيمته ٨٥ ألف دولار للصاروخ الواحد. وكانت شركة ميلتشان بروس هى والشركات التابعة لها تجلب الأنظمة، التى ثبتت فاعليتها المرة تلو الأخرى، من خلال إسقاطها مرات عديدة طائرات للعدو. وفى ٢٨ أبريل ١٩٨١، أسقط صاروخ إيه آى إم ٧ مروحية إم آى ٨ السورية سوفبيته الصنع وفى ١٤ يوليو من نفس العام دمر صاروخ إيه آى إم ٧ طائرة ميج ٢١ سورية.

ضخمت عمولات ميلتشان التى كانت تقدر بملايين الدولارات من تلك المبيعات حسابات إسرائيل السرية، ووسعت بشكل هائل مجال أنشطتها السرية فى أنحاء العالم ومداهها.

وقبل ذلك بشهر فى ٧ يونيو ١٩٨١، أقلعت قوة جوية ضاربة مكونة من ١٦ طائرة من قاعدة عتصيون الجوية فى شبه جزيرة سيناء، وحلقت على ارتفاع منخفض، عبر خليج العقبة، إلى جنوب الأردن، ثم عبر شمال السعودية. وأيضاً

ظلت طائرتان إف ١٥ تحلقان فوق السعودية لنقل الاتصالات والرسائل إلى إسرائيل.

ثم أكملت الطائرات الست عشرة من طراز إف ١٥ وإف ١٦ رحلتها حتى موقع مفاعل أورنراك النووي العراقي في التويثة. وكانت كل طائرة إف ١٦ تحمل قنبلتين من طراز "مارك" ٨٤ زنة ٢٠٠٠ رطل للقنبلة. وكانت تلك القنابل غير موجهة، وتتطلب المناورة بالقرب من الهدف. ووصلت القوة الجوية الضاربة بالقرب من أوريذاك بدون أن تُرصد وهي تحلق على ارتفاعات منخفضة وحامت حول نقاط كانت قد حددت مسبقاً لتبدأ جولات القصف، بينما كانت طائرات إف ١٥ تطوف في مسرح العملية لاعتراض المقاتلات العراقية التي قد تحتشد.

أصاب ثمانى قنابل، على الأقل، من بين القنابل الست عشرة التي أُلقيت على القبة العازلة للمفاعل ودمرته بالكامل. وكان ذلك من أول الأمثلة على الهجمات الدقيقة، وكانت تلك بالتأكيد أول هجمة مسجلة لتدمير منشأة نووية لبلد آخر. وعادت كل الطائرات الإسرائيلية سالمة إلى قاعدتها.

وتقلصت طموحات العراق النووية لتصبح كومة من الحطام، ولم تتعاف قط. واستمر تقدم برنامج إسرائيل النووي بأسلوب عدواني سريع.

عادت الكرايترون أو تلك الأنبوبة الكهربائية الصغيرة بريئة المظهر التي تستخدم أيضاً كأجهزة شديدة الفاعلية لإطلاق الانفجارات النووية، عادت في عام ١٩٧٩، مستترة في مؤخرة قائمة طويلة من القطع الحساسة التي أرسلتها ديبورا بن إسحاق في هيئة مشفرة إلى ريتشارد سميث في ميلكو.

لم يكن المال هو المشكلة بالتأكيد، بما أن مفاتيح الكرايترون كان ثمنها ٧٥ دولار للواحدة، ربما كانت أصغر وأرخص قطعة تم طلبها من قبل الشركات

المرتبطة بشركة ميلتشان بروس، والتي كانت آنذاك تطلب المواد الخام والتكنولوجيا بمئات الملايين من الدولارات. لكن المشكلة الكبرى كانت في الطبيعة الحساسة للغاية لتلك القطع الصغيرة وفي القدرة على تمريرها عبر جمارك الصادرات الأمريكية المزعجة.

ومن الواضح أن بلومبيرغ شعر أنه قد مر وقت كاف يسمح للقيام بمحاولة لتمريرها مرة أخرى. وبدلاً من طلب كمية كبيرة، حاول سميث إرسال شحنات عديدة مكونة من ٣٠ أو ٤٠ وحدة كرايترون على أمل أن تمر من تحت أنف الرادار. وقال سميث إن ميلتشان اتصل به شخصياً للتأكد من فهمه لأهميتها وضرورتها. وكان سميث يعتمد على ميلتشان بروس وكان تواقاً لإرضاء الشركة.

ويبحث سميث في كتاب لوائح صادرات وزارة التجارة ووجد أن الأنابيب الإلكترونية المعبأة بالغاز لها العديد من الأغراض التجارية. لاحظ أن اسم الفقرة الأنابيب الثنائية، الثلاثية، والخماسية وعنوانها الأنابيب المعبأة بالغاز. واستنتج أن تلك القطع، يمكن شحنها بدون ترخيص تصدير ذخائر. وكان بحوزة سميث كتالوج المصنع، والذي كان يحوى صورة مرسومة باليد للكرايترون، الذى بدا بالضبط وأن ثمة خمسة أسلاك تخرج منه، بما يجعله أنبوباً خماسياً. وقرر بعد ذلك استخدام كتاب لوائح وزارة التجارة للمفاتيح الخماسية على الغلاف، وكان اكتشاف السلطات الأمريكية لشحنات الكرايترون إلى شركة ميلتشان بدون رخصة ذخائر لابد وأن يكون مصدراً لحيرته.

ويدا الأمر وكأنه مجازفة، بالنظر لأن شركة ميلكو قد رُفض طلبها لاستصدار تراخيص تصدير الكرايترون في الماضى. وفي حالة ظهور محاولة التصدير السابقة، ستكون حجتة هي "عُذراً! لقد نسيت". وكان مقرراً لشحنات الكرايترون

أن ترسل إلى شركة هيلي تريدينغ لميتد، وهي شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس، تستخدم في الأساس لصفقات المروحيات. وسجل المستخدم النهائي مجدداً بأنه شركة روحوفوت إنسترومينتس لميتد. وتم تصميم الشحنات بحيث تتجنب الشكوك وكتب عليها أنايب الكاثود البارد المعبأة بالغاز. ولم تذكر كلمة كرايترون. وكانت تلك الأولى من ١٣ شحنة، بإجمالي ٨١٠ مفتاح نووى على الأقل، أرسلت من شركة ميلكو كل بضعة أشهر ما بين أعوام ١٩٧٩ و١٩٨٢.

وبالرغم من أن ميلتشان كان قد وعد في الأصل بتمرير معظم المشروعات مع كبار متعهدي معدات الدفاع العسكري الأمريكية عبر شركة ميلكو، فقد فهم سميث وتوقع أن دوره لا يتعدى عميل واجهة، إذ يؤمن الأغراض الغربية التي يصعب الحصول عليها، وأن ميلتشان استخدم خيارات أخرى للعمليات المعتادة. وهكذا، وربما بدون أن يدرك، أصبح سميث عميلاً آخر في وكالة لاكم.

وتمكن سميث من شحن محتويات قوائم إسرائيل الطويلة من المنتجات الحساسة، مثل المحاكيات التدريبية لصواريخ الدفاع الجوي، وأجهزة التشويش على الصوت والليزر، وأنظمة الطيران ذات التحكم الآلي، البطاريات الحرارية، الجيروسكوب لأنظمة توجيه الصواريخ، وأى شيء آخر تقريباً قد يحتاجه بلد ليتحول إلى قوة عظمى عالية التقنية مسلح نووياً.

وبالرغم من عدم تركيزه، كان سميث عميلاً مأكراً، واسع العلاقات، له تصريح أمنى متقدم مكّنه من البحث عن المكونات المصيرية لإسرائيل في وضع النهار وشرائها وشحنها. وكان دوماً في إخطار الاستخبارات الأمريكية بأنشطته وفي تقديم نفسه كرجل أمريكي وطني. لكن الشيطان كان يكمن في التفاصيل.

طالما كانت الطلبات تُسلم، كان حساب سميث المصرفي ينمو ومعه حساب

الشركة نفسها. وبخلاف زوجته وأبنائه، فقد انضم إلى الشركة العديد من الموظفين، وتم افتتاح مكتبين فرعيين صغيرين آخرين في منطقة واشنطن دي سي، في الأساس للمساعدة في تأمين التراخيص المتعددة للصادرات، وللحفاظ على العلاقات مع الموردين، والذين كان لدى أغلبهم مكاتب في تلك المنطقة، وتم تعيين غريثيل سيلر ابنة سميت مسنول حسابات وأمين خزانة للمؤسسة، وكانت هي الأخرى على دراية تامة بالصفقات التي تتضمن شراء الكرايترون وأغراض أخرى.

وعين ميلتشان العديد من زملائه المحترفين الموهوبين في مجلس إدارة ميلكو، مثل روبرت مينهارت وهو عالم نووى جليل، وأرثر بيهل المدير السابق لتصميم القنبلة الهيدروجينية في معمل لورانس ليفرمور الوطني، وإيفان أليكساندر غيتينغ وهو عالم فيزياء وهندسة كهرباء ينسب إليه اختراع نظام "تحديد المواقع الكوكبي" أو "جى بى إس". وعندما انضموا لمجلس الإدارة، زعموا أنهم كان لديهم انطباع بأنهم ينضمون لشركة تتعامل مع تطوير أنظمة الطيران للقوات الجوية الأمريكية ولوكالة ناسا.

كانوا يعرفون ويحترمون ريتشارد كيلي سميت من مجالس الإدارة المتعددة والمهام التي خدموا فيها معاً في البنتاجون. ومثل سميت فقد كان لديهم كلهم تصاريح أمنية بالغة السرية تمكنهم من الوصول لأحدث التكنولوجيا العسكرية الأمريكية والمتعلقة بالطيران، وكانوا مؤهلين جيداً للجلوس ضمن مجلس إدارة أى شركة فضاء جوى.

وأثناء العام ذاته، وقعت ميلكو عقداً تمدّ بمقتضاه كل أنظمة التحكم للطائرة لافى، وهى طائرة مقاتلة إسرائيلية متقدمة وأعدة متعددة الأغراض، وكان الغرض

منها أن تحل محل أسطول طائرات سكايهوك العتيق لتصبح الطائرة المقاتلة الأولى، وهو مشروع تم إجهاضه لاحقاً عام ١٩٨٧. تحت ضغوط أمريكية على إسرائيل لشراء الطائرة إف ١٦ بدلاً منها. ولسداد تكلفة طائرات "لافى" باعت إسرائيل تصميماتها إلى تايوان ولاحقاً إلى الصين، والتي طورت الطائرة شينغندو جيه ١٠ المتقدمة اعتماداً على تصميمات لافى.

ولم تكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية رسمية مع الصين حتى مطلع التسعينيات، لكن فى السبعينيات ومطلع الثمانينيات ركز ميلتشان على تايوان كسوق مفتوح طبيعى. ووفقاً لسميث، فقد كانت ٢٠٪ من إجمالى مشاريع شركة ميلكو مع تايوان. وكانت تايوان وليست الصين هى أكثر من استفاد من صفقات تكنولوجيا الدفاع العسكرى مع ميلتشان وميلكو. وكما هو الحال مع جنوب إفريقيا، فقد تعاملت إسرائيل كوكيل عن الولايات المتحدة، وكانت تمد تايوان بأنظمة الأسلحة والتكنولوجيا النووية بعد أن شعرت الولايات المتحدة بعدم الارتياح لفعل ذلك نظراً لعلاقتها بجمهورية الصين الشعبية. وكما هو الحال مع جنوب إفريقيا، فقد عمل ميلتشان كوسيط فى تلك العلاقة.

وفى النهاية اقتنع الصينيون وفتحوا علاقات ثنائية مع إسرائيل، مما أدى لانخفاض شديد فى شحنات الدفاع العسكرى الإسرائيلية إلى تايوان وزيادة المبيعات فى الصين، ولم يكن ثمة حاجة لوجود وسطاء. وبحلول عام ١٩٩٢، تحققت العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين إسرائيل وجمهورية الصين الشعبية، وتقلصت مبيعات ميلتشان فى تايوان كلياً تقريباً.

بالإضافة لإمداد الحكومات الأجنبية باحتياجاتها، شجع ميلتشان سميث على تكوين صورة محترمة وشرعية لميلكو كشركة تخدم مصالح احتياجات الدفاع

العسكري الأمريكية بالعمل مع وزارة الدفاع الأمريكية البنتاجون. لكن بالطبع، كانت مهمته الكبرى هي توفير الإمدادات لاحتياجات الدفاع العسكري الإسرائيلية وفقاً لعضوى مجلس إدارة شركة ميلكو إيفان غيتينغ وأرثر بيهل، فقد لاحظا منذ البداية المبكرة لعمليهما في شركة ميلكو أن سميث كان يقضى معظم وقته ويبدل طاقته في شراء مواد ومعدات مزدوجة الاستخدامات لإسرائيل، تشمل مواداً ذات طابع نووى. وكان سميث يسعى جاهداً لشراء منتج مشتق من اليورانيوم اسمه الملح الأخضر يمكن معالجته ليصبح في جودة يورانيوم الأسلحة. وفي هذا، يقول بيهل "لم يكن لدى دليل على حدوث أى شيء مخالف وظننت فقط أنها طريقة غريبة لأداء العمل، وكنت أتساءل لم يدفع الإسرائيليون تلك المصاريف بينما يستطيعون أن يشتروا نفس المعدات مباشرة بأموال المعونة الخارجية الأمريكية".

ظل هناك تساؤل حول لجوء إسرائيل لاستخدام وسيط تدفع له تكاليفه على الرغم من أن الولايات المتحدة لم تمنع في تلقى إسرائيل تلك الأغراض. وعندما سألته صحفى من جريدة واشنطن بوست بعد أعوام عن سبب استخدام إسرائيل وسيطاً لجلب بعض الأغراض، أجاب يوسى غال المتحدث باسم السفارة الإسرائيلية باقتضاب لأن إسرائيل تفضل أحياناً استخدام خدمة الوسطاء، وما لم يستوعبه صحفى واشنطن بوست أن عمليات الشراء الإسرائيلية بأموال المعونة الخارجية الأمريكية كانت يوثق لها في السجلات العامة، لكن استخدام الوسطاء صعب على المراقبين الخارجيين متابعة ما تشتريه إسرائيل بالضبط، بما أن المبيعات لم تكن إلى الحكومة الإسرائيلية، لكنها كانت إلى كيان آخر، وأحياناً إلى كيانات متعددة. وفي الواقع، كانت تلك من ممارسات الاستخبارات المضادة الشائعة. أما حقيقة أن العمولات كانت تستخلص من العمليات وتحول إلى حسابات سرية يتحكم فيها ميلتشان لتمويل أنشطة إسرائيل السرية فلم تدخل

فى صلب النقاشات الدائرة.

وكانت الإدارة الأمريكية على اطلاع إلى حدٍ كبير بتلك الأنشطة، واتبعت سياسة لا تسأل، ولا تخبر والموافقة المضمرة غير الرسمية. لكن لم يكن بالإمكان إرسال تلك الرسالة إلى المستويات الدنيا من المسؤولين عن تطبيق القانون.

وصف روبرت مينهارت عضو مجلس إدارة ميلكو والعالم النووي فى برنامج ٦٠ دقيقة على شبكة سى بى إس فى عام ١٩٩٠ كيف بدأ يشعر بعدم الارتياح لشركة ميلكو بعد واقعتين تتعلقان بميلتشان. حدثت الأولى عندما سأل ميلتشان عن تصميمات مفاعل نووى متقدم، والثانية حينما طلب ميلتشان عنصر الكلور السداسى، وهو عنصر آخر مفيد فى عملية تخصيب اليورانيوم. ويزعم آرثر بيهل أن ميلتشان قدمه شخصياً إلى مسئول إسرائيلى سألّه عن طريقة الوصول إلى المواد النووية من دون اللجوء للحكومة. ويزعم بيهل أنه أبلغ المباحث الفدرالية إف بى أى بتلك الواقعة فى الحال واستقال من مجلس إدارة شركة ميلكو. وبحلول عام ١٩٨٢، كان الثلاثة كأعضاء فى المجلس قد استقالوا من مجلس الإدارة. وبالإمكان النظر إلى تصريحاتهم اللاحقة فى سياق أنهم رجال كانوا يسعون لحماية أنفسهم بعد الأفعال التى ارتكبوها. ويزعم ميلتشان أن حديثه مع روبرت مينهارت لم يأت به أى ذكر لمفاعل نووى، وكان بخصوص تطوير نظام جديد يترجم النوتة الموسيقية إلى اتصالات مرئية، وهو مشروع كان يعمل عليه وصديقه الممثل ريتشارد دريفوس. ولعب دريفوس دور البطولة فى فيلم "كلوس إنكاونترز ويذ ذا ثيرد كايند" من إخراج ستيفن سبيلبرغ، والذى عرض نظاماً كهذا للتواصل مع الفضائيين.

وبالرغم من الاستقالات، كانت شركة ميلكو تعمل بكامل كفاءتها. وأثناء كل

تلك الفترة، استمر سميث في العمل في مجلس إدارة شركة روكويل إنترناشونال. وعلى الرغم من أن منصبه لم يكن يتطلب عملاً كثيراً، فقد سمح له بالحفاظ على تصريحه الأمني بالغ السرية.

في تلك الأثناء، كان اهتمام ميلتشان بالأفلام يتزايد. وكان استثماره الأول والوحيد الحقيقي في السينما الإسرائيلية فيلم إسرائيلي اسمه ديزنغوف ٩٩، من إنتاج عام ١٩٧٩ عن مجموعة من الشباب الإسرائيليين الذين -مثل ميلتشان- أضيّبوا بعدوى فيروس صناعة الأفلام ويسعون لصناعة فيلم للتوعية الاجتماعية. وترك فيلم ديزنغوف ٩٩ علامته في إسرائيل بفضل مشهد جنسى طويل وجريء بالنسبة لتلك الحقبة، تمارس فيه البطلتان "أنات أترمون" و"جالي أتاري" الجنس في ذات الوقت مع بطل الفيلم غيدى غوف. وينتهي الفيلم برحيل غوف عن إسرائيل إلى الولايات المتحدة بعدما أصابه الإحباط من محدودية صناعة السينما بإسرائيل وصعوبتها.

سئل ميلتشان مرات عديدة عن سبب عدم استثماره ثانية في صناعة السينما الإسرائيلية منذ فيلم ديزنغوف ٩٩. يمكن التوصل للإجابة بطرق شتى في نص الفيلم نفسه. لم يكن ميلتشان يهتم بالسوق المحلي المحدود، وكان يهدف إلى تنفيذ مشروعات كبرى. وأراد أن ينتج أفلاماً يشاهدها العالم بأكمله وعنه. ولم تكن السوق المحلية الصغيرة تناسب طموحاته الواسعة أو احتياجاته المهنية.

وفي ١٢ مايو عام ١٩٨٠، افتتح ميلتشان مسرحيته الموسيقية الثانية في برودواي بعنوان "من اللطيف أن تكون متحضرًا"، في مسرح مارتن بيك في نيويورك هذه المرة. واستمر العرض لـ ٢٣ دورة بحشود أجهزت على تذاكره. وبعد ذلك أتى النقد اللاذع من الناقد المسرحي في جريدة نيويورك تايمز فرانك

ريتشارد، وفي الليلة التالية بيعت ١٤ تذكرة فحسب.

كانت تلك تجربة مريرة وأنهت مؤقتاً مسيرة ميلتشان القصيرة كمنتج لمسرحيات برودواي الموسيقية. وبدلاً من ذلك وجه انتباهه لمسلسل تليفزيوني مثير كان يفكر فيه. وسرعان ما طرح على شبكة إيه بي سي فكرة مسلسل قصير تارخي عن الحصار الروماني القديم لماسادا. وأعلن اقتراحه هذا عندما كانت المسلسلات التاريخية القصيرة لا تزال في قمة نجاحها، وبدأ الأمر بمسلسل "الجزر" عام ١٩٧٧، وجزئه الثاني "الجزر: الجيل التالي" عام ١٩٧٩، وعرض كلاهما على شبكة إيه بي سي. ونافستهما شبكة إن بي سي بمسلسل "شوغون" الناجح، والذي رواه أورسون ويلز وقام ببطولته ريتشارد شامبرلين.

حتى آنذاك، كانت شبكة إيه بي سي مهيمنة على ذلك النوع من الأفلام حتى بمسلسل "شوغون" لذا، ودّت لو استطاعت الرد على منافستها، واقترح ميلتشان ما شعروا وأنه فكرة ملائمة. وبالطبع كان من المقبول أنه أخذ على عاتقه التوقيع على عقد ضمان إكمال العمل لتمويل المشروع بأكمله، بالاشتراك مع استوديوهات يونيفرسال. وأعطيت إشارة البدء من مديري شبكة إيه بي سي. وأتاحت تراجيديا "ماسادا" القديمة فرصة جيدة لإسرائيل لشرح معضلتها الأمنية الصعبة للجمهور الأمريكي ولتوضيح سبب احتياج إسرائيل، ذلك البلد الصغير المحاط بأعداء أقوى منه بمراحل، اتخاذ إجراءات استثنائية حتى لا تسقط "ماسادا" مجدداً أبداً.

وتمكن ميلتشان من توفير كل الدعم الذي يمكن تخيله من الحكومة الإسرائيلية، والتي سرعان ما أدركت أهمية العلاقات العامة. اقترح موشيه ديان إنشاء سلم صعود يؤدي إلى قمة الجبل التاريخي، ليحاكي السلم الذي بناه الرومان للاستيلاء على الحصن وصدّق وزير الدفاع عيزر وايزمان على الاقتراح.

صمم السلم المهندسون أنفسهم الذين صمموا الجسر الإسرائيلي عبر قناة السويس أثناء حرب يوم الغفران. واختار ميلتشان الممثل الإنجليزي الشهير بيتر أوتول بطل فيلم لورانس العرب، ليلعب دور لوشيوس فاليفيوس سيلفا، الجنرال الروماني في أواخر القرن الأول الميلادي، وحاكم إمارة يهودا، والذي قاد الجيش الروماني إلى حصن قمة الجبل بعد حصار طويل. وتم اختيار بيتر شتراوس أيضاً ليلعب دور إلعازر بن يائير، قائد اليهود المحاصرين والذين انتحروا جماعياً في النهاية. وأثناء التصوير، احتفل ميلتشان بطقس بلوغ ابنه ياريف في قاعة طعام الموظفين في معهد وايزمان في روهوفوت. وكان طاقم الخدمة يرتدون أزياء موقع تصوير مسلسل "ماسادا".

كان مسلسل ماسادا أول نجاح مالي ونقدي يحققه ميلتشان في عالم الاستعراض. احتفى به النقاد وتم ترشيحه لعدة جوائز، ورشح الممثل بيتر أوتول لجائزة إيمي لأحسن ممثل، وفاز الممثل ديفيد وارنر الذي لعب دور السيناتور بومبينوس فالكو، بجائزة إيمي لأحسن ممثل مساعد. ولاحقاً تم تنقيح المسلسل القصير في فيلم مدته ساعتان كفيديو ولاحقاً على الدي في دي، ومن توزيع يونيفرسال.

تعرف ميلتشان أثناء أول تعامل له مع استوديوهات يونيفرسال، على سيدنى شاينبرغ رئيس مجلس إدارة شركة إم سى إيه إنك، وهي الشركة الأم لـ يونيفرسال. وما لم يكن يعرف ميلتشان، أنه أثناء إنتاج مسلسل ماسادا كرهه شاينبرغ في الحال، إذ رأى أن ميلتشان تفاوض لتحقيق مكاسب ضخمة لنفسه من إنتاج المسلسلات الصغيرة والالتزام بتكلفتها. أما في الحقيقة، فقد أظهر ميلتشان خبرة واسعة في المشاريع لم يتوقعها شاينبرغ من منتج مبتدئ. وبمساعدة صديق ميلتشان سيدنى بولاك منتج مسلسل ماسادا المشارك والمخرج

المخضرم الحائز على جائزة الأوسكار، اكتشف ميلتشان عديم الخبرة العديد من الأخطاء فى جدول التصوير كانت لتؤدى إلى تخطى معدل الميزانية بكثير. إذ كان الجيش الرومانى بأكمله سيتم تصويره وهو يعبر الصحراء فى نصف يوم، وكان احتراق القدس سيتم تصويره فى ليلة واحدة. وعندما بين بولاك استحالة ذلك، عاد ميلتشان إلى يونيفرسال وأعاد التفاوض بشأن الشروط، مما ضايق شاينبرغ.

ولم يكن شاينبرغ من الأشخاص الذين يظهرن ما يبتنون من مشاعر، لكنه توصل لاحقاً لطريقة لوضع عقبات خطيرة فى طريق ميلتشان، والتي أدت لخصومة أسطورية وشديدة العلانية فى هوليوود.

وبالرغم من تلك العداوة الهوليوودية، فقد اعترف ميلتشان أكثر من مرة بأنه من أشد المعجبين بل إنه حتى مهووس بالعديد من الممثلين. وليست مصادفة أن الكثيرين يحبون مقارنته بجاتسبى العظيم، البطل الخيالى لرواية إف سكوت فيتزجيرالد "ذا غريت جاتسبى" الثرى القامض إذ إن مصدر ثروته لم يكن مفهوماً بشكل كلى وأحاطت به الشبهات، كما أنه يجسد بطرق شتى تشويه الحلم الأمريكى. ومثل جاتسبى فقد شعر ميلتشان بحساسية هائلة تجاه "وعود الحياة"، كما جاءت أوصافها فى رواية فيتزجيرالد. وكان ينزع إلى اجتذاب عليه القوم، والناجين، والفائزين من خلال صراحته وحس دعايته وأمواله.

كان أحد أقرب أصدقاء ميلتشان هو المخرج البولندى رومان بولانسكى، الذى أخرج أفلاماً شهيرة مثل "روزماريز ييبى" و"تشايناتاون". بولانسكى الناجى من المحارق النازية، كان متزوجاً فيما مضى من الممثلة شارون تيت، والتي قتلت بخسة فى منزلها على يد عائلة مانسون بينما كان بولانسكى مسافراً يصور

فيلمًا في أوروبا. كانت تيت حاملاً بطفل بولانسكى آنذاك. هرب بولانسكى لاحقاً من الولايات المتحدة إلى فرنسا بعد اتهامه بممارسة الجنس مع فتاة قاصرة.

وبعد هروبه من الولايات المتحدة، واجه بولانسكى صعوبة في جمع تمويلات لمشاريعه بسبب عدم قدرته على العمل في هوليوود. وذات يوم في باريس عام ١٩٧٨، قابل أحد أكبر معجبيه وهو ميلتشان. وبعد ذلك بفترة وجيزة، بدأ الاثنان يتعاونان في مشروع فيلم جديد اسمه "بيراتس" أو القراصنة، وهي كوميديا سوداء تسخر من أفلام القراصنة الهوليوودية.

اتفقا على ٢٠ مليون دولار ميزانية للفيلم، وأقنع ميلتشان بولانسكى بإنتاج الفيلم في إسرائيل. وعين صديقه عيزر وايزمان، والذي كان قد ترك للتو منصبه كوزير للدفاع ليكون المنتج المنفذ للفيلم، المسئول بشكل عام عن بناء سفينة قراصنة عملاقة في حوض بناء السفن في ميناء حيفا. وكان كل شيء يسير على ما يرام حتى أخذ بولانسكى إجازة في مدينة بالي، حيث بدأ في إعادة كتابة السيناريو، بما أدى إلى زيادة في الميزانية قدرها ١٨ مليون دولار.

في ذلك يقول ميلتشان "بإمكان بولانسكى أن يتصرف كصبي صغير أحياناً، وقد أصر بعناد على ميزانية لم أكن مستعداً لزيادتها. ومن ثم، حزم عتاده وترك المشروع. ولم نتحدث لعامين، ولحسن حظي، تمكنت من بيع سفينة القراصنة إلى شركة الكهرباء الإسرائيلية، والتي استخدمتها في نقل الفحم إلى محطات الكهرباء".

وبعد عامين في ١٩٨١، تلقى ميلتشان مكالمة من حيث لا يحتسب من بولانسكى بخصوص مسرحية كتبها الكاتب المسرحي الإنجليزي بيتر شافر، واسمها أماديوس. وأراد بولانسكى أن يعرض المسرحية في مسقط رأسه في

بولندا، في أوج نشاط حركة التضامن والاضطرابات السياسية الهائلة، كإعلان للمساندة.

وبالرغم من أن ميلتشان لم يفكر في أن الاحتمالات الربحية تستحق المجازفة من وجهة النظر العملية، إلا أنه مول المشروع كتعبير فكري، وكتصرف تقويضي ضد النظام الشيوعي. وكان يحذره الفضول أيضاً بالنسبة للبلد الذي هرب منه جده قبل أعوام.

ولد حاييم إيلعازر ميلتشان جد أرنون والذي ترك تأثيراً بالغاً على حياة أرنون، في يوم بارد في ديسمبر عام ١٨٧٩ على حافة بحيرة اصطناعية صغيرة جميلة، وهي نتاج سد صغير بناه أسلاف أرنون على مشارف مدينة غونيداز في منطقة باوستوك في الركن الشمالي الغربي من بولندا الحالية.

وفي الرابعة عشرة من عمره، سافر حاييم مسافة كبيرة جنوب أوديسا على البحر الأسود، وحده، حيث استقل سفينة إلى فلسطين العثمانية ووصل إلى ساحل مدينة يافا، أقدم مدنية يعمرها السكان بأسلوب مستمر في العالم، في مطلع ربيع عام ١٨٩٤ .

وبعد ثمانية أعوام كعامل في مزرعة، في عام ١٩٠٢ اشترى في النهاية، أرضاً في مجتمع روحوفوت الجديد، حيث أصبح عضواً مؤسساً هاماً لهذا المجتمع وأقام أحد أكبر كرمات العنب في المنطقة. وخلال أشهر تزوج من جدة أرنون إيستر شلنك من القدس، وأنجبا ٧ أبناء، ومنهم ابنه دوف والد أرنون.

ومن جهته فقد تمكن بولانكسي، وهو مواطن بولندي، من توفير العوامل اللوجيستية لمسرحية أماديوس، وبدأ إنتاج المسرحية في ظل ظروف صعبة. كانت المسرحية بمثابة تعبير قوي في بلد لم يكن قد شهد منذ أعوام إنتاجاً فنياً مثل

هذا. وكان الهدف الرئيسى منها هو رفع الروح المعنوية للبولنديين، والذين عاشوا عقوداً من الاستبداد وما يصاحبه من قيود ثقافية. وقرر أرنون أن يساهم بكل عائدات المسرحية لحركة التضامن لشراء أى شىء يحتاجونه لدعم الثورة فى أهم لحظاتها المصيرية.

وعرضت مسرحية أماديوس ثلاث عشرة مرة أمام جمهور واقف، وتجمعت صفوف طويلة خارج المسرح فى كل عرض على أمل أن تتوفر أية تذكرة. كان تاديوس لمونيكى من أهم الممثلين والمخرجين فى بولندا والذى وصف المسرحية كظفرة ثقافية قائلاً "ربما تكون أماديوس السمار الذهبى فى نعوشنا" فى إشارة إلى النظام السياسى البغيض. ولم يتمكن أرنون من السفر إلى بولندا، لذا كان بولانسكى بمثابة عينيه وأذنيه، وقد يذهب البعض إلى وصفه بوكيله.

وخلال أشهر تم حبس قائد حركة التضامن ليخ فاونسا، ومضت ثمانية أعوام قبل أن ينهار النظام الشيوعى. وبعد ٩ أعوام وفى ديسمبر ١٩٩٠، تم انتخاب فاونسا رئيساً للبلاد، وكانت دعوة أرنون لزيارة بولندا، ليكرمه على إسهاماته من أجل حركة التضامن فى أوج الصراع، من بين أول قراراته.

سافر ميلتشان إلى وارسو يصحبه روبرت دى نيرو ورومان بولانسكى وصديقه مانير تيبير، ثم توجهوا إلى حوض سفن غدانسك حيث بدأت الثورة، وقابلوا قائد حركة التضامن سابقاً والذى أصبح الرئيس ليخ فاونسا.

شجعهما نجاحهما فى وارسو، فقرر ميلتشان وبولانسكى عرض المسرحية فى مسرح ماريغنان فى شارع الشانزليزيه فى باريس، حيث لعب بولانسكى دور موتسارت أى دور البطولة. وهناك أيضاً حقق نجاحاً ساحقاً وكان بإمكان العرض أن يستمر لسنوات. لكن بولانسكى أخبر الكاتبة لويز بارداخ فى مقابلة

مع مجلة إل إيه، "لكننى لن أستطيع تقديمها للأبد" لأنها عُرِضت لعام كامل.

ويصف بولانسكى ميلتشان بأنه رجل أعمال مخضرم يلتزم بكلمته ومنضبط. ومن المفهوم أن يظل بولانسكى مخلصاً لميلتشان، الذى وقف بجواره فى وقت بدا فيه أن مسيرته المهنية لن تتعافى، ومنذ مسرحية أمادىوس ظل الاثنان صديقين مقربين.

عُرِضت على أرنون فكرة تحويل المسرحية لفيلم طويل. وفكر فى الأمر بضع دقائق قبل أن يرفض هذا العرض، "لن تترجم بشكل جيد إلى فيلم سينمائى" قالها ميلتشان بثقة ويتأكد خاطئ: بل إنه حاول حتى إقناع المخرج ميلوس فورمان تجنب النسخة السينمائية، والتى جلبت لفورمان فى النهاية جائزة الأوسكار كأفضل مخرج لعام ١٩٨٤. ولم تكن تلك المرة الأخيرة التى رفض فيها ميلتشان فكرة تحولت لاحقاً إلى فيلم ضخم يهز أطراف الأرض فى مجال الترفيه.

استمر بولانسكى فى استشارة ميلتشان فى توزيع أفلامه، ومنها فيلم مستوحى من أمر حساس يخص صديقه المقرب. فى عام ١٩٨٨، ألف بولانسكى وأخرج فيلم "فرانتيك" أو المسعور، من بطولة هارىسون فور. ويلعب فيه فور دور الطبيب ريتشارد ووكر، وهو جراح أمريكى يزور باريس مع زوجته لحضور مؤتمر طبى. وفى غرفتهما فى الفندق، تكتشف زوجته أنها ربما أخذت الحقيبة الخطأ من المطار.

وبينما كان ووكر يستحم، اختفت زوجته من غرفة الفندق. وافترض أنها نزلت إلى مكتب الاستقبال للتعامل مع شأن الحقيبة. وعندما لم تعد، أصابه القلق وبدأ يبحث عنها فى أرجاء الفندق. وتتصاعد الحبكة عندما يطلب مساعدة طاقم

الفندق المذهبين وغير المباليين، ولكنه لا يلقى نجاحاً. ثم بعد ذلك يهيم في الشوارع بحثاً عنها.

يسترقق السمع شخص عابر في الشارع وهو في المقهى ويخبر ووكر أنه رأى زوجته تساق بالقوة إلى سيارة، ويتشكك ووكر في ذلك حتى يجد السوار الخاص بزوجته على الرصيف. ويتصل سريعاً بالسفارة الأمريكية وبشرطة باريس لكنهم يستجيبون بشكل بيروقراطي، ويتضائل الأمل لديه في أنهم سيبحثون عنها.

ثم يظهر أن الحقيبة، كانت تحتوى على نسخة مصغرة من تمثال الحرية، مخبأ به وحدة كرايترون، وهى ذات الآلية القادرة على تفجير الأجهزة النووية والتي عمل ميلتشان جاهداً للحصول عليها.

ينتهى الفيلم بمواجهة حيث يطلق الإرهابيون العرب سراح زوجة ووكر. لكن، تقوم معركة حامية بالرصاص بين الإرهابيين والموساد الإسرائيلى الذين كانوا يقتفون أثرهم. يلقى ووكر وهو غاضب ومستاء وحدة الكرايترون فى النهر، مما يجعلها غير ذات نفع.

ويبين الفيلم الذى أنتج عام ١٩٨٨، الإجراءات الخطيرة التى تتخذ لنقل وحدة كرايترون واحدة. أما فى الواقع، فقد اشترى ميلتشان المئات منها ونقلها. وفى الواقع أيضاً، ما كان لبولانسكى أن يعرف بأهمية الكرايترون أو بوجوده بدون صديقه أرنون.



وفى عام ١٩٨١، يقابل بنيامين بلومبيرغ أخيراً نده أرييل شارون الملقب بالبلدور، والذى كان قد تم تعيينه وزير الدفاع الإسرائيلى الجديد. وقرر شارون

استبدال بلومبيرغ برافى إيتان صديقه المقرب منذ سنوات كثيرة ورئيس الموساد السابق، إذ رأى أن منصب رئيس وكالة لاكام من أخطر المناصب فى منظومة الدفاع الإسرائيلية الكبيرة. واستمر التناحر الداخلى لبضعة أشهر، لكن فى النهاية اكتملت عملية الإبدال. وكان رافى إيتان ذو الأعوام الخمسة وخمسين رجلاً قصير القامة يلبس نظارات سميكة وله تاريخ طويل فى الموساد. كان إيتان شخصياً هو من قاد الفرقة التى ألقت القبض على أدولف إيمان فى الأرجنتين. وكان يعرف ميلتشان جيداً، وعلى دراية كاملة بأنشطته التى يقوم بها نيابة عن لاكام.

وخلال أيام من رئاسته للاكام، دعا ميلتشان لمكتبه الحديث. ولم يكن هناك حاجة للشكليات. وعقب الاجتماع حان وقت العمل كالمعتاد. وكانت ديورا مساعدة ميلتشان تعمل بشكل يومى مع رئيس لاكام الجديد. وعقب ذلك بفترة وجيزة، تلقى ريتشارد كيلي سميث الطلبية الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون من شركة هيلى تريدينغ لميتد. وبدأ يورد الطلبية بالطريقة التى صارت معتادة آنذاك، وهى تصريح التصدير المعتاد من وزارة التجارة. ووثق قسم المحاسبة فى ميلكو إجمالى ٨١٠ مفتاح كرايترون تم شراؤها بإجمالى ٦٠٧٥٠ دولار.

لكن الشحنة الرابعة عشرة من مفاتيح الكرايترون كانت مختلفة. تلك المرة عندما وصلت المفاتيح لشركة ميلكو قادمة من مصنعها إى جى أند جى فى ماستشوستس، كانت هناك جملة واضحة على الصندوق التحذير: تصدير هذا المنتج يتطلب ترخيص تصدير ذخائر.

وكان ذلك الملصق جزءاً من حملة على نطاق أوسع فى الولايات المتحدة للتضييق على الصادرات مزدوجة الاستخدامات ذات التطبيقات النووية. وشعر

سميث بقشعريرة باردة تعبر في جسده. وتذكر أنه واجه تلك العقبة من قبل، لكنه كان واثقاً أنه سيجد ثغرة مناسبة. وفي تلك المرة راجع الدليل السميك لتراخيص تصدير الذخائر ولم يسعد عندما رأى الكرايترون مدرجاً بين قوائمه، في فئة تطبيقات الأسلحة النووية.

لكنه قرر مجدداً أن يتجاهل مطلب ترخيص الذخائر وأرسل شحنة الكرايترون الرابعة عشرة بالطريقة المعتادة. وتمنى أن تمر تلك الشحنة بدون أن يلحظها أحد شأنها شأن الشحنات الأخرى.

كان ياما كان في «أمريكا»

وكتك تلقى بنفسك إلى ذلك المجال لكي تهان، ولكي تكون المغفل التالي فيه.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس في أبريل ٢٠٠٠

في يوم رأس السنة عام ١٩٨٣، قبل أيام من عرض فيلمه الجديد وهو "ذا كينغ أوف كوميدى"، كان أرنون ميلتشان في نيويورك، منشغلاً بالعرض الأول لأحد أهم الأفلام في مسيرته.

وفى مكان بعيد آخر، وصل ريتشارد كيلي سميث وزوجته إميلي إلى مكاتب شركة ميلكو فى هنتنغتون بيتش ليعملا على بضع طلبيات. وكان المبنى الإدارى خالياً، وهادئاً، وتمنى الاثنان أن ينجزا بعض العمل المثمر. ولم يكن هذا غريباً عليهما، إذ كانا يجدان صعوبة فى التركيز بينما يحوم حولهما سبعة موظفين وأجراس الهواتف ترن بلا انقطاع.

وكانت العطلات الأسبوعية والإجازات وقتاً مناسباً لإنجاز بعض الأعمال.

وما أن وصلا المبنى، ذهب كل منهما إلى مكتبه. فى البداية ولم يلاحظا أى شىء غير معتاد، إلى أن أرادت إميلي أن تكتب شيئاً على الآلة الكاتبة. ومشت حتى منطقة الاستقبال ولاحظت أن الآلة الكاتبة غير موجودة. ثم نظرت حولها ولاحظت اختفاء بعض أجهزة الحاسوب، فصرخت تستدعى زوجها ريتشارد الذى انزع قلبه

خوفاً وأتى مهرولاً.

وتفقدوا سريعاً كل مكتب، وكل غرفة، وكل منطقة تخزين، وحتى المخزن الخلفي. اختفت الأجهزة الكهربائية وجهاز التشويش على الإشارات، وهو جهاز بالغ الحساسية. كانت وزارة الخارجية قد رفضت تصدير تلك الأجهزة جميعها إلى إسرائيل.

وكانا يعرفان أن الحواسيب المفقودة تحوى معلومات سرية.

وكان أول ما خطر ببالهما هو التجسس. وانتابهما إحساس عميق بالانتهاك، وجنون الارتياح، والخوف. وأدرك ريتشارد أن تصريحه الأمني يلزمه بالإبلاغ بحالات الاقتحام للمباحث الفدرالية. أى مشاكل ستتجم عن هذا؟ وعلم أن أول سؤال سيطرح عليه سيكون:

مَنْ في رأيك فعل هذا؟

وتذكر آخر مكالمات هاتفية بينه وميلتشان، حيث أخبره أنه قد فُرضت عليه معايير أكثر صرامة، وأنه لن يستطيع الاستمرار في إرسال مفاتيح الكرايترون بنفس الطريقة.

"لماذا لا ترسلها كما كنت تفعل من قبل؟" سأل ميلتشان. بين له سميث أنه لم يعد يستطيع فعل ذلك، وفي النهاية وضع ميلتشان السماعة في وجهه، محبطاً. وكانت تلك آخر مرة يتلقى فيها سميث مكالمات منه. بل، تبين أيضاً أنها كانت آخر محادثة مباشرة بينهما.

اتصل سميث بقسم شرطة هنتنغتون بيتش وبالمباحث الفدرالية للإبلاغ عن حادث السطو. ووصلت الشرطة في ظرف دقائق وحررت تقريراً جنائياً. وسريعاً قرروا أن اللص دخل المبنى عبر فتحة السقف وأنه أنزل نفسه بواسطة حبل. "لا يبدو كعمل احترافي" أفاد المحقق، ثم طلب من سميث أن يعطيه قائمة بكل الموظفين الحاليين والسابقين. ووفقاً لتقرير الشرطة، قرر سميث أن ثمن المعدات المسروقة يُقدر بحوالي ٥٠ ألف دولار، منها ١٢ ألف دولار من المعدات الإلكترونية التي تخص وكالة ناسا.

في اليوم التالي وصل عميل فدرالي لاستجواب سميث، في الأغلب لجمع تفاصيل عن عملية السطو، ليقرر درجة حساسية الأغراض المسروقة، وليسمع من سميث ما إن كان لديه فكرة عن وراء الحادث.

وصف سميث آخر مكالمات له مع ميلتشان. وحينذاك كان قلقاً للغاية بشأن شحنات الكرايترون المتعددة التي أرسلها إلى إسرائيل بدون استخراج تراخيص ذخائر، وشعر أنه بدلاً من أن ينتظر اكتشاف المباحث الفدرالية لأمر الشحنات،

كانت أفضل استراتيجية له أن يذكر الشحنات ببراءة وبصرامة، ويعبر عن قلقه بشأن ارتكابه لأخطاء فى إجراءات الشحن. واستمع العميل الفدرالى فى صمت وهو يدون الملاحظات. وطلب من سميث أن يُسمى المشتبه بهم الأكثر احتمالاً. وفى تلك القائمة كُتب اسم أرنون ميلتشان.

كانت الأمور تتداعى بسرعة ولم يكن سميث قد استوعب بعد دلالات ما يحدث. هل سيفقد مشروعه الآن بعدما رفض طلب الرجل الذى يمدده بمعظم دخله؟ كيف ستُفسر مقابلته مع المباحث الفدرالية؟ ومن منطلق الخوف، فقد كان عازماً على التصرف بصراحة، وهى غريزة لم تكن لها أن تتفعه بالضرورة.

وعقب مقابلته مع المباحث الفدرالية، اتصل سميث بميلتشان عدة مرات لكنه لم يتمكن من الوصول إلا لمساعدته. وكانت ديبورا موجهة من قبل رئيس لأكام الجديد رافى إيتان بدعم العلاقات الإيجابية مع سميث حتى تستمر إسرائيل فى تلقي التحديثات لتضع استراتيجيتها وفقاً لها، بدون الحاجة للتنصت على هاتفه. ثم طلب إيتان من ميلتشان أن يتجنب أى اتصال مستقبلي بشركة ميلكو، أو بسميث، والذى وُصفه بأنه أضعف حلقة فى سلسلة علاقات ميلتشان، وقال إيتان إن سميث قد احترق!

جوهرياً، كانت تلك نهاية دور شركة ميلكو كعملية منتجة لوكالة لأكام استمرت ثلاثة عشر عاماً. وكان الوقت قد حان لإغلاق هذا الملف وللمضى قدماً فى طريق تحديات أخرى. وأخبر إيتان ميلتشان أنهم ليس بوسعهم أن يكونوا عاطفيين فى مثل تلك الأمور.

وتحرك قسم شرطة هنتنغتون بيتش والمباحث الفدرالية بشكل سريع وغير معتاد وبإصرار فى قضية شركة ميلكو، مستخدمين كل أدوات التحقيق التى فى

حوزتهم، وبالفعل ألقوا القبض فى غضون شهرين على مشتبه به، موظف صغير، كان يعمل بشكل مؤقت فى مخزن شركة ميلكو.

وعندما أغارت الشرطة على منزل والديه، وجدوا المرآب عامراً بالسلع المسروقة، التى تشمل الأغراض المسروقة من ميلكو.

واعترف الشاب بالسرقه، بالإضافة إلى عمليات سطو أخرى فى المنطقة. والغريب أن المباحث الفدرالية وقَّعت اتفاقاً مع السارق، وأطلقوا سراحه بكفالة والديه والبقاء تحت وصايتهما. وأبلغوه أنه لن يحاكم إن وافق على التعاون الكامل فى إعادة كل الأغراض المسروقة من شركة ميلكو.

وشعر سميث بقدر كبير من الارتياح، وطلب من إميلي الحضور إلى مخزن أحراز قسم شرطة هنتنغتون بيتش لاستعادة الأغراض المسروقة. ولدى وصول إميلي اقترب منها رجل ذو حلة داكنة وسألها هل هذه معاداتك؟. وعندما أكدت أنها تلك، أخرج شارته وعرف نفسه بأنه عميل إدارة الجمارك الأمريكية، وطلب منها الحديث مع رئيس الشركة.

انتابها إحساس مفاجئ بالهلع وأخذت تفتش فى حقيبة يدها بارتباك لتعطيه الكارت الخاص بزوجها، وقالت للعميل إنه يمكنه الاتصال به مباشرة.

وفى الأسابيع التالية، زار عميل الجمارك الأمريكية شركة ميلكو عدة مرات، أحياناً بدون موعد مسبق، ليتحدث مع ريتشارد سميث.

وأحياناً أخرى كان يلقى أسئلته عبر الهاتف، لكن لم يكن يمر يوم واحد بدون أى شكل من الاتصال من هذا العميل. فى البداية أبدى سميث تحمساً للتعاون، وكانت النقاشات استطلاعية لطيفة ومعتدلة، تشمل أسئلة بريئة عن حركة الشحن

بالشركة وإجراءات إدراج الملفات. ثم أصبحت الأسئلة الودودة ببطء ويمرور الأيام أكثر صرامة، حتى بدأت تبدو كتحقيق.

كانت الأيام والأسابيع والشهور التى تلت حادث سطو ميلكو عصبية للغاية. إذ توقفت الطلبيات وحتى الاتصالات من إسرائيل فجأة، وكان ثمة عميل فدرالى يتقصى الأوضاع بشكل يومى. وخلال بضعة أشهر أصبح من الواضح وجود استقطاعات كبيرة فى الطلبيات. وعمل سميث يائساً لتأمين عقود من وكالة ناسا ومن حلف شمال الأطلسى، ومن البنتاجون، لكنه تمكن من توقيع بضعة عقود استشارية فحسب تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات، وهو مبلغ لا يكاد يكفى لتشغيل شركة ميلكو بمستواها الحالى.

وانقطع تدفق الأموال. وخشى سميث من تخفيض درجة تصريحه الأمنى ومن زيادة أسئلة عميل الجمارك الذى يتربص به. وقرر تخفيض النفقات بشكل جذرى بغلق مكاتب ميلكو فى الساحل الشرقى، والإبقاء على نفسه وزوجته وأبنائه فحسب فى كشوف المرتبات كموظفين بدوام جزئى. ولكن حتى مع تلك التخفيضات، فلم تكد ميلكو تتمكن من الصمود، وكان بانتظارها ما هو أسوأ.

وفىما تراكمت متاعب شركة ميلكو تدريجياً، كان ميلتشان مشغولاً بالعرض الأول لفيلمه الجديد "ذا كينغ أوف كوميدى" أو "ملك الكوميديا"، وهو فيلم جرى. يلعب فيه روبرت دى نيرو دوراً غير معتاد بالمرّة حيث يجسد روبرت بابكين المهبوس بجمع توقيعات المشاهير على أبواب المسارح والكوميديان المتطلع الذى تفوق طموحاته المهبوسة بكثير أية موهبة فعلية لديه. يؤدى لقاء له بالصدفة مع جيسى لانغفورد الذى يلعب دوره جيسى لويس، وهو كوميدىان ومقدم برنامج حوارى شهير، لأن يظن بابكين أن فرصته السانحة قد جاءت أخيراً. لكنه كان

مخطئاً. وفي محاولة يائسة للاشتراك فى البرنامج بأى شكل، يختطف لانغفورد ويتفاوض على ظهوره فى البرنامج، والذي يقدمه البديل الذى يلعب دوره تونى راندال. ويلقى أداء بابكين نجاحاً غير متوقع، لكن يتم القبض عليه بعد البرنامج. المشهد الأخير يظهر فيه بابكين وهو يعتلى المسرح فيما يبدو كحلقة تليفزيونية خاصة ذات جمهور مباشر ومذيع يقدمه ويمتدحه بحماس. ومن خلال السخرية، يتحكم الفيلم على فكرة النجاح الذى يأتى كثمرة للموهبة لا الحظ.

ولم يحظ الفيلم بنجاح كبير فى شباك التذاكر، بالرغم أنه من السهل أن نتفهم سبب إعجاب ميلتشان الشديد بالنص. ويمرور الوقت، تم الاحتفاء بالفيلم لتصويره الفنى والساخر معاً لبيزنس الاستعراض الأمريكى.

أثناء تصوير فيلم "ذا كينغ أوف كوميدى" نشأت علاقة قوية بين ميلتشان ودى نيرو استمرت لعقود. وقدم ميلتشان دى نيرو لموشيه ديان وتصوره يؤدى شخصية ديان فى فيلم طويل عن حياته، لكنه لم يستطع إقناع دى نيرو، ولا يزال ميلتشان يريد إنتاج ذلك الفيلم الذى لم يتحقق بعد.

خالف ميلتشان طبيعته ليدعم علاقته بدى نيرو شديد الخجل، بما فيها استغلال خدمات مساعدته الخاصة إيتى كانر لتدبير صديقات للنجم السينمائى. وتصف لنا كانر كيف تلقت مكالمة من ميلتشان ذات يوم طلب فيها التعرف على امرأة سوداء جميلة كانت قد ظهرت على غلاف مجلة الأزياء الفرنسية إل. تقول كانر، كانت تلك عملية كوكبية. "اتصلت أولاً بمكتب المجلة فى باريس للتعرف على العارضة، فأخبرونى أنها فى جلسة تصوير فى لوس أنجلوس. فتوصلت لمكانها فى لوس أنجلوس وأقنعتها بأن تستقل أول طائرة إلى نيويورك من أجل اجتماع مع روبرت دى نيرو". وإن تتلاعب تخيلات النجومية بعقلها، وصلت العارضة إلى

نيويورك على حساب ميلتشان، لتقضى ليلة فى المدينة مع روبرت دى نيرو.

وبعد فترة وجيزة من العرض الأول لفيلم ذا كينغ أوف كوميدى، وبينما كان المدعى العام لمدينة لوس أنجلوس يبنى أركان قضيته سراً ضد شركة ميلكو، كان أرنون مشغولاً بشأن شخصى خطير. إذ تلقى أثناء التصوير فى الولايات المتحدة، مكالمات عاجلة من ابنه المراهق ياريف.

فى ذلك المساء، خرج ياريف ولم يعد للمنزل متجاوزاً بكثير الموعد المحدد له. وعندما عاد للمنزل، صُدم عندما وجد أمه بريجيت قد حزمت حقيبته وطلبت منه الرحيل عن المنزل.

وعرف أرنون بالأمر بينما كان، فى طريقه إلى لوس أنجلوس، وكانت تلك لحظة مؤلمة ومصيرية. ووجه مساعده البرتغالى فى الحال خوزيه أوليفيرا الذى كان يتولى أمر قَصْره، لاصطحاب ياريف وإحضاره إلى حى مونتيفور لامورى. وعندما استوعبت أليكساندرا وإليانور ما حدث لأخيهما، رفضتا البقاء من دونه.

وفى ظرف أيام حزمت بريجيت حقائبهما أيضاً، وطردتهما من المنزل.

ومنذ ذلك اليوم أصبح أرنون ولى الأمر الوحيد لأبنائه وأصبح القصر منزلهم مجدداً. وكانوا كلهم يرتادون مدارس إعدادية داخلية، وكانوا يقضون الإجازات مع والدهم يجوبون أنحاء العالم، ويمضون الصيف فى إسرائيل. "أبنائى هم أقرب الناس إلىّ، وأهم مصدر لفرحتى" هكذا يقول أرنون.

وفى زيارة لاحقة لإسرائيل، نزلت بريجيت فى الشقة العلوية. وعندما اكتشفت مجموعة من الصور لأرنون فى صحبة نساء عديدات، منهن أولاً وأوليرىكا، مضت تدمر الشقة، ومزقت الصور، ودمرت الأثاث والقطع الفنية الثمينة. وبهذا بلغ السيل

الزبي وكانت تلك هي النهاية الأخيرة لما ظل لفترة علاقة وبودة بعد الطلاق.

كان ميلتشان من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، الذي عرّف العالم على أفلام إيطالية الطراز على نمط أفلام الغرب الأمريكية مثل "أفيسست فول أوف دولارز" أو حفنة من الدولارات، أو الطيب والشرير والقبيح، ووانس أبون أتايم فى أمريكا أو كان ياما كان فى أمريكا، ويُشهد له بفضل اكتشاف كلنيت إيستوود.

رفض ليون فرصة من شركة باراماونت بيكتشرز لإخراج فيلم "الأب الروحي"، وهو أحد أهم الأفلام قاطبة، وقضى العشرة أعوام التالية فى الإعداد لتحفته الفنية عن العصابات الإجرامية أو "وانس أبون أتايم إن أمريكا". لم يرغب أحد أن يضطلع بالموضوع، هذا بالطبع حتى قابل ليون ميلتشان بالصدفة، وجاء فى وصفه للقاء ما يلى:

"حدث هذا فى مهرجان كان السينمائى، كنت أحاول بيع فيلم آخر هناك شبيه بفيلم ذهب مع الريح. وفجأة رأيت هذا الرجل يجلس فى شرفة عملاقة فى فندق كارلتون مطلة على الشاطئ، شخص يشبه بودا، أو أورسون ويلز، أو سيرجيو ليون، لم أكن متأكدًا. اقتربت منه ولاحظت أنه لم يكن بودا ولا أورسون ويلز، لذا لا بد وأنه سيرجيو ليون. قدمت نفسى بالفرنسية وأخبرته أنني من أشد المعجبين بأفلام الغرب الأمريكى إيطالية الطراز التى يخرجها".

أخبرته إنه شرف كبير لى أن أقابله وسألته عم يعمل به حالياً، فأجابنى ليون "يوجد هذا الفيلم الذى أعمل عليه منذ عشرة أعوام، ولا أحد يريده، إنه فيلم أمريكى ضخّم، أتريد أن تسمع عنه؟".

فوجئ ميلتشان وشعر بالفخر إذ جلس بجوار المخرج الأسطورى وأنصت بتركيز. وكانت الساعة الثالثة أو الرابعة عصرًا عندما بدأ ليون فى وصف الفيلم،

مشهداً تلو الآخر، لقطة تلو اللقطة:

والآن ستصعد الكاميرا، وستقترب سيارة، فتقترب منها الكاميرا... ومضى لأكثر من أربع ساعات بهذا الأسلوب بينما بدأت الشمس تغرب ببطء فى البحر المتوسط. عندما انتهى ليون، أخبره ميلتشان أنه يريد أن ينتج هذا الفيلم. وفوجئ ليون، وسأله ما إن يمتلك القدرة المالية. فأجابه ميلتشان فى البداية بالتاكيد، ثم سأله بعدها عن الميزانية. وجاءت الإجابة أنها ٢٢ مليون دولار، فلم يحرك ميلتشان ساكناً. لكن بالطبع، لم تكن تلك نهاية الحديث.

ذات ليلة، بعد موعد الزيارات بكثير، تسلل ليون إلى غرفة ميلتشان فى نيويورك. وفجأة سمع ميلتشان صوتاً رقيقاً ذا لهجة إيطالية قوية يقول "أرنون! أرنون! أحتاج لمزيد من المال".

وإذ هو مصدوم ومُروّع، استيقظ ميلتشان على كيان ضخم يجلس على الكرسي المجاور له.

"رباه! هل هذا أنت يا سيرجيو؟ هل جنتت؟".

"أرنون لا أستطيع النوم، أحتاج للمليونى دولار أخرى، أحتاج لاستئجار أوريينت إكسبريس".

وجد أرنون صعوبة فى استيعاب هذا المنطق. ولم تحتاج لاستئجار قطار أوريينت إكسبريس؟ ألا يمكننا استئجار قطار عادى وتقديمه على أنه أوريينت إكسبريس؟".

ولم يقبل ليون بهذا وأجاب لأن الجمهور سيمكنه تمييز أنه ليس أوريينت إكسبريس. ورفض مغادرة الغرفة حتى ضمن له ميلتشان زيادة ميزانية الفيلم.

وفى النهاية بلغت تكلفة الفيلم ٢٨ مليون دولار ويعتبر حتى يومنا هذا من أكثر الأفلام نفرداً وغبابة فى تاريخ السينما.

ويرى أغلب الناس أنه أفضل فيلم أخرجه ذلك المخرج الموهوب بإطلاقه، وهو الفيلم المفضل لميلتشان وهو فى رأيه أفضل فيلم أنتجه قط. كان يحوى كل شىء أسر تميز به عالم الإجرام السرى وواقعه الكئيب اللذين قدمهما الفيلم.

"وانس أبون أتايم إن أمريكا" أو "ذات مرة فى أمريكا" فيلم ملحمى، وهو قصة مسلسلة عن حياة مجموعة صغيرة من أفراد العصابات اليهود فى نيويورك على مدار ٤٠ عاماً، وتُروى فى أغلبها بأسلوب الارتجاع والنظر للمستقبل معاً. ويتمحور الفيلم حول المجرم البسيط ديفيد أرونسون الملقب بنودلز وشركائه فى عالم الجريمة طيلة حياته وهم: ماكس وكوكى وأصدقائهم. ويتتبعهم الفيلم إذ ينشأون فى حى "إيست سايد" اليهودى الفقير فى نيويورك فى العشرينيات حتى أواخر الستينيات، ويعود نودلز العجوز إلى نيويورك بعد أعوام عديدة من الاختباء ليعيد اكتشاف ماضيه.

كان ميلتشان لا يزال قليل الخبرة نسبياً، وعندما أعطاه ليون نسخة من النص، صدم عندما رأى أنه مكون من ٣١٧ صفحة، وحتى يومنا هذا، يعد أطول نص قرأه ميلتشان بإطلاقه.

وحذر ليون ميلتشان منذ البداية قائلاً: صغيرى، يجب أن تتحلى بالصبر.

وأجاب ميلتشان بأنه لم يكن يعرف أن الفيلم بهذا الطول.

أجاب ليون: لا أعنى طول الفيلم يا صديقى، أعنى فى تعاملاتنا مع الممثلين.

وإذ بدأ ليون فى اختيار الممثلين، استأجر ميلتشان شقة فى نيويورك فى

شارع ٤٨ بين شارعى ساكند وثيرد، بجوار شقة الممثلة الأسطورية كاثرين هيبورن. وفكرا فى مئات الممثلين لأدوار الفيلم المتنوعة وكانت تلك عملية طويلة وصعبة فى حد ذاتها. وفى مطلع عام ١٩٨١، عرض على بروك شيلدن دور "ديورا غيلي" بعدما شاهد سيرجيو ليون فيلم "ذا بلو لاغون" أو "البحيرة الزرقاء"، بزعم أن لديها القدرة على أداء دور شخصية ناضجة. لكن إضراب الكتاب أخر المشروع، وانسحبت شيلدن قبل بدء بروقات الأداء.

كان هناك أكثر من ٣٠٠ متقدم للعب دور شخصية البطلة، ومنهم كيم باسينغر وغلين كلوس وجيمى لى كيرتس وجينا ديفيس وكارى فيشر وداريل هانا وليزا مانيلي وميشيل فايفر وميغ رايان وسوزان سارندون وميريل ستريب وديبرا وينغر، وهن كل سيدات النخبة الأمريكيات تقريباً.

وبانتشار خبر الإعداد للبدء فى الإنتاج، تلقى ليون شخصياً مكالمات عديدة من أبرز الممثلين الموهوبين، مثل وارن بيتي.

ومتلماً فعل مع معظم الممثلين الآخرين، فقد رفضه ليون وقال لميلتشان:

إنه مصفف شعر، بحق الرب!

"لكنه لم يلعب دور مصفف شعر إلا فى فيلم شامبو" هكذا أجاب ميلتشان آملاً فى تغيير رأى ليون.

وبعد عدة أيام تلقى مكالمات من كلينت إيستوود لكنه قال: كلا، كلا! لقد اخترته بالفعل فى ثلاثة أفلام، أحتاج لدم جديد.

وإن كان هناك شخص واحد كان ليون يريده أن يشترك بالفيلم، فقد كان ذلك هو روبرت دى نيرو، والذي لعب دور البطولة فى الفيلم الذى أنتجه ميلتشان "ذا

كينغ أوف كوميدى".

ووفقاً لميلتشان، لم يكن من السهل إقناع دى نيرو بقراءة النص الطويل، لكن فى النهاية زعم دى نيرو أنه قرأ النص بأكمله وقال إنه يريد مقابلة ليون.

وتم تحديد موعد الاجتماع فى فندق مايفلور فى نيويورك سيتى. ارتدى ليون الذى كان بديناً آنذاك، روباً فضفاضاً فى اجتماعهم بجناح علوى حجزه ميلتشان لذلك الغرض. وتقرر ترك ليون ودى نيرو ليتحدثا على حدة بينما انتظر ميلتشان مكاملة منهما فى غرفة مستقلة.

وعندما رن الهاتف أخيراً، كان دى نيرو يهمس على الطرف الآخر.

أرنون! أريد التحدث معك.

وهرع أرنون إلى غرفة دى نيرو وقرع الباب، فقال دى نيرو.

لا يمكننى العمل بالفيلم

ولم لا؟ سأل ميلتشان مصدوماً.

اصطحب دى نيرو ميلتشان إلى الحمام وأشار للمرحاض، فتحير ميلتشان

ألا ترى أن ليون تبول على مقعد المرحاض الخاص بى؟ سأل بهلجة لا تصدر إلا عن روبرت دى نيرو.

وكان المقعد ملوثاً بالبول بالفعل قال أرنون "بريك يا دى نيرو! لم يفعل هذا متعمداً، إنه بدين ولم ير".

"مستحيل يا أرنون، لقد فعل هذا متعمداً" وأضمر دى نيرو أن تلك كانت لعبة لإظهار قوة لتحديد مناطق الهيمنة، ولتوضيح من المسيطر الحقيقى.

وهذه ميلتشان، وفي النهاية أختير دي نيرو لدور البطولة كرجل العصابات اليهودي ديفيد أرونسون.

ولم يتم ملء دور بطة الفيلم إلا قبل فترة وجيزة من بدء التصوير بعد بحث دعوب. كان ميلتشان يميل لاختيار إليزابيث مكغافيرن، والتي تدرس في معهد جوليارد وكان قد عُرض عليها دور في فيلمها الأول "أناس عاديون"، وهي مازالت تدرس، في دور صديقة مراهق مضطرب لعب دوره تيموثي هاتون وكانت مازال في العشرين من عمرها. وكان ذلك هو الفيلم الأول لروبرت ريدفورد كمخرج، وفاز بأربع جوائز أوسكار. في العام التالي تم ترشيح مكغافيرن لجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة لتجسيدها دور ممثلة مطلع القرن العشرين إيفيلين نيسبت في فيلم "راجتايم"، والتي ظهرت فيه عارية في مشهد طويل للغاية ومثير للجدل. ومن بين قائمة طويلة من نجومات سعين وراء هذا الدور، حصلت عليه إليزابيث مكغافيرن. كانت تصغر أرنون بـ ١٧ عاماً وكانت عشيقته أيضاً.

قاوم روبرت دي نيرو، الذي لم يكن يعرف بعد بطبيعة علاقة ميلتشان ومكغافيرن، منحها الدور. وتصادم دي نيرو وليون حول ذلك. وكان دي نيرو يشكو باستمرار بينما كان ليون يقف صامتاً وينظر في ساعته. وعندما انقطعت أنفاس دي نيرو سأل ليون "هل انتهيت؟" وتحير دي نيرو إذ مضى ليون قائلاً "عادة ما يستغرق الممثل ٢٠ دقيقة لكي يكف عن الشكوى، ولم تستغرق أنت سوى ١٢ دقيقة! الآن عليك أن تتذكر أنه ليس فيلمك، بل هو فيلمي أنا وأنت مجرد مشارك فيه"، قالها ليون بغضب عارم. ومجدداً تدخل ميلتشان وتحدث على انفراد مع دي نيرو، وأياً ما قاله ميلتشان، فقد جعل دي نيرو يلين.

وكما يتذكر ميلتشان:

كان هناك مشهد فى الفيلم يفترض أن يغتصب فيه دى نيرو إيلزابيث مكغافيرن فى المقعد الخلفى لسيارة ليموزين، بعدما تخبره أنها سترحل إلى هوليوود لتحقيق حلمها. وكان مشهداً معقداً للغاية. وفجأة اقترح دى نيرو أن ألعب دور سائق السيارة الليموزين. وكانت ردة فعلى متشككة، فبعد كل شىء، أنا لست ممثلاً. وكان المشهد يشغل ٤ صفحات فى النص، أى أنه لم يكن دوراً تافهاً. وعلى أية حال، راقت لى الفكرة، وأجرى سيرجيو تجربة أداء لى. وبعد هذا اختفى تشككى فجأة ووجدت نفسى وقد أردت أن أؤدى هذا الدور أكثر من أى شىء آخر فى حياتى. كان أشبه باغتنام الفرصة. وأصبح من أهم طموحات حياتى. لكن سيرجيو من ناحية أخرى، لم ينبهر بأدائى ورفض مشاركتى. أنا، المنتج وممول المشروع برمته، تم رفضى! واستشطت غضباً. وكنت متأكداً أن الجميع سيأتوننى جاثين على أيديهم وركبهم لكننى عوملت كأقل كومبارس فى موقع التصوير. واستمروا فى تجارب الأداء للدور أمام عينى فيما شعرت بالإحباط الشديد.

ثم تلقيت مكالمة "نحن مستعدون لتصوير المشهد، احضر". لكننى كنت فى باريس وكان المشهد سيتم تصويره فى ذات الليلة فى كندا. "لا مشكلة" هكذا أخبرونى على الهاتف. "التذاكر فى انتظارك فى المطار. هناك ثلاثة مرشحين آخرين للدور وتم استدعاؤهم أيضاً". وانزعجت للغاية لذلك، لكننى وصلت للمطار على أية حال. ولم أجد اسمى مدرجاً فى كشوف الدرجة الأولى ولا فى درجة رجال الأعمال. أين وضعونى؟ فى مقاعد الدرجة السياحية فى الخلف بجوار الحمامات.

وأخيراً وصلت إلى كندا وذهبت مباشرة إلى موقع التصوير. وكان مكانه السحر. كل شىء كان مضاءً، وما هما الرب ونائبه، أو ليون ودى نيرو. صديقاى المقربان اللذان كانا يتقاضيان أجرهما منى، فتقربت منهما بود قائلاً:

تسيرجيو، روبرت، ها أنا ذا! نظرا إلى باستهانة وكأئنى فتى توصيل الشطائر، أو ممثل غر دخيل طموح، أو طالب شهرة، وكانا شديدى التركيز على مهامهما. وكنت بانتظار التوجيهات.

قلت لليون "أنت تعرف أنه دورى الأول" لكنه تجاهلنى. والتفت دى نيرو تجاهى وقال انظرا! هذا الفيلم ليس عنك وليس عن سائق الليموزين. بل عن الشخصية التى قررت ظهورها بالفيلم، تذكر هذا.

تطلب تصوير المشهد إعادته ١٣ مرة. وأوضح ليون لدى نيرو بالتفصيل كيف يغتصب إليزابيث مكغافيرن وطُلب منه أن يعيد توجيهاته جسدياً قبل بدء التصوير، ولم أستطع أن أتذكر ولو مرة واحدة كيف أفتح باب الليموزين. فى الإعادة الثانية نسيت أن أوقف السيارة الليموزين حيث يفترض لى إيقافها. وفى ذلك الوقت، كان دى نيرو يكرر اغتصاب عشيقتى فى المقعد الخلفى، ١٣ مرة! تعرفون روبرت دى نيرو، وأنه ممثل حقيقى، كل مشهد كان يصوره بقلبه! وكان يُفترض منى أن أوقف السيارة الليموزين وأسأل إليزابيث هل أنت بخير؟ فيما أخرج من السيارة وأفتح الباب وأخلع قبعتى، وهذا كل شىء.

وفى النهاية، نقّحوا المشهد حتى لم يتبق لى سوى النطق بجملة واحدة "هل أنت بخير؟"، وحتى بعد ذلك، لم يحب ليون نبرة صوتى، لذا استأجر ممثلاً آخر لينطقها بصوته. كانت تجربة مهيئة للغاية، لكنها كانت مثيرة فى ذات الوقت.

من الشائق أن روبرت دى نيرو كان قد عارض اختيار مكغافيرن لدور البطولة واقترح لاحقاً على أرنون أن يؤدى دور سائق الليموزين فى مشهد الاغتصاب. وبعد أعوام، شعر ميلتشان بتماء تام مع شخصية هيو فينيمان فى فيلم "شكسبير يقع فى الحب"، أى رجل المال الذى تم التفضل عليه بدور صغير فى مسرحيته شريطة

أن يعد بحسن التصرف وعدم التدخل.

فى نهاية التصوير، كان لدى ليون ما بين ٨ إلى ١٠ ساعات من اللقطات. وتمكن بمساعدة المونتير نينو باراغلى، من تقليصها لحوالى ٦ ساعات، وأراد أن يعرضها كفيلمين مستقلين، مدة كل منهما ٢ ساعات. لكن شركة وورنر براذرز رفضت، وأجبر ليون على تقصير فيلمه مرة أخرى، لتكون مدته فى النهاية ٢٢٩ دقيقة.

وتم عرض النسخة الأقصر فى مهرجان كان السينمائى واستقبلت بحماس كبير. وفى نهاية العرض، وقف الجمهور ليصفقوا لمدة غير مسبوقه وهى ١٥ دقيقة. وفى أوروبا، استقبل الفيلم بحماس من الجماهير والنقاد على حد سواء وحقق نجاحاً تجارياً ضخماً، يربو على ١٠٠ مليون دولار.

لكن فى الولايات المتحدة، كانت شركة وورنر براذرز لا تزال مستاءة من طول الفيلم بعدما تم تسويقه تجريبياً فى بوسطن أمام جمهور نفذ صبره وأصدر صيحات استهجان منذ البداية عندما عرفوا أن الفيلم مدته تتجاوز الثلاث ساعات. ومارست الشركة حقوقها وفقاً للعقد، ونقحت ليصبح ١٢٩ دقيقة، وهى ما اعتبرته مدة مقبولة تجارياً. ونتيجة لذلك، فشل الفيلم فى الولايات المتحدة وحقق ثمانية ملايين دولار فقط.

وبمرور الأعوام، حقق الفيلم عودة قوية فى سوق الفيديو والإسطوانات الرقمية الأمريكى من خلال إصدار النسخة الأطول. وتعتبر النسخة الأطول من الفيلم متفوقة عالمياً على النسخة التى نُقحت بشكل مجحف والتى عرضت فى الأصل فى أمريكا.

يذكر جيمس وودز، والذي يعتبر فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أفضل أعمال ليون، على الذى فى دى الوثائقى الخاص بالفيلم أن أحد النقاد رأى أن الفيلم هو الأسوأ فى عام ١٩٨٤، ليصفه بعد أعوام بأنه أفضل فيلم فى الثمانينيات بعدما شاهد النسخة الأصلية الطويلة. ووصف روجر إيبرت النسخة الأصلية غير المنقحة من الفيلم بأنه أفضل فيلم يصف حقبة حظر الكحوليات.

فى عام ٢٠٠٢، عندما سألت مجلة سايت أند ساوند عدة نقاد إنجليز عن أفلامهم المفضلة فى الـ ٢٥ عاماً الأخيرة، جاء فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" فى المركز العاشر.

وسرعان ما رفع الفيلم مكانة ميلتشان فى صفوف هوليوود ليصبح من أهم المنتجين، وليستحق صيت المجازف الجريء.

لكن للأسف، فقد كان لفيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أثره البالغ على صحة ليون، ليصبح فيلمه الأخير، وفى ٣٠ أبريل عام ١٩٨٩، مات بسكتة قلبية.

لكن قبل فترة وجيزة من موته، أعطى ليون صديقه أرنون هدية لا تزال حتى يومنا هذا تأخذ مكانها بجوار مسبحه فى قصره مونتفورت لامورى، وهى تمثال بالحجم الطبيعى لرجل يجلس أمام مائدة، عليها طبق ملىء بالمال. اسم التمثال "العشاء الأخير لرجل طماع". لم تكن تلك رسالة مضمرة، بل تذكرة فقط بأن الحياة قصيرة، وما نفعله بوقتنا المحدود هو ما يهم.

استمرت صداقة أرنون وروبرت دى نيرو، الذى يعيش فى عزلة تامة حتى يومنا هذا. وكما فى حالة ليون، فقد عبّر عنها من خلال عمل فنى، حيث يوجد رمز لتلك الصداقة معلق بمكان بارز فى منزل أرنون فى مالىبو، وهو عبارة عن لوحة تجريدية رسمها والد روبرت دى نيرو وأعطاهما له كهدية.

ومن الأصدقاء المقربين الآخرين الذين تعرف عليهم أرنون فى تلك الحقبة كان رئيس الوزراء الكندى بيير تروبو. وكان تروبو من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، وعندما سمع أن ليون يعمل فى فيلم ضخّم، دبر اجتماعاً معه فى روما فى محاولة لإقناعه بتصوير الجزء الأخير من الفيلم فى كندا.

قدّم ليون تروبو لميلتشان وسرعان ما توافقا. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناع ميلتشان بالموافقة على التصوير فى كندا، واستمتع ثلاثتهم بأمرسية طويلة من الأطعمة الإيطالية والنييز الفاخر.

وبعد أسبوع، كان أرنون ينزل فى فندق صغير فى إيست هامبتون بنيويورك، عندما تم استدعاؤه إلى الهاتف الوحيد فى الفندق.

- مرحباً، أرنون؟ أنا بيير، هل تتذكرنى؟

- بيير! بيير من؟

- بيير تروبو، لقد تقابلنا فى روما

صُنم أرنون وتساع:

- أجل بيير، كيف وجدتتى؟

- الاستخبارات الكندية ليست عديمة النفع كلياً. أرنون أنصت! لم لا تأتى إلى أوتوا لقضاء العطلة الأسبوعية؟ أريد الحديث معك، سأرسل طائرتى لتقلك.

- يبدو الأمر شائقاً، لكن اسمع نصيحتى ولا ترسل طائرة عامة لتقلنى. سأحضر إليك بأسلوبى.

وجد ميلتشان وتروبو أنه بينهما الكثير من القواسم المشتركة. كلامهما كان

مطلقاً وأباً حاضناً وولى أمر لثلاثة أبناء، وكلامهما كان لعوباً مسرفاً. وما بين منصب تروبو الهام كرئيس للوزراء، وصعود ميلتشان كمنتج أفلام شهير، لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأوقات الممتعة، من الحفلات الفارهة، للمشاهير، للنبيذ، للنساء، للهو.

كان مستوى الثقة بيننا غير عادي" هكذا أكد لنا ميلتشان، بل إنه حتى قدم له النصيح أثناء قمة مجموعة السبع عام ١٩٨٣ في ويليامسبيرغ، فيرجينيا. وفي مرحلة ما عهد إليه تروبو بكومة من الوثائق السرية تصف استراتيجية كندا الكاملة بشأن مجموعة السبع. واستمرت صداقتهما المقربة حتى وفاة تروبو في ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠.

وإذ تركزت أنظار مصلحة الجمارك الأمريكية والمباحث الفدرالية على شركة ميلكو في هنتغتون بيتش، كان ميلتشان ينتج فيلماً ويدير صفقة ضخمة لطائرة بي ٨٠ كوين إيرلايت للنقل الجوي الخفيف، وطائرة كينغ إير الإلكترونية لجمع الاستخبارات، وكلاهما من شركة بيتشكرافت. وكان العمل يسير كالمعتاد.

لكن بالنسبة لميلكو، كان الأمر مختلفاً تماماً. حينما سافر ريتشارد وإميلي سميث إلى أوروبا لحضور مؤتمر لحلف الناتو، أغار عملاء الجمارك الأمريكية حاملين إذن تفتيش فدرالياً، على مكاتب شركة ميلكو في هنتغتون بيتش في محاولة لمصادرة كل الملفات المتعلقة بالشحنات إلى إسرائيل. وشرعوا يقلبون المكان رأساً على عقب، لكنهم رحلوا بخفي حنين. إذ إنه كان قد تم نقل الملفات. وتركوا أبناء سميث، الذين كانوا يحرسون الشركة، خائفين ومرتبكين.

ثم في عشية الكريسماس في عام ١٩٨٤، وفيما كان ريتشارد كيلى سميث يتفقد بريده اليومي في شركة ميلكو. وجد خطاباً رسمياً من مكتب المدعى العام

الفدرالى لمقاطعة سنترال كاليفورنيا. وشعر سميث بأن هذا الخطاب لا يحمل خيراً. ولم يكن لديه بديل عن فتحه، وفتحه بيدين مرتبعتين ليقرأ:

عزيزى السيد ريتشارد كيلي سميث

بموجب هذا الخطاب أنت مكلف بالمثل أمام مكتب المدعى الفدرالى فى لوس أنجلوس للإجابة عن أسئلة بخصوص تصدير الكرايترون بدون ترخيص، وللمناقشة بخصوص جرائم كبرى محتملة اقترفتها...

سرت قشعريرة باردة فى جسد سميث. واتصل بشريكه المقرب وحامل الأسهم فى شركة ميلكو براين كارتر، والذي كان محامياً سابقاً فى شركة روكويل إنترناشونال. وصُدِمَ المحامى، وفهم فى الحال تورط صديقه القديم وقال له "ريتشارد! أنت على وشك أن تقابل أناساً من الحكومة الأمريكية مختلفين تماماً عن الأشخاص الذى تعاملت معهم حتى الآن". وشرح له أن الهدف الرئيسى لوظيفة المدعى العام الفدرالى هو وضع أكبر عدد ممكن من الأشخاص فى السجون الفدرالية، وفى الواقع، كلما زاد عدد الأشخاص الذين ينجح المدعى العام الفدرالى فى إيداعهم بالسجون الفدرالية، زادت العلاوات والحوافز التى يتقاضاها.

وكانت تلك حقيقة قبيحة.

أوصى المحامى سميث بأن يُوكَل فى الحال أفضل محام يمكنه العثور عليه ورشح له أحدهم. كانت المكاملة التالية من سميث إلى ميلتشان محاولاً التحدث إليه. ومجدداً، لم يستطع تجاوز ديبورا، أو الجدار الواقى لميلتشان.

السقوط إلى الهاوية

في النهاية، وبسبب قصة الكرايترون متناهية الغباء، لا يمكن أن يُنتظر منك قراءة نصوص الأفلام، أو الذهاب إلى اجتماعات تسويقية، فيما يعتريك القلق بشأن كل شيء آخر. أرنون ميلتشان لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في ٢٨ فبراير ١٩٩٢

كان ثاني أكثر يوم مرعب في حياة ريتشارد كيلى سميت هو ذات اليوم الذي انهارت فيه إحدى أهم الشبكات الإسرائيلية في الولايات المتحدة والتي أسسها ميلتشان.

أثناء الأسبوع الأول من يناير ١٩٨٥، دخل سميث مبنى المحكمة الفدرالية في لوس أنجلوس وفقاً لموعد تم تحديده مسبقاً مع المدعى العام الفدرالى الطموح. ولم يسر الاجتماع على ما يرام. حيث رأى سميث أن المدعى العام ويليام إتش فيهى كان عدوانياً لا يتورع عن توجيه الاتهامات.

ووفقاً لسميث، كان فيهى يظن كل شيء يخرج من فمه غير صادق. وأوضح أنه يعتقد أن سميث ارتكب جرائم بشعة وألح إلى أنه بحوزته كميات هائلة من المعلومات الحساسة تتجاوز بكثير قضية المفاتيح النووية. وبالنسبة لفهى، كانت قضية الكرايترون لا تتعدى قمة جبل الجليد. وعندما لم يعترف سميث فى الحال، اتهمه برفض التعاون. وعندما أنكر سميث تهمة عدم التعاون، وضع فيهى بقوة أمامه وثيقة إسقاط التقادم على المنضدة أمامه وأصر على أن يوقعها قائلاً "حقاً؟ أثبت تعاونك".

وكانت الوثيقة تؤكد أن أى شىء قد حدث منذ أكثر من عشرة أعوام يمكن أن يستغل فى تلك القضية. وقد أراد سميث أن يبدو متعاوناً، وبموافقة محاميه، وقع عليها.

ثم مضى بعد ذلك يخبر فيهى عن مسيرته المهنية الحافلة، والإسهامات الهامة التى قدمها لمنظومة الدفاع الأمريكية. وأشار إلى المهام العلمية والتكنولوجية الهامة التى خدم فيها البنتاغون ووكالة ناسا وحلف الناتو، وعن رتبته المدنية والتى تعادل الرتبة العسكرية لجنرال يحمل ٢ نجوم. وصرح أيضاً أنه لا يعرف الغرض من استخدام الكرايترون.

فجأة قاطع فيهى سميث وهو يضع وثيقة أخرى بقوة أمامه. "هل هذا توقيعك يا سيد سميث؟" وبدا بالتاكيد أنه توقيع، وكان التوقيع على طلب

استصدار ترخيص تصدير ذخائر من وزارة الخارجية عام ١٩٧٥ . وأكد سميث أنه توقيعه.

وأشار فيهي إلى أن الوثيقة تمثل دليلاً قاطعاً على أن سميث كان يعرف أنه يحتاج لترخيص تصدير ذخائر للكرائيترون ولذلك فقد قدم طلباً لهذا الترخيص من قبل ورُقِض هذا الطلب. وبعد ذلك سأل سميث صراحة عن سبب شحن مفاتيح نووية بدون ترخيص تصدير ذخائر.

وحينها اعترى سميث الارتباك بشدة ومضى يرتعد خوفاً وأجاب "لا أتذكر الطلب".

وبلهجة مليئة بالسخرية، أشار فيهي إلى أنه مع كل الخبرات التي وصفها سميث للتو، ستجد أية هيئة محلفين صعوبة في تصديق سميث بأنه لا يعرف الغرض من استخدام الكرايترون وأنه لا يتذكر أول شحنة حاول إرسالها في عام ١٩٧٥ .

وبعد أن حاصر فيهي سميث وهو في الوضع الذي أراده له بالضبط، أدار انتباهه إلى السمكة الأكبر أي أرنون ميلتشان. وسأل سميث: أخبرنا المزيد عن منتج الأفلام الإسرائيلي.

وفي تلك اللحظة الفارقة، لم يكن هناك أي مبرر لدى سميث للدفاع عن ميلتشان، لكنه صرح بأنه لا علم له بأي شيء مخالف للقانون ارتكبه ميلتشان، وأنه إن وقع خطأ، فقد كان خطأ بريئاً. وضغط عليه فيهي، ولجّ إلى أنه سيتساهل معه إذا تعاون.

ولم يخطر لسميث أي شيء، مما أدى إلى تزايد عدوانية فيهي وشعوره

بأن سميث يخفى أمراً ما.

وعلم سميث لاحقاً أن مكتب المدعى العام الأمريكي كان لابد وأن يواجه صعوبات جمة في إثبات القضية ضده لولا أن المكتب تمكن من استخدام طلب ترخيص تصدير الذخائر الذي قدمه هو للطلبية الأصلية للكرياترون لأجل إسرائيل عام ١٩٧٥. وكان قانون التقادم ينطبق على طلب الترخيص ذاك. وجوهرياً، فقد اكتشف أنه قد وقع على دليل حاسم ضد نفسه، باتباعه مشورة محاميه. وكان يوماً سيئاً في مجمله.

وأخطر فيهم سميث أنه طلب التحقيق مع ابنه، البالغين من العمر ١٧ و٢٠ عاماً، والذين يعملان في شركة ميلكو. وأنه من المفترض أن يمثل أمام هيئة محلفين كبيرة كان ينتوى جمعها ليضمن توجيه اتهام له. وكانت الفكرة هي تخويف ابنه من أنهما قد يتهمان في جريمة، وتخويف سميث من الرب.

كانت التحقيقات حول شركة ميلكو ما هي إلا جزء صغير من مشروع أكبر بكثير يعرف باسم "العملية إكزوداس" أو الرحيل، وهو إجراء خاص لإدارة الجمارك الأمريكية صممت إدارة ريجان وأطلقت لإجهاض عمليات التجسس وتهريب التكنولوجيا والمعدات العسكرية عامة. حيث كان الهدف منه هو القضاء على عمليات التجسس مزدوجة الاستخدام وعلى أسواقها.

تم تمويل تلك العملية بـ ٣٠ مليون دولار من ميزانية وزارة الدفاع، وتم نقلها إلى إدارة الجمارك الأمريكية عام ١٩٨١. وبعد مرور أعوام على ذلك الإجراء، تصاعدت الضغوط وأتى بنتائج فعلية، حيث تمت مصادرة ٢٣٣٠ شحنة غير قانونية تقدر بـ ١٤٨،٨ مليون دولار وتم توجيه ٢٢١ اتهام، لكن في النهاية أدين ٢٨ شخصاً فقط كنتيجة للعملية إكزوداس.

ولم ترض الوتيرة التى سارت بها القضية الإدارية، إذ إنهم أرادوا عمليات قبض، وعناوين صحف رنانة، وأرادوا الدماء! وأن تكون الأحكام المشددة عبرة رادعة، لإثبات أن القبضة الأمنية أصبحت أكثر إحكاماً. وكانت النتيجة أن سُمى عام ١٩٨٥ بعام الجواسيس.

وإن كان الحال فى ميلكو قد ساء قبل زيارة سميث لمكتب المدعى العام، فقد غدا على مشارف المصيبة المحققة بعدها. وفى إبريل زار سميث محاميه جيمس ريديت ليبلغه بأنه سيتم اتهمه بتهريب المفاتيح النووية إلى إسرائيل. ولم يكن متأكداً من طبيعة الاتهامات التى ستوجه إليه لكنه كان يعلم يقيناً بأن الاتهامات ستعلن الشهر التالى. وحذره المحامى أيضاً من احتمال وجود بعض الاهتمام الإعلامى بتلك القضية وأنه عليه أن يهيئ نفسه لذلك. وفزع سميث من ذلك الاحتمال.

أبلغ سميث محاميه أن الاتهام سيوجه له فى ذات الوقت الذى خطط هو وعائلته السفر فى إجازة طويلة إلى إسرائيل لزيارة القدس ومواقع مقدسة أخرى، مع التوقف فى أوروبا عند العودة. وامتنل المدعى العام على كُره منه بعد موافقة المحكمة على الرحلة شريطة إيداع سميث مليون دولار كضمان لعودته.

وأعاد سميث رهن منزله الشاطئى فى هنتنغتون بيتش ليحصل على مبلغ الـ ١٠٠ ألف دولار المطلوب للكفالة. ثم اشترى بعد ذلك ٩ تذاكر لعائلته ومنهم أبناؤه وأصهاره.

وفى ١٢ مايو عام ١٩٨٥ أقلعت طائرة خطوط تى دبيلو إيه بعائلة سميث من لوس أنجلوس والتى كان مقرراً لها التوقف سريعاً فى باريس قبل التوجه إلى تل أبيب.

وفى مطار تشارل ديغول تم تزويد الطائرة بأخر الطبقات من صحيفة إنترناشونال هيرالد تريبيون والتي شكر سميث المضيئة لإعطائه نسخة منها. وفتح الصحيفة بشكل تلقائي وصدم عندما قرأ العنوان الذى يقول "اتهام رجل أعمال بتهريب مفاتيح نووية إلى إسرائيل". وكان اسمه مذكوراً فى أنحاء متفرقة من المقال. ولاحظ أن الراكبين الآخرين يقرأون نفس المقال وشعر بإحراج بالغ، وكأنما كانوا ينظرون إلى نشرة لمتهم مطلوب القبض عليه.

لكن ما صدم سميث بشدة أنه عرف من المقال لأول مرة، أن له أن يتوقع حكماً بالسجن لـ ١٠٥ عام وغرامة ١,٥ مليون دولار.

وبكل بساطة، لم يستطع سميث تصديق عينيه، وكأنهم كانوا يتحدثون عن شخص آخر. فبعد كل شيء، كان كل ما اقترفه هو عدم ملء البيانات فى الأوراق المطلوبة لتصدير قطعة ثمنها ٧٥ دولار. كيف له أن يسجن ١٠٥ عام مقابل ذلك؟!

صدم سميث أيضاً ولكن بدرجة أقل من حقيقة أن المدعى العام قد كشف للعلن لأول مرة أن الكرايترون يستخدم لغرض تفجير القنابل النووية. ولم يكن هذا معلوماً للعامة حتى صرح المدعى العام بتلك المعلومات الحساسة فى سعيهم لعلانية القضية. وعادة، فإن التصريح بمثل تلك المعلومات يعد تعدياً يستحق التجريم، أو على أقل تقدير تصرفاً غير مسئول بالمرّة.

وبعد إفشاء السر، غدا كل شخص على وجه الأرض لديه مفتاح كرايترون يعرف أن بحوزته مفتاحاً نووياً.

وصلت عائلة سميث إلى إسرائيل كسياح. ولم يتلقوا معاملة خاصة فى

المطار تلك المرة، بل وقفوا في الصفوف الطويلة شأن أى شخص آخر. وبعد المرور من الجوازات والجمارك، استقلوا سيارات تاكسى إلى فندق هيلتون تل أبيب.

ولم يكن سميث هو الوحيد الذى أصابه الهلع من العلانية المفاجئة، حيث ظهرت مقالات متماثلة فى صحف فى أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا وحول العالم، ولاقت الاهتمام الكامل من ميلتشان ووزارة الدفاع الإسرائيلية ووزارة الخارجية ورئيس الوزراء بيريز نفسه. وأجريت سلسلة سريعة من المكالمات الهاتفية والاجتماعات بين لكام والموساد ووزير الدفاع إسحاق رابين وشمعون بيريز وميلتشان. ثم طلب ميلتشان من بيريز الاتصال بريجان طلباً للمساعدة.

وبعد فترة وجيزة، تشكل رد الفعل الإسرائيلى، ورن الهاتف فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب. وخلال ساعات من نشر قضية الكرايترون وشركة ميلكو عالمياً فى ١٣ مايو ١٩٨٥، نظّم ثلاثة ممثلين مطلعين على الأمور من وزارة الدفاع الإسرائيلية ووزارة الخارجية اجتماعاً على المستوى مع نظرائهم الأمريكيين فى تل أبيب. وقدم الجانب الإسرائيلى للأمريكى وثيقة تفيد بأن مفاتيح الكرايترون التى استوردتها شركة هيلى تريدينغ لميتد فى الاستخدامات التالية: استُعملت معينات المدى البعيد، راصدات رادار الليزر، وأنظمة السيطرة على النيران.

وعرض الإسرائيليون إعادة الكرايترون الذى لم يتم استخدامه، وصرحوا بأنه قد تم تدمير ١٠٠ مفتاح كرايترون أثناء الاختبارات.

واستمرت المفاوضات بين البلدين لأيام. ومن المفارقات، أنه أثناء الوقت

الذي كان فيه سميث وعائلته موجودين في إسرائيل فعلاً، ويقيمون في فندق هيلتون تل أبيب على بعد خطوات من السفارة الأمريكية في شارع هيركون، تمت إعادة ٧١٠ مفتاح كرايترون إلى السفارة الأمريكية وتم شحنها في الحال إلى الولايات المتحدة في حقائب دبلوماسية، ضمن أشياء أخرى، كأدلة ضد سميث. أما الـ ١٠٠ مفتاح كرايترون التي تم تدميرها، فقد أصدرت وزارة الدفاع الإسرائيلية بياناً رسمياً بأن إسرائيل لم تستخدمها لأية أغراض نووية، وأن أيّاً منها لم ينقل إلى أي بلد آخر.

من غير معلوم المستوى الذي ذكر به اسم ميلتشان في تلك المفاوضات، أو ما إن كان قد تمت اتصالات مباشرة من بيريز إلى البيت الأبيض كما طلب ميلتشان. لكن ما نعرفه من شمعون بيريز، أنه في ذات الوقت في مايو ١٩٨٥، استقبل رئيس الوزراء الإسرائيلي زائراً في سرية بالغة وهو مايكل ليدين، والذي كان في مهمة كلفه بها روبرت مكفارلين، مستشار الأمن القومي للرئيس ريجان. وطلب ليدين مساعدة بيريز في التوصل لطرق للتأثير على إيران فيما يخص الرهائن الأمريكيين المحتجزين في لبنان. وكان التفاهم بين ليدين وبيريز، ضمن أشياء أخرى، بداية تورط إسرائيل في فضيحة إيران كونترا الشهيرة.

ما تلقته إسرائيل في المقابل لا يزال محلاً للتكهنات. يقول ليدين "كل ما أعرفه أنه عقب اجتماعي الخاص مع بيريز، اتصل بالسفير الأمريكي لدى إسرائيل سام لويس". كان مما أثار الاهتمام، وهذا أقل ما يقال، أنه عقب إعادة مفاتيح الكرايترون بفترة وجيزة، ومباحثات بيريز وليدين السرية، ومكالمة بيريز ولويس، أن صرح إدوارد جيريجيان نائب المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية والمساعد الشخصي لريجان للرأي العام أنه يمكنه فقط

أن يشير إلى أن قرار الاتهام فيما يخص قضية ميلكو لا يشمل أى مواطنين إسرائيليين. وأضاف جيريغيان أن الولايات المتحدة قد أبدت قلقها البالغ إلى الحكومة الإسرائيلية بشأن ما زُعمَ عن انتهاكات للقانون الأمريكى وأنه قد تم التأكيد له أن إسرائيل ستتعاون فى التحقيق الأمريكى الجارى إلى أقصى مدى يسمح به القانون الإسرائيلى.

لم يسمع من قبل عن مساعد لرئيس للولايات المتحدة خرج عن المؤلف وأدلى بتصريح خاص للرأى العام حول "من لم يذكر اسمه فى إجراءات اتهام جارية". وأياً كان المقابل الذى تبادله الطرفان سواء وُجد أو لم يوجد، فقد غدا ميلتشان فجأة بعيداً عن الشبهات.

فى تلك الأثناء، وبينما كانت عائلته تجوب المعالم التاريخية فى المنطقة، لم ينضم إليهم سميث. وحيث إنه لم يكن يعلم بالمفاوضات القائمة فى السفارة الأمريكية، وبالاجتماعات بالغة السرية بين ليدين وبيريز، مضى سميث يبحث عن ميلتشان بحثاً محموماً. وذهب إلى مكتب ميلتشان، واتصل بكل رقم يعرفه، وقصد المطاعم التى كانا يترددان عليها، وطلب مساعدة وكالة لأكام ومسؤولين وسياسيين آخرين رفيعى المستوى تعامل معهم على مر السنين عبر ميلتشان، لكن كل الأبواب أغلقت فى وجهه. وأصر الجميع بقوة على وجود ميلتشان فى مهرجان كان السينمائى، والذى يقام سنوياً فى شهر مايو. كانت السكرتيرات لطيفات ومهذبات، لكن بدا واضحاً أنه بعد أيام من طلبه المساعدة أو حتى أذنأ مصغية، بدأ سميث يدرك أنه يواجه جداراً عازلاً وأنه لن يجد حلاً لموقفه الخطير فى إسرائيل، وأنها لن تكون ملجأ سرياً، لأن إسرائيل ليس لديها نية للمخاطرة بعلاقتها الخاصة بالولايات المتحدة بسبب عميل أجنبى، على الرغم مما أبدوه من التعاطف معه. فى زيارته السابقة

كان يعامل وكأنه شخصية مرموقة، وكان يقضى وقته مع صفوة أعضاء المؤسسة الأمنية والاستخباراتية الإسرائيلية. والآن غدا لا يستطيع تجاوز سكرتيراتهم، لا على الهاتف ولا شخصياً. فجأة أصبح عديم القيمة. وبدأ أن عليه أن يواجه الأمر برمته وحده.

وبعد ذلك تلقى مكالة هاتفية من ديبورا مساعدة ميلتشان. وجلسا وتباحثا في موقفه بشكل مطول. وسئل سميث عن المعلومات التى أدلى بها للمدعى العام عن الشحنات إلى إسرائيل وعن ميلتشان تحديداً. وأصر سميث على أنه لم يقل أى شىء يجرمه أو يخرجه. ثم تحول الحديث إلى محنته هو. كان من الواضح، أنه إذا وجه المدعى العام اتهاماً ينطوى على احتمال الحكم بالحبس مدى الحياة، ثم لوح له بصفقة، فسيكون من الصعب عليه ألا يقبل بها لإنقاذ عائلته وحياته.

واقترح البعض على ميلتشان أن يؤخر زيارته إلى الولايات المتحدة، على الأقل حتى ينتهى الأمر برمته. لكن عقب التفاهم مع الولايات المتحدة، تلقى الضوء الأخضر للسفر. وكان ميلتشان فى خضم حدث مأساوى آخر متعلق بأحد أفلامه، ولم يكن ينتوى الغياب عن اجتماع محدد مسبقاً فى هوليوود. ومع اقتراب الطائرة من مطار لوس أنجلوس الدولى، لم يكن هناك مجال للجزم بما ينتظره، أو ما إن كان صغار ضباط الجمارك والجوازات الجالسين وراء مكاتبهم قد علموا بالاتفاق الذى تم.

واقترب من نضد الجوازات كما فعل مائة مرة من قبل. وتفحص ضابط الجوازات جوازه بعناية، ونظر إلى ميلتشان، وسلمه جواز السفر وقال له مرحباً بعودتك.

وفى تلك الأثناء تقريباً، عاد سميث وعائلته إلى الولايات المتحدة، ولدى وصوله لبلده، تم توجيهه فى الحال لتسليم جواز سفره، ورُفِعت عنه كفالة المليون دولار.

وتم تحديد موعد المحاكمة فى منتصف أغسطس: وإن كان البيزنس الذى يملكه قد مر بحالة مزرية من قبل، فقد أصبح بعد إعلان الاتهام المدمر شأنه والعدم سواء. ودمرت سمعته كلياً كوطنى متفان أفنى حياته فى العمل على الدفاع عن بلده. ولم يستطع النوم. وأصبحت قائمة طويلة ممن اعتبرهم أصدقاء مهنيين أو شخصيين، بل وحتى الأصدقاء القدامى يتجنبونه آنذاك وكأنه وباء أو نشاط إشعاعى.

ولم تعد الشركة تدر المال، وكان مستحقو الفواتير يطاردونه. وحاول الحفاظ على المظاهر واستمر فى الذهاب إلى مكتبه. وضبط دفاتر الحسابات، وكأنه شخص يضبط المقاعد على سطح سفينة تاييتانيك! ولم يكن الحال يستمر على هذا المنوال. كانت زوجته إميلي قوية وداعمة. وأثناء لحظات الضعف، كانت فكرة الاتصال بمحاميه وتوجيهه إلى الاستسلام وطلب رحمة المدعى العام تغريه. وكانت زوجته هى التى ترفض السماح له بفعل ذلك. وكانت حتى تخبئ الهاتف خوفاً من أن يعطى تلك التعليمات وهى غير موجودة.

لكن عقب ذلك انهارت إميلي شخصياً. وذات يوم لم تعد تتحمل. وهرعت خارجة من مكاتب ميلكو، وهى تبكى، وقادت سيارتها مباشرة إلى المنزل، وشربت سريعاً زجاجة كاملة من الفودكا. ووجدتها ابنتها مغشياً عليها على الأرض. وحاولت إفاقتها لكنها لم تفلح. وهرعوا بها إلى المستشفى حيث

تماثلت ببطء للشفاء بعد أن كادت تفقد حياتها.

وأخيراً أتى شهر أغسطس. وقبل أيام قليلة من المحاكمة، تلقى سميث مكالمة من مساعدة محاميه لتبلغه بأن رأى الشركة المهني هو وجود احتمال قوى بأن يُسجن، وكانوا يلحون للتوصل لصفقة بين الطرفين أمام المحكمة.

كيف أدخل السجن؟ لم أرتكب أى خطأ! قالها سميث بإصرار.

وظنت مساعدة المحامي أنه يمزح وأجابت "ألا تعرف أن السجن مليئة بأشخاص لم يرتكبوا أى خطأ؟ أعرف هذا منذ أن كنت فى التاسعة من عمرى".

وصدم سميث ولم يرقه هذا الموقف غير المبالى. إن حياته هى التى كانت على المحك. وكان قد دفع للمحامى ٦٠ ألف دولار، فقط ليعرف من مساعدته أن حجة قضيتهم واهية. وفجأة فقد كل ثقة له فى محاميه وفى قدرته هو على الدفاع عن نفسه.

وفى تلك اللحظة اتخذ سميث وزوجته القرار المصيرى النهائى باتباع الخطة التى رسمها والتى كان لها أن تغير حياتيهما للأبد. وكان منذ اجتماعه الأخير فى تل أبيب، قد مضى يفكر فيها ويستعد لها. وقبل بضعة أيام من المحاكمة أخبرا أبناءهما أنهما سيتوجهان إلى جزيرة كاتالينا للراحة والاستجمام قبل أن تبدأ المحاكمة المؤرقة. "لم نرد أن يُتهموا بمساعدتنا"، يؤكد سميث.

وتركا كل عقاراتهما وممتلكاتهما العينية فى الولايات المتحدة لأبنائهما ليهتموا بها. وأخذوا الخمسة عشر ألف دولار احتياطي الطوارئ النقدي

لشركة ميلكو، وصبغ ريتشارد شعره الرمادى ليصير كله أسود. وحزما حقائب خفيفة، وغادرا متوترين من المرأب. وكانا فى حالة من الخوف العميق وجنون الارتياب من أن يتعقبهما أحد. وقادا السيارة بشكل عشوائى لحوالى ٢٠ دقيقة، وهما يغيران الحارات، وينعطفان سريعاً ويغيران اتجاههما لتضليل أى متتبعين محتملين. وما أن اقتنعا بأنهما غير متتبعين، دخلا إلى طريق ٤٠٥ السريع متجهين شمالاً وخرجا منها إلى جادة سينشرى بوليفارد تجاه مطار لوس أنجلوس الدولى.

تركنا سيارتهما فى مبنى الانتظار أمام صالة وصول برادلى الدولية الجديدة، وتركنا المفتاح فى فتحة التشغيل، ووصلا إلى نضد التذاكر قبل حوالى ٤٠ دقيقة من إقلاع الرحلة الجوية. وحجزا تذكرتين ودفعا ثمنهما نقداً.

"كنا متوترين وأخذنا نتفحص منطقة الانتظار بحثاً عن أى شخص قد يكون يتتبعنا. وشعرنا بالارتياح عندما أعلن عن قيام رحلتنا عبر مكبرات الصوت وهرعنا لركوب الطائرة قبل ٢٠ دقيقة من إقلاعها. حيث كنا سنطير بلا توقف حتى وجهتنا، لنصل فى الخامسة مساءً. وكل ما كنا نحملة بعد ٢٤ عاماً من الزواج هو حقيبتان خفيفتان تحت مقعدينا" هكذا يتذكر سميث.

كانت الرحلة مريحة فى الدرجة السياحية، إذ كان بينهما مقعد شاغر لكنهما بالكاد تكلمتا طوال الرحلة. وكانا فى حالة صدمة وعدم تصديق لما فعلاه للتو وتداعياته على بقية حياتهما.

كان عدم مثول ريتشارد كيلي سميث فى محاكمته خبراً مدوياً، وانتشرت الفوضى فى قاعة المحكمة عندما طالب المدعى العام الفدرالى ويليام فيهى

بصوت عال بإصدار مذكرة قبض بحقه. وأصدرت قاضية الجلسة باملا آن رايمر فى الحال مذكرة قبض وأمرت بإخطار الإنتربول بأن سميث هارب من العدالة وأنه يجب القبض عليه وإعادةه إلى الولايات المتحدة فى الحال.

ما لا يصدق عقل، هو أن جيمس ريديت محامى سميث وإذا هو موجود فى قاعة المحكمة محاط بالصحفيين، أقر بأن السيد سميث قد شحن المفاتيح النووية بدون ترخيص. ودون المدعى العام تعليقات ريديت وتعهده باستدعائه كشاهد إثبات ضد سميث إذا تم القبض عليه ومثل أمام المحكمة، ولتذهب للجحيم ميزة السرية بين الموكل ومحاميه.

وفى تلك الأثناء كان ريتشارد وإميلي سميث فى أمان خارج القطر. وبمرور السنين، تكهن العديد من الصحفيين والخبراء أن الزوجين سميث هربا إلى إسرائيل وأنهما يختبئان فى ضاحية هرتسليا بيتوح الراقية شمال تل أبيب، حيث يمتلك ميلتشان منزلاً هناك. فيما رأى آخرون أنه بصفته بحار خبير، فقد هرب بقارب شراعى إلى المكسيك ومنها إلى أوروبا. وانتشرت شائعة أخرى بأن الموساد قام بتصفيته.

قد كان بالفعل قد شوهد فى هرتسليا بيتوح يبحث عن ميلتشان أثناء رحلته فى إسرائيل، بعد أن أعلن خبر اتهامه قبل بضعة شهور فى مايو ١٩٨٥، لكنه عاد إلى الولايات المتحدة قبل محاكمته فى أغسطس. وربما كان الفرق فى التوقيت الزمنى هو مصدر الارتباك وشائعات ظهوره فى هرتسليا.

وما أن وصلا إلى فرانكفورت، ألمانيا وغادرا الطائرة، واجها بقلق أول عقبة وهم ضباط الجوازات الألمان. وفتح الضابط ببطء جواز سفر الدكتور "جون شيلر"، ونظر إلى الصورة والمعلومات المفصلة. وكان كل شيء متطابقاً

كلياً. فختم جواز السفر وقال "مرحباً بك فى ألمانيا"، وأعادته إليه. واجتاز سميث بهذا أول اختبار له من اختبارات عديدة تنتظره.

وبعد أن قضيا ليلتهما فى فرانكفورت، استأجر الزوجان سميث سيارة وبدأ رحلة طويلة بالسيارة عبر الريف الجميل إلى وجهتهما المبدئية، حيث كانا ينتويان التوارى عن الأنظار والتفكير ملياً فى الطريقة التى سيقضيان بها بقية حياتيهما.

نادى القتال

معاداة السامية هي معاداة السامية، حتى حينما يكون مصدرها شخص يهودى مندمج فى مجتمع بيغفرلى هيلز.

أرنون ميلتشان فى الفيلم الوثائقي "معركة فيلم برازيل" للمخرج جاك ماثيوز

كان عام ١٩٨٥ من أسوأ الأوقات بالنسبة لميلتشان وأفضلها. ومما لا يصنقه عقل، أنه مع انهيار ميلكو من حوله وانتشار اسمه فى الصحافة العالمية مرتبطاً بفضيحة تهريب المفاتيح النووية الوحيدة التى تم تسجيلها بإطلاقه

كان ميلتشان ينتج فيلمين شهيرين أحاطتهما المشاكل الكثيرة، وفي ذات الوقت كان يخوض ما ذاعت سمعته في هوليوود باسم "معركة فيلم برازيل"، وهو نزاع حامى الوطيس بين ميلتشان وأحد أهم مديري هوليوود التنفيذيين والذي صنع سابقة تاريخية ودفع بميلتشان إلى مكانة أسطورية في مجال صناعة السينما. صكَّ "اسم معركة البرازيل" صحفى متقاعد اسمه جاك ماثيوز، والذي غطى المشكلة بأكملها لصحيفة لوس أنجلوس تايمز في منتصف الثمانينيات. وفي عام ١٩٨٧ كتب كتاباً تفصيلياً يحمل نفس الاسم بالتعاون مع ميلتشان والمخرج تيرى غيليام، يستحق في حد ذاته أن يصنع фильماً.

بدأ الأمر كله عندما قابل غيليام مخرج فيلم "مونتي بايثون" الشهير ميلتشان في مساء بارد في مارس ١٩٨٢ في مطعم إيليزيه ماتتيون في باريس، والذي كان يستخدمه ميلتشان كمكتب غير رسمى له. ونظم هذا الاجتماع هارى

أولفاند وكيل روبرت دى نيرو.

كان غيليام، شأن كثير من المخرجين الذين يعتبرون أنفسهم فنانين فوق العادة، لديه شك قوى فى نظام هوليوود، وكان ميلتشان يكتسب بالفعل سمعة المنتج المستقل المستعد لخوض مشاريع محفوفة بالمخاطر لم تكن هوليوود المؤسسية لتقترب منها. وسرت الشائعات أيضاً، وكان لها قدر من الجاذبية، بشأن مصدر تمويله، وعمل ذلك على تحسين حالته المتبدية كمتنرد هوليوودى ثرى. قال غيليام: كل من تحدثت معه قال لى ابتعد عن هذا الرجل، إنه تاجر سلاح يصنع أفلاماً، إنه زلق للغاية ولا يمكنه التقيد بشروط أحد. كان الأمر لا يتجاوز أنهم يغارون منه إذ كان يحرز النجاح باستمرار. وارتأيت أنه إن كان الجميع فى هوليوود يتحدثون عنه بالسوء، وإن كانوا كلهم ضده، فلا بد وأنه لا بأس به.

وفى الحقيقة، كان ميلتشان منزعجاً من سمعته المتنامية كمنتج غير تقليدى لأفلام غير تقليدية. وكان يريد فى النهاية أن يشق طريقه إلى هوليوود المؤسسية، لكنه شعر أن عليه أولاً أن يبرز ويترك بصمته، وسينطوى هذا حتماً على مشاريع محفوفة بالمخاطر تسترعى انتباه الآخرين.

ولم يأت اختيار مطعم إليزيه ماتنيون كمكتب له مصادفة، بل كان المطعم فى نفس الشارع الذى فيه شقته، وعلى بعد مسافة سير من مكان عرض مسرحيته أماديوس، بطولة بولانسكى، والذى كان ينضم إليه أحياناً على العشاء بعد العرض، ويكون عادة فى قمة حماسه. وكان العشاء غالباً ما يتحول إلى حفلات صاخبة مترعة بالنبيذ، يشمل فيها الأصدقاء والضيوف ويتجادلون فى كل شىء من الفنون المعاصرة إلى السياسة الدولية. وبعد تبادل قليل من الأحاديث وشراب ليس بالقليل، انطلقت صداقة ميلتشان وغيليام، ومضى غيليام يخبر ميلتشان بمشروع فيلم يعده اسمه "برازيل"، وأضاف أن شركة باراماونت بيكتشرز قد وقعت معه عقداً.

وانبهر ميلتشان إذ رسم غيليام بالكلمات صورة زاهية لفيلم برازيل، مشهداً بمشهد، ولقطة بلقطة، ويداها تلوحان بحماسة فى كل الاتجاهات ويصدر فمه أصواتاً غريبة. ووجد ميلتشان صعوبة فى تتبع حبكة القصة، لكن كمتعلم بصرى، فقد استطاع رؤية الصور بوضوح فى خياله وتأثر بالقواعد العاطفية للقصة المجردة السريالية.

تخيل عالماً غريباً فى مكان ما بالقرن العشرين، أو فوهة جحيم رملية حضرية تغيرت معالمها بجراحات التجميل! وقد غزت الأمتة كل أوجه الحياة، وكل الأعمال الورقية، وأصبحت البيروقراطية، وعدم الكفاءة، والإخفاقات الميكانيكية هى قانون العصر. يبدأ فيلم برازيل بسام أورى، وهو بيروقراطى وضيع اهتماماته الرئيسية

فى الحياة تخيلات حية عن امرأة، على ألحان أغنية الفرق الشهيرة فى الأربعينيات "البرازيل"، ومن هنا أتى الاسم.

ويتورط لورى بدون قصد فى مكيدة إرهابية عندما يتبين أن فتاة أحلامه جارة رجل تم القبض عليه لنشاطه الإرهابى نتيجة خطأ طباعى! أما الإرهابى الحقيقى فهو تقنى تسخين خائن.

وتقابل موجة غامضة من التفجيرات الإرهابية من قبل وزارة إعلام متزايدة النفوذ، والتى لا يعترف بلطجيتها المستبدون قط، بالقبض على الرجل الخطأ وتعذيبه. ويصل سعى لورى المتزامن للبحث عن الحقيقة وعن الفتاة إلى مستويات أعلى فى وزارة الإعلام بالرغم من إشاراتهم التحذيرية بأن سعيه سيعرضه للخطر لا محالة، وسيعرضه "لتعذيب صديق"، سيدفعه فى النهاية إلى الجنون.

وكروح مستقلة، استطاع ميلتشان التماهى مع شخصية لورى ولم يستطع منع نفسه من التفكير فى وزارة إعلام أخرى عرفها جيداً فى حياته متمثلة فى وزيرة إعلام جنوب إفريقيا إسيشيل رودى.

ومع تأثير النبذ، شعر ميلتشان برؤية غيليام النافذة تغوص فى أعماقه. كانت قصة قوية استغرقت من غيليام حوالى ساعة ليرويها. وإذا بدأ يتعب، وصل بولانسكى بعد انتهاء مسرحيته وحينها بدأ النبذ الفاخر يتدفق حقاً. وفى منتصف الحديث الهادئ، التفت ميلتشان إلى غيليام وذكر بشكل تلقائى أن "برازيل" من المشاريع التى يود أن ينسب اسمه إليها.

وسأله غيليام "هل أنت جاد؟"

وأجاب ميلتشان "بالتأكيد، أتمنى لو استطعت".

وفى الصباح التالي، اتصل غيليام بمحاميه فى لوس انجلوس وكلفه بإلغاء الاتفاق مع شركة باراماونت. واتصل غيليام بعد ذلك بميلتشان وأبلغه تلك الأخبار.

كان ميلتشان قد ناقش بشكل عفوى تصويره لاسمه على فيلم غيليام الخيالى الغريب بينما يحتسى بضعة كنوس من النبيذ، لكنه فجأة! وجد نفسه ملتزماً بدفع ملايين الدولارات.

لم يكن قد قرأ النص، ولم تكن لديه فكرة عن الميزانية، ولم تكن لديه فكرة عن سيشتركون فى الفيلم، ولم تكن لديه فكرة عن أجر تيرى غيليام كمخرج.

لكن ما كان يعرفه هو أن تيرى غيليام قد راقه بشكل تلقائى وكذلك الرؤية التى قدمها له الليلة السابقة.

واتصل ميلتشان بمحاميه كينيث كلينبيرغ فى لوس أنجلوس وطلب منه تحضير الأوراق. وأشار كينيث بوضوح إلى أن ميلتشان قد فقد عقله. ومع ذلك، فقد أعطى ميلتشان إشارة البدء فى المشروع. واستخلص غيليام من ميلتشان حقوق الإدارة الإبداعية كاملة وحقوق إصدار النسخة الأخيرة.

ومر أكثر من عام، وفى مهرجان كان السينمائى عام ١٩٨٣، وعندما بدأت الأمور تأخذ منحى شائناً فى مشروع فيلم "برازيل"، كان الجميع يتحدثون عن فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" الذى بدأ تصويره، وفيلم "ذا كينغ أوف كوميدى"، والذى عُرض لأول مرة فى الولايات المتحدة. وصل ميلتشان إلى مهرجان كان فى صحبة حاشيته روبرت دى نيرو وجيرى لويس والمخرج مارتن سكورسيزى. ولاحظهم مسئولو الاستوديو. وجذب غيليام الأنظار أيضاً فى ذلك العام مع عرض فيلم مونتى بايثونز "مينينغ أوف لايف". وقرر ميلتشان وغيليام تخصيص جزء من وقتهما للترويج لفيلم برازيل، وقدرتا ميزانيته بحوالى ١٢ مليون دولار.

نظم شون دانييل، مدير الإنتاج فى شركة يونيفرسال ومن المعجبين بسلسلة أفلام مونتي بايثون، اجتماعاً مع ميلتشان وغيليام فى فندق كارلتون، نفس الفندق الذى تعرف فيه ميلتشان منذ عام على سيرجيو ليون. وفى نفس الغرفة تواجد بوب ريم، الرئيس الجديد لشركة يونيفرسال بيكتشرز، وإيان لويس مدير الإنتاج الدولى لشركة يونيفرسال، وشون دانييل نفسه. وعرض غيليام القصة بحماسة التصويرية الفائقة المعتادة. ولسوء الحظ، وبدون النبذ، بدأ مستوى الاهتمام بها متواضعاً ولم تبد الشركة أى التزام تجاهها. فقد كانت الشهية محدودة تجاه تلك النوعية من الأفلام.

ولدى خروجه من الفندق، قابل غيليام وميلتشان جو ويزمان المدير الجديد لشركة توينتيث سينشري فوكس. وذكر ميلتشان فى الحال الاجتماع الذى كانا قد عقدها للتو مع شركة يونيفرسال، وبالح فى وصف مستوى حماسهم للفيلم واقترح على ويزمان أن يغتنم الفرصة بينما مازال فى استطاعته ذلك.

وذكر ويزمان أنه قد يرغب فى الحصول على الحقوق الدولية، والتى قد تصل لثلث الميزانية، شريطة أن يحصلوا على التزام من شركة يونيفرسال بالحقوق الداخلية، والتى تمثل الثلثين الآخرين من الميزانية.

وتلقى ميلتشان الاتفاق الشفهى المحدود من ويزمان وحاول استغلاله لأقصى قدر ممكن. وهرع إلى هاتف غرفة الفندق وحاول الاتصال بريم فى الجناح الذى أتيا منه للتو، لكنه لم يجب الهاتف. وبكل جرأة ذهب ميلتشان مباشرة لغرفة ريم واقترح اجتماعاً له بشريكيه.

"المعذرة يا سادة! لا أحتاج إلا لدقيقتين" قالها ميلتشان بإصرار، فوجه ريم ميلتشان إلى الغرفة المجاورة كى يتحدثا على انفراد.

- بوب! يجب أن أعرف في الحال ما تريد أن تفعل؟ جون ويزمان ينتظر.

- كم سيكلف الفيلم؟

- ١٥ مليوناً.

- هل نحوز حقوق العرض العالمية؟

- كلا، لقد وعدت شركة فوكس بالحقوق الأجنبية للتو، يمكنك أن تتال الحقوق الداخلية بتلثي الميزانية.

- لا يمكنني القبول بذلك يا أرنون، لا يمكنني أن أدفع ١٠ ملايين. أقصى مبلغ هو ٩ ملايين

- لا بأس، ٩ ملايين إذن، سأسهم بالباقي.

وهكذا أبرمت الصفقة مع شركة يونيفرسال في أقل من لحظات قلل. ثم هرع ميلتشان مجدداً إلى ويزمان بتأكيد من شركة يونيفرسال وجعله يلتزم بدفع ٦ مليون دولار بناء على التزام يونيفرسال. وخلال طرفة عين، رفع ميلتشان ميزانية إنتاج فيلم برازيل ٢ مليون دولار أخرى. وهرع غيليام وراء ميلتشان لاهتاً عبر أروقة الفندق، وقد أدهشته مناورات ميلتشان. وخلال أسابيع تم تحرير العقود.

لسوء الحظ، كانت أيام كل من ويزمان وريم في شركتي فوكس ويونيفرسال محدودة، وعندما أجريت حركة تنقلات للموظفين في الاستوديوهين، شك ميلتشان وغيليام أن فيلم برازيل سيتم الاستغناء عنه، خاصة في يونيفرسال، حيث انتقل فرانك برايس من شركة كواومبيا بيكتشرز ليصبح رئيس مجلس إدارة مجموعة الأفلام الطويلة.

وسارع غيليام وميلتشان بإنتاج "برازيل" ليضعها شركة يونيفرسال فى موضع حرج باهظ التكلفة إذا قررت الانسحاب من الإنتاج. صار على برايس والذى كان قد هم بالفعل فى الانسحاب من فيلم برازيل، الآن التعايش مع الفيلم.

كان النص الذى تمت الموافقة عليه فى العقد بين شركة يونيفرسال وميلتشان من ١٦١ صفحة. وكان كلا الطرفين يعرفان ما يكفى عن صناعة الأفلام بحيث يدركان أن صفحة واحدة فى النص -بشكل عام- تترجم إلى دقيقة واحدة فى الفيلم، لذا كان من الواضح أن الفيلم ستكون مدته حوالى ساعتين و٤٠ دقيقة، وكانت هذه مدته بالضبط عندما تم تقديمه إلى مسئولى شركتى فوكس ويونيفرسال.

وانصرف مسئولو الشركتين من العرض الأسمى للفيلم بوجهتى نظر مختلفتين تماماً.

كان لارى جوربون من فوكس والذى حل محل جو ويزمان، مرتاحاً لما شاهده، وكان الفيلم جاهزاً للتوزيع دولياً من جانب شركة فوكس. لكن مديري شركة يونيفرسال، بالرغم من أنهما كانا مجاملين، كانا متشددين لاعتقادهما أن الفيلم كان طويلاً وكثيباً أكثر مما يجب. وكانا قلقين على إمكانية تسويق مثل هذا الفيلم السيرىالى. واعتبراه فيلاً مستفزاً من الناحية الفنية، وهو تعبير مهذب فى هوليوود لوصف الأفلام التى تعتبر فاشلة تجارياً.

وعقب عرض الفيلم الأسمى، مرت الشهور بدون أن تصل أخبار لغيليام أو ميلتشان من شركة يونيفرسال بخصوص التوزيع الداخلى. ثم ذات يوم تلقى ميلتشان مكالمة من ميلفين ساتلر محامى شركة يونيفرسال يشير فيها إلى أن البند فى عقده مع شركة يونيفرسال بخصوص مدة الفيلم ترك خالياً من دون قصد.

وشرح أن هذا خطأ كتابي بسيط وطلب من ميلتشان وغيليام أن يوقعا على تعديل لتأكيد مدة الفيلم.

ووصف ساتلر الأمر بأنه روتيني، وطلب من ميلتشان التوقيع على التعديل كخدمة شخصية، حتى ولو كان من أجل تغطية أخطاء المحامي فقط. ولم يفكر ميلتشان كثيراً في الأمر، لكن غيليام راوده الشك في الحال وحثه على ألا يوقعه. واستشعر أن شركة يونيفرسال تعتزم استغلال قضية الحد الزمني لإجبارهم على قبول الإدارة الإبداعية للفيلم.

وفي تلك المرحلة، كان ميلتشان أقل ارتياباً من غيليام وأكثر اهتماماً بالإبقاء على علاقة إيجابية مع شركة يونيفرسال. وفي ١٠ أكتوبر ١٩٨٣، أرسل التعديل الموقع بالفاكس، الذي نص على أن وقت العرض ليس أقل من ٩٥ دقيقة وليس أكثر من ١٢٥ دقيقة.

وأنذاك كان غيليام قد أرسل النسخة الأخيرة، واجتمع حوالي ٣٠ من كبيرى مدراء شركة يونيفرسال في مسرح ألفريد هيتشكوك في استوديوهات يونيفرسال في لوس أنجلوس لتقييم المشروع. وشاهدهم غيليام وهم يخرجون من المسرح ولاحظ أن المديرين الشباب بدوا متحمسين للغاية، لكن من يرأسونهم والأكبر سناً بدوا متوترين وقلقين.

وسرعان ما اختفى فرانك برايس، فيما اعتقد ساتلر المحامي الذي طلب توقيع التعديل بشأن مدة الفيلم الذي رآه طويلاً أكثر مما يجب. وكان الرجل الأعلى منزلة في الغرفة هو سيدنى شاينبيرغ، رئيس شركة إم سى آيه، الشركة الأم ليونيفرسال. ورأى شاينبيرغ الفيلم طويلاً للغاية وكئيبياً، وفاشلاً تجارياً. وقال "سنضطر للترويج له على أنه فيلم هذا العقد"، وكانت العبارة تليقاً هوليوودياً لرأيه

"لا أدري كيف سنبيع هذا الفيلم الردىء بحق السماء".

لم يفهم ميلتشان، بإلمامه القليل بالثقافة الأمريكية، هذا التلطيف واعتبر أن شاينبيرغ يعنى أنه فيلم رائع، لكن غيليام فهم فى الحال أنهما أمام طريق وعرة مع شركة يونيفرسال وأعد نفسه للمعركة. ولم يشاركه ميلتشان رؤيته.

لم يسر اجتماع التسويق اللاحق على ما يرام، حيث قرر مدراء يونيفرسال أنه من الأفضل معاملة فيلم برازيل كفيلم استثنائى سيعرض بشكل حذر وانتقائى فى مهرجانات الأفلام الفنية أولاً، مثل مهرجان نيويورك السينمائى فى سبتمبر. وأصر غيليام فى تلك الأثناء على أن يعرض الفيلم بشكل كامل، وتدهورت الأمور سريعاً مذاك. حاول ميلتشان المحب للسلام، تدبير مكالمة هاتفية بين غيليام وشاينبيرغ.

وكان من المفترض أن يتصل غيليام بشاينبيرغ فى وقت محدد لكن عندما اتصل به، أخبروه أن شاينبيرغ غير متاح. وشعر غيليام بالإهانة وقال لسكرتيرته أخبريه عندما يصبح متاحاً بأننى أظنه وقحاً للغاية. وشعر شاينبيرغ بالإهانة، وعندما اتصل بغيليام أخبره بذلك.

كان شاينبيرغ أحد أقوى مديرى الاستوديوهات فى هوليوود قد خاض قدراً كافياً من النزاعات وأصبح مخضرم فى خوضها. واتصل برئيسه ليو واسرمان، الرئيس الأسطورى لمجلس إدارة شركة إم سى إيه، وطلب منه مشاهدة الفيلم كخدمة شخصية. كان واسرمان من المدرسة القديمة وكان فيلم برازيل مبهماً كلياً بالنسبة له. وكان قراره كما هو متوقع أن الفيلم لا يستحق العرض، وبذا، نال شاينبيرغ رخصته لخوض الحرب.

وعقب اختبار عرض الفيلم على طلاب جامعة كاليفورنيا، والذى أظهر أن ٥٠٪ من الجمهور أعجبهم الفيلم ولم يعجب الخمسين بالمائة الآخرين، وقابل ميلتشان

وغيليام شاينبيرغ فى مكتبه فى البرج الأسود فى استوديوهات يونيفرسال. وبعد بضعة تعليقات إيجابية عن مدى تشويق عناصر الفيلم وإبداعه، تحدثوا فى العمل، واتفقا على أن الفيلم يجب تقليل مدته، وأن توضع له نهاية مختلفة، على أنه يجب تغيير بعض المشاهد، وفيما جلس ميلتشان صامتاً كان غيليام يستشيط غضباً. ورفض كل اقتراح قدمه شاينبيرغ بزعم أن الفيلم هو الذى "اتفقنا كلنا على تصويره". لكن شاينبيرغ تمسك بموقفه وأصر على أن الفيلم لن تعرضه شركة يونيفرسال بدون تلك التعديلات. فهب غيليام من مقعده وقال بوضوح "قبل أن يحدث ذلك سأحرق النيجاتيف والبرج الأسود".

وهكذا تطورت الأمور لما هو أكثر من سوء تفاهم بسيط.

الشيء الوحيد الذى كان فى صالح شركة يونيفرسال فى العقد هو بند مدة الفيلم المعدل. وكان بمقدور غيليام أن ينتقص بضع دقائق من مدة الفيلم وحينها لم يكن ليتوفر أى مسوغ قانونى لشركة يونيفرسال. لكن غيليام رفض فعل ذلك. وأنداك، كانت شركة يونيفرسال مدينة لميلتشان به ٤ مليون دولار عن فيلم برازيل، وكانت ترفض تسديدها حتى مطابقة بنود العقد تماماً، وفى تلك المرحلة كانت المشكلة الوحيدة هى مدة الفيلم. لوح شاينبيرغ بإمكانية عدم تسديد المبلغ لميلتشان، وبدأ ميلتشان يستاء من ذلك.

وبالرغم من شعوره بالغضب، كان غيليام يستمتع بما يضمه الموقف من سخرية، إذ غدت شركة يونيفرسال تمثل بالنسبة له البيروقراطية المؤسسية التى يسخر منها فيلم برازيل. كان وضع تحاكي فيه الحياة الفن. لكن غيليام كان متخوفاً من شعور ميلتشان بالتمزق بين رؤيته للفيلم والمبلغ الذى تمنعه عنه شركة يونيفرسال. لكن ميلتشان قال إنه ليس ثمة عيب فى محاولة استرداد

حوالى ٥ ملايين دولار من منظمة تستهين بك وتخدعك.

ومن باب المجاملة لميلتشان، نقح غيليام الفيلم حتى أصبحت مدته ١٢٥ دقيقة وأرسله إلى شركة يونيفرسال. وكان الوحيد الذى شاهد تلك النسخة هو سيد شاينبيرغ. ولم يسعد بها، وكلف ميلفين ساتلر محامى شركة يونيفرسال بإرسال خطاب إلى غيليام لإخطاره بأنه ينتوى البدء فى تنقيح فيلم برازيل بمعرفته، وكان هذا حقهم بموجب العقد بعد رفض المخرج للعديد من المحاولات المعقولة للتعاون معهم، وهو بند لم يفرضه من قبل أى استوديو فى تاريخ هوليوود إلا فيما ندر.

وأرسلت شركة يونيفرسال عقب ذلك طلباً رسمياً إلى غيليام بكل اللقطات ومقاطع الصوت حتى يتمكنوا من البدء فى عملية التنقيح. واستجاب غيليام بأن أرسل لهم مجموعة كاملة من القصاصات، وقليلاً من اللقطات المصورة ومقاطع الصوت وكان يعرف أنهم سيستغرقون أشهراً لمحاولة فهمها، وحينها سيكون قد جهز النسخة النهائية. فى تلك الأثناء، كان شاينبيرغ الذى كان يدفع للعاملين أجورهم بالساعة لمراجعة اللقطات المترهلة، كان يستشيط غضباً.

فى مطلع يوليو، أرسل غيليام نسخته النهائية الثانية إلى شركة يونيفرسال. ومجدداً لم تعجب شاينبيرغ، لكن فى تلك المرة لم يكن لديه خيار سوى الإفراج عن مبلغ الـ ٥ مليون دولار التى يدين بها لميلتشان، حيث وفى بشروط العقد، ثم أخطر غيليام عبر ساتلر، أن شركة يونيفرسال ستتولى عملية تنقيح كاملة للفيلم بدون مشاركته وستغيره بشكل جذرى. كان ذلك إعلان حرب بالنسبة لغيليام. وتبادل كلاهما الخطابات الغاضبة، لكن بمرور الوقت تبين لكل من غيليام وميلتشان بكل وضوح أن شركة يونيفرسال ليس لديها نية لعرض فيلم برازيل كما تصوره بداية.

وبالرغم من كل ما حدث، كان ميلتشان لا يزال يعتقد بسذاجة أنه على علاقة طيبة بشاينبيرغ وبأستوديهات يونيفرسال. لكن شاينبيرغ كان ينظر لميلتشان بأسلوب جد مختلف. وبدا من مقابلاتهما الأولى أنه ينظر لميلتشان بتعالى وكأنه تاجر سجاد شرقى وكيهودى جلف، مهووس بالمال - بخلاف شركة يونيفرسال بالطبع! - ويسعى لاكتساب الاحترام باستخدام ثروته المشبوهة لينخرط فى مجال صناعة الأفلام.

وكانت تلك رؤية مثيرة للاهتمام، إذ أخذنا فى الاعتبار العلاقات السابقة والموثقة جيداً لليو واسرمان رئيس شاينبيرغ ورئيس مجلس إدارة شركة إم سى إيه لفترة طويلة بالمافيا. ومن المرجح أن موقف شاينبيرغ كان ليتغير إذا عرف المزيد عن مغامرات ميلتشان السرية وإنجازاته.

واستغرق ميلتشان بعض الوقت ليدرك وجهة نظر شاينبيرغ، لكنه فى النهاية وجد نفسه مجبراً على الاختيار بين ما اعتبره علاقة عمل مع شركة يونيفرسال والتزامه برؤية مخرجه الفنية. وكان ذاك اليوم يقترب بسرعة.

ويحلول أواخر أغسطس ١٩٨٥، نشرت جريدة لوس أنجلوس تايمز والعديد من الإصدارات الأخرى على صفحاتها الأولى عدم مثول ريتشارد كيلي سميث لمحاكمته بتهم تهريب المفاتيح النووية، وظهر اسم ميلتشان فى كل تلك المقالات تقريباً.

وفى ذات الوقت تقريباً، ظهر اسمه أيضاً فى قسم التحقيقات الصحفية بجريدة لوس أنجلوس تايمز حيث تم تناول النزاع المتفجر الآخر الذى كان طرفاً فيه. وفى ذلك المقال وصف ميلتشان للصحفى جاك ماثيوز قصة نابضة بالحياة عن فيلم مذهل تم تسليمه فى الوقت المحدد له ويميزانية أقل من المتفق عليها لكنهم

تصيدوا أخطاءه وأبقى على الفيلم رهينة فى مكتب مسئول الاستوديو البيروقراطى
الفظ الذى لا يفهم الرؤية الفنية للفيلم ويريد أن يؤدى دور المونتير لعمل فنى صنعه
غيره. وأخبر ماثيوز أيضاً بأنه يريد أن يشاهد فيلم برازيل أكبر عدد من النقاد
حتى يقرروا بأنفسهم ما إن كانت تصرفات مسئول الاستوديو مبررة وما إن كان
حتى مؤهلاً لتقييمه.

بعدما أغلق ميلتشان الهاتف مع جريدة لوس أنجلوس تايمز، أدرك أنه قد بلغ
نقطة اللاعودة، وأنه تجاوز الخط الأحمر وأن علاقته بشاينبيرغ وبالتالي مع
استوديوهات يونيفرسال ستتدهور فى الحال. وكان أرنون يعرف أيضاً منذ نعومة
أظافره كطفل فى إسرائيل أنه إن وجد نفسه فى خضم معركة، فعليه أن يقاتل
لينتصر، ومنذ تلك اللحظة تأهب للقتال. وكما هو متوقع، اتصلت الصحيفة
بشاينبيرغ لسماع جانبه من القصة. ولا داعى للقول إنه لم يكن سعيداً.

وخلال أيام كان العنوان المنشور فى القسم الفنى فى جريدة لوس أنجلوس
تايمز هو: برازيل: فيلم لا تتحمله أمريكا. وكان المقال مدمراً بالنسبة لشاينبيرغ.
وتم تصوير ميلتشان كمنتج يزود عن رؤية مخرجه المتأهب لتحدى الآلة الهوليوودية
ومسئولها المتحجر ذى الحلة الفاخرة القابع فى البرج الأسود. وصيغت القضية
على أنها حالة من الاضطهاد الفنى، والرقابة، والانتهاك البيروقراطى. وعرض
ميلتشان حتى أن يدفع كل النفقات لأى صحفى أمريكى جاد مستعد لمشاهدته
خارج الولايات المتحدة. وقال إنه سيستأجر دار عرض فى تيهوانا، المكسيك، وأنه
سيُقبل نقاد الأفلام بالحافلة إلى هناك ليُبدوا رأيهم فى الفيلم وليكوّنوا آراءهم
الخاصة حول حكم سيدنى شاينبيرغ فى هذا الشأن.

كان مقالاً مدمراً. وتم تصوير شاينبيرغ كرجل متعنت متعجرف وغير عقلانى.

وكان مسئولاً كبيراً في استوديو بهوليوود، رجلاً اعتاد احترام الناس له وحتى خوفهم منه. كما كان معتاداً على تملق الناس له ليل نهار، وأنه غير مسئول أمام أحد سوى الله وليو واسرمان، وليس بذلك الترتيب بالضرورة. وفجأة، وجد شاينبرج متمردين يهينانه علانية، ويصورانه كصانع أفلام أخرج محبب مفرط الطموح، وأدرك أنها البداية فحسب، وكان محقاً في ذلك.

وتابع ميلتشان قصة جريدة لوس أنجلوس تايمز مع التماس شاينبيرغ من خلال العديد من الخطابات لعرض فيلمه في الوقت الذي يسمح بترشحه لجائزة الأوسكار عن عام ١٩٨٥. وكان يضمّر أن شاينبيرغ لا يدرك المادة الفيلمية التي تصلح للترشح لجائزة الأوسكار عندما يراها. وكانت تلك بداية ما وصفه غيليام بحرب الغوريلات الشرسة التي كان شاينبيرغ هدفها الثابت، ولم يكن ليأمل بأى شكل في الفوز على صعيد العلاقات العامة.

واقترح ميلتشان عرض فيلم برازيل في مهرجانات أفلام خارج الولايات المتحدة قائلاً "من فضلكم، تعالوا وشاهدوا ما لا يودكم مسئول الاستوديو الأمريكى أن تشاهدوه".

وبلغ أمر العروض العالمية للفيلم الصحافة الأمريكية محدثة ضجة هائلة عادة ما تدفع الاستوديوهات ملايين الدولارات مقابلها. صرحت فاريتى أهم مجلة تجارية بأن غيليام والمنتج ميلتشان أعلنّا أنّهما سيفعلان كل ما بوسعهما لإحباط نية استوديوهات يونيفرسال لإعادة مُنتجة فيلم الكوميديا السوداء ذى الرؤية المستقبلية "برازيل" واختصاره.

ونشر غيليام وميلتشان بعد ذلك إعلاناً على صفحة كاملة في مجلة فاريتى جاء به بخط كبير صارخ "عزيزى سيد شاينبيرغ، متى ستفرج عن فيلمى برازيل؟"

وأصبح الفيلم حديث الأسبوع في المجال السينمائي، وتبنى القضية المخرج الأسطوري أورسون ويلز علناً. وقرر غيليام عرض الفيلم في جامعتين سينمائيتين في منطقة جنوب كاليفورنيا ودعا الصحافة، ولم يكن الفيلم سيعرض بشكل رسمي، بل لأجل المناقشة الأكاديمية. وكانت الجامعتان اللتان اختارهما هما جامعة جنوب كاليفورنيا وجامعة كاليفورنيا للفنون. وعندما عرف شاينبيرغ بالأمر، اتصل شخصياً بروي هايديك مدير العمليات في جامعة جنوب كاليفورنيا، وأخبره أن شركة يونيفرسال تملك حقوق عرض الفيلم في الولايات المتحدة وأن أي عرض للفيلم يعد انتهاكاً. ولم يطلب منه صراحة أن يحظر عرض الفيلم في الحرم الجامعي، لكن شاينبيرغ كان رجلاً قوياً ووصلت الرسالة لهايديك بكل وضوح. وألقى عرض الفيلم بينما كانت قاعة العرض مكتظة فوق سعتها بالطلاب الذين أملاوا في مشاهدة الفيلم الذي أثار كل تلك الجلبة. وحدثت مواجهة حادة بين غيليام ومحاميه إريك وايزمان وهايديك. وانتظر الطلاب بنفاد صبر بينما كان غيليام يعتلي المسرح بشكل متقطع ليخبرهم بالمستجدات، لكن هايديك رفض السماح لاختصاصي العرض بعرض الفيلم، واتهمه غيليام بصوت عال من على المسرح بأنه أشبه بحارس معسكر نازي، يتعامى عن الأفعال الشريرة.

حاول وايزمان تخطي هايديك واتصل براسل مكغريغور، رئيس جامعة جنوب كاليفورنيا للفنون السينمائية، لكنه لم يستطع تجاوز سكرتيرته، والتي أخبرته أنه مشغول. وعندما أعلن غيليام أن مكغريغور مشغول لحد أنه لا يستطيع تلقي مكالمته، غادر حوالي ٦ طلاب المسرح وساروا حتى مكتب مكغريغور ليطالبوه بالخروج ليتحدث إليهم. واختبأ مكغريغور في المكتب حتى بدأ الطلاب يهتفون اخرج! اخرج!. وكان الأمر يحتمل التطور لما هو أسوأ من ذلك لكن غيليام تدخل لتهديئتهم ولتجنب مظاهرة حاشدة.

وتم تأجيل عرض الفيلم لكن وجهة النظر وصلت.

لكن، كان عَرَض الفيلم في جامعة كاليفورنيا للفنون بعد بضع ساعات تجربة مختلفة، إذ امتلأ المسرح عن آخره حتى أصبح عرضة لخطر الحريق. وقوبل الفيلم بحماس رائع من الطلاب، والذين شعروا وكأنهم مشتركون في نشاط هدام. عقب ذلك أرسل الطلاب خطاباً مؤثراً إلى شاينبيرغ يطالبونه فيه بالإفراج عن الفيلم.

ومضى غيليام يعرض الفيلم بشكل سرى في المنازل الخاصة لصفوة نقاد الأفلام في لوس أنجلوس، الأمر الذي ألهم بعض النقاد لنشر مقالات إيجابية في الصحف والمجلات، مما جعل شاينبيرغ يبدو أكثر روعة. في الصحافة، بدا أن الجميع قد أعجبهم الفيلم. وبدأ شاينبيرغ يدرك أخيراً أن عليه رواية جانبه من القصة ووافق على إجراء مقابلة مع جاك ماثيوز في جريدة لوس أنجلوس تايمز.

وجه شاينبيرغ نقداً لاذعاً لفيلم برازيل وميلتشان وغيليام بطرق لم يفعلها أى مدير تنفيذى لاستوديوهات هوليوود من قبل أو من بعد. ووصف فيلم برازيل بأنه مسروق من فيلم "١٩٨٤" مع إدخال بعض عناصر التائق لكنه في الأصل لا يستحق العرض. ووصف غيليام بأنه مخرج غير كفء مغرور. وعرض شاينبيرغ بعد ذلك بيع الفيلم مرة أخرى لميلتشان.

واقتنص ميلتشان تلك الفرصة وطرح النقاش في الحال مع شركة يوناييتد آرטיستس. ثم اتصل بشاينبيرغ وطلب شراء الفيلم منه بـ ٤,٥ مليون دولار. وأصر شاينبيرغ على ٥ مليون دولار بالإضافة إلى نسبة ٣٠٪ من أرباح تأجير فيلم الفيديو، والعروض التليفزيونية الخاصة، والنشاط النقابي. ثم أعلن بعد ذلك عرضه على الملا، وصرح للصحافة قائلاً:

"آرنون، لدينا في تكساس مثل شائع يقول: ضع أموالك حيث يكون فمك، وأنا

واثق أنه له مثيل بالعبرية. وكان هذا تصريحاً مثيراً للفضول نظراً لأن ميلتشان كان يجازف بأمواله الخاصة بينما كان شاينبيرغ ينفق من أموال الشركة.

ورد ميلتشان فى عام ١٩٨٥ على ما يعتبره حتى يومنا هذا إساءة متعجرفة ومعادية للسامية وقال "معاداة السامية هى معاداة السامية، حتى عندما تصدر من يهودى مندمج فى مجتمع بيفرلى هيلز".

واستمرت المفاوضات المتوترة وغير المثمرة، لكن حدث شىء بعد ذلك لم يستطع حتى سيد شاينبيرغ التفاوضى عنه، وكان ذلك شيئاً محرجاً للغاية جعله يستسلم. فى ١٨ ديسمبر ١٩٨٥، التقى اتحاد نقاد أفلام لوس أنجلوس فى نادى بيفرلى هيلز للصيد لاختيار الفائزين فى مختلف فئات الأفلام لعام ١٩٨٥. ولم يرد فى اللوائح ما ينص على عدم ترشيح الأفلام التى لم تعرض بعد. وقرروا أن فيلم برازيل من ضمن الأفلام المرشحة مع "بيتريز أونور" و"ران" و"أوت أوف أفريكا" و"ذا كالر بيريل" و"كيس أوف ذا سيادير" و"ومان" و"ماسك" و"باك تو ذا فيوتشر". وعندما تم احتساب الأصوات، فاز فيلم برازيل بجائزة أفضل نص، وأفضل مخرج، وأفضل فيلم لعام ١٩٨٥. وبالطبع جاءت الأخبار الهامة كصدمة لشاينبيرغ. وتلقى ميلتشان المكاملة بينما كان فى فراشه فى فندق الدبلوماسيين فى ستوكهولم. وعندما أخبروه قفز من فراشه واصطدم رأسه وكاد يفقد وعيه. وانقطعت المكاملة.

وبلغت غيليام الأخبار عبر جهاز الرد الهاتفى. وانطلق يرقص فرحاً فى مطبخ منزله بينما كانت عائلته تشاهده باستمتاع. وعرف أنه، بحكم العادة، ستشتر شركة يونيفرسال إعلاناً فى مجلة ديلى ثاربيتى لتهنئة الفائزين، وعرف أن شاينبيرغ لن يجبن أكثر من ذلك وقال: ربما سنفاجأ، ويحقق الفيلم نجاحاً ساحقاً. أمل أن يحبه الجمهور وأن تبلغ أرباحه الـ ١٠٠ مليون دولار حتى أعزى نجاحه إلى السيد غيليام

والسيد ميلتشان.

وتم الإفراج عن الفيلم أخيراً، وثبت صحة تنبؤات شاينبيرغ التجارية المتشائمة. ولأسباب متعددة، منها فشل شركة يونيفرسال فى التسويق والتوزيع، تم عرض فيلم برازيل لفترة وجيزة محبطة لشباك التذاكر. ومع ذلك، فقد احتل مكانته فى شريحة الأفلام السينمائية الكلاسيكية، ويمرور الوقت عوَض خسائره. لكنه لا يَجْتَذِب حالياً إلا القليلين. وفى الأساس، يذكر الناس فيلم برازيل كشرة لأشهر المعارك فى تاريخ السينما، وأن شخصين مغمورين هزما أحد أقوى المسؤولين لأحد أكبر الاستوديوهات السينمائية، ولم يهزماء فحسب بل وأهاناه أيضاً.

عندما تحدى شاينبيرغ كلاً من ميلتشان وغيليام، لم تكن لديه فكرة عما كان يقحم نفسه فيه. وظن أنه سيسحقهما كالحشرات، كئى شخص يجرؤ على تحدى نظام الاستوديو. ولاحظ الناس ذلك، وكأبعد ما يكون عن تدمير مسيرته المهنية، فقد صنع ميلتشان اسماً لنفسه على حساب شاينبيرغ. وفى حوار معه بعد بضع سنوات، زعم شاينبيرغ أنه لا يذكر من النزاع إلا بعض المشاكل المتعلقة بالعقد، ولمح بذلك إلى أنها كانت عقبة تافهة فى طريقه، نجح فى تخطيها.

لكنه لسبب ما استطاع أن يتذكر ما يكفى عن ميلتشان ليصرح بالآتى: "لم يؤكد أحد أن السيد ميلتشان لديه أية موهبة فى هذا المجال. بل إن لديه سلسلة من الأعمال الفاشلة تماماً. أعتقد أن أكبر خدمة يمكن أن يقدمها لمستقبل السينما هى أن يستأنف أنشطته فى مجالات أخرى". وبالطبع لم تكن لديه أدنى فكرة عن مشاريع ميلتشان الأخرى.

وظل سيد شاينبيرغ مديراً لشركة إم سى آيه يونيفرسال حتى عام ١٩٩٥، وعندما تم إقصاؤه من قبل المالك الجديد وهى شركة ماتسوشيتا، تم إنقاذه بصفقة

ثمينة لتأسيس استوديو إنتاج وهو فى طريقه للرحيل. وأسس شركة وأسمها "ذا بابل فاكترى"، وأنتجت عدة أفلام فشلت فى شباك التذاكر مثل "فليبر" و"ماكهيل نيفى". ولم تترك انطباعاً جيداً على شركة يونيفرسال التى طبقت الشرط الوقائى وأنهت العلاقة. وأصبح ميلتشان أهم منتج مستقل فى هوليوود بسلسلة من الأفلام الضخمة.

وبعد أعوام، وفقاً لميلتشان، وفى يوم مُشمس فى برود بيتش، مالىبو، كان يتمشى عندما قابل كلباً ودوداً وبدأ يلعب معه. وفى لحظات ظهر مالك الكلب فجأة وكان مستاءً وقال
"معذرة! هذا كلبى".

والتفت ميلتشان ليرى سيد شاينبيرغ وقال متفاجئاً "أعتقد أن هذا يعنى أننا صرنا جارين".

ولم يكن شاينبيرغ ودوداً وأجاب "ستنخفض قيمة العقارات هنا بسببك". ولم يتحدثوا مذاك.

وعقب فيلم برازيل، تدهورت علاقة ميلتشان بتيرى غيليام بسبب نزاع مالى. إذ كان ميلتشان يمتلك نصف فيلمهما التالى "ذا أدفينشر أوف بارون مانتشوسين". وفى مقابل التخلّى عن نصيبه فى الفيلم، طالب ميلتشان بتعويض: "وقعنا علاقة عمل أنا وهو. كنت أمتلك نصف الفيلم وكان على التضحية به. ولا يعنى بيع نصف الفيلم مقابل ٧٥ ألف دولار أننى صعب المراس، وأخبرت محامى أن يعقد صفقة يراف فيها قدر الإمكان بتيرى".

وفى النهاية، ثبت أن غريزة ميلتشان فى الانفصال عن مشروع الفيلم وعن

تيرى غيليام كانت حكيمة من الناحية العملية. ما بدأ بميزانية ٢٣ مليون دولار تضخم حتى صار حوالى ٥٠ مليون دولار. وكانت إيرادات الفيلم أقل من ٦٠٠ ألف دولار فى العطلة الأسبوعية الأولى للفيلم، وإجمالى ٨ مليون دولار فى الولايات المتحدة. أى أنه كان من أسوأ كوارث شباك التذاكر فى تاريخ هوليوود. وهكذا تفادى ميلتشان أزمة أخرى. ومع ذلك، عندما طلبنا رأى ميلتشان فى أفلامه الأولى، ردد تعليقات أدلى بها لصحفيين منذ بضعة أعوام وقال:

"كانت تلك أفضل أيام حياتى. أنتجتُ عدة أفلام مذاك، وكانت الأفلام الأولى تلك الأكثر تحدياً. لم أشعر بمثل هذا الشغف قط، من الناحية المهنية، مثلما شعرت به فى تلك المشاريع الأولى". ويقدرته الاستثنائية على الفصل بين شئون حياته، نجده غير منتبه للمخاطر الهائلة، والصعوبات، والانتكاسات التى عانتها فى نفس العام مؤسسته الأخرى الأكثر سرية. وفى عام ١٩٨٥ شعر بأنه مفعم بالحياة أكثر من أى وقت آخر، بالرغم من التحديات، أو ربما بسببها.

السيد سميت وزوجته

لا أقول إنتى شخص برىء، لكن فى تلك الحالة تحيداً، لم أكن أعرف شيئاً.
أرنون ميلتشان فى عرض أول الفيلم فى يونيو ١٩٩٣

وسط زوينة من المشاعر المتضاربة، وصل الدكتور جون شيلر وإمبلى إلى موطنهما
الجديد المؤقت، أى مدينة زيوريخ، وكانا قد سافرا متخفيين واكتسبا هويتين جديدتين.
وكانا يعرفان أنهما سيظلان مختبئين وهاريين من العدالة بقية حياتيهما، وخطما
للاستفادة القصوى من موقفهما غير المحسوم.

وكانا يعرفان أنه إن خرج الإسرائيليون سالمين من القضية، فسيكون لديهما من الموارد ما يكفل لهما نمط حياة متواضعاً لكنه مريح. وحاولا تبني منظور إيجابي واعتبار الأمر برمته تقاعداً مبكراً.

وكانت أولى مهامهما هي العثور على مصرف يونيون بانك أوف سويتزرلاند في وسط المدينة، حيث سيفتحان حسابهما. وتبادلا حديثاً مطولاً مع محاسبهما التنفيذي الجديد، والذي تعرف على صوتيهما ودبر لهما استخدام المصرف عبر الهاتف. وأودعا فيه معظم مبلغ الـ ١٥ ألف دولار الذي أحضراه معهما من حساب الطوارئ بشركة ميلكو، وفي الحال بدما في البحث عن شقة لاستئجارها.

وخلال فترة وجيزة وجدا شقة صغيرة في الجزء الشمالي من المدينة مقابل ٤٠٠ دولار في الشهر. واستأجرت، إميلي الشقة غير المفروشة، وذهبت لتجر قريب

لشراء الحد الأدنى من الضروريات، من مرتبة هوائية، إلى لحاف محشو بالريش، إلى ملءات، إلى مناشف، إلى وسائل. وكانا في حاجة أيضاً لشراء بعض الأطباق والمقالي وأدوات المائدة. وما أن نقلا معدّاتهما المتواضعة الجديدة للشقة، أعادا السيارة المستأجرة واعتمدا على النقل العام الفعال في زيوريخ فيما هما ينتظران التعليمات قلّقين.

كلاهما كان زائد الوزن، وفي منتصف الخمسينيات، وكانا آنذاك بلا تأمين صحي. واتخذوا قراراً حاسماً بتخفيف وزنيهما وبدءاً في الخروج في رحلات سير طويلة كل يوم إلى جبل يوتلبيرغ القريب، واتبعوا برنامجاً صارماً من التمارين الصباحية اليومية. وأصبحا أيضاً نباتيين ملتزمين. وسرعان ما بدءا ينحفان ويشعران بتحسّن بالغ. وأملا أن يساعدهما مظهرهما المتغير في تجنب التعرف عليهما بسهولة، بالإضافة لجعلهما في حالة جسدية جيدة تزيد من فرص هروبهما

على الأقدام إن دعت الضرورة لذلك.

وسراً عندما علما أن بزيورخ شركة أوبرا كلاسيكية من الطراز الأول تقدم عروضاً بدار الأوبرا القديمة كل ليلة تقريباً، وبدءاً يستغلان ذلك سريعاً كإلهاء مرغوب فيه عن خوفهما المائل ورهاب الارتياح. وكانت رحلات السير الطويلة بمحاذاة بحيرة زيورخ وعبر حرم جامعة زيورخ مصدر إلهاء مفيد أيضاً. وكان التواصل مع السكان المحليين في متناولهما أيضاً، وكان سميث قد تعلم الألمانية كجزء من المتطلبات اللغوية في رسالة الدكتوراه الخاصة به، وكانا يتعلمان كلمات جديدة كل يوم.

وكل أسبوع كان ريتشارد أو إميلي يزوران فرع مصرف يونيون بانك للاستعلام عن التمويلات التي ينتظرانها كي يبدأ المزيد من ترتيبات الإقامة الدائمة. وإلى جانب مخاوفهما من القبض عليهما من قبل المباحث الفدرالية أو الاستخبارات الأمريكية، فقد كانا قلقين من فكرة أن يفشل الإسرائيليون في تحويل الأموال، وفي تلك الحالة ستتدهور حالتها المالية سريعاً.

لكن مع كل الخوف والرضوض، فقد أحب ريتشارد وإميلي مدينة زيورخ سريعاً وشقتهما قليلة الفرش، والتي كانت تتناقض تماماً مع نمط حياتهما في منزلها الشاطئي الراقى ذي الخمس غرف نوم والذي كانا يتمتعان به لعدة سنوات في هنتنغتون بيتش. والآن، وجدا أنهما قد حُرما من نوادي اليخوت، وحفلات الكوكتيل. لكنهما أعادا اكتشاف البهجة في أشياء بسيطة وأعادا اكتشاف بعضهما البعض.

ويحلول مطلع أكتوبر أرسل أول رسالة مشفرة إلى العائلة ليخبراهم بأنهما على قيد الحياة وبحال جيدة. ووصلت أول رسالة مجهولة لصديق جين مانز والدة

إميلي، والتي كانت تعيش منعزلة في لاغونا هيلز، كاليفورنيا. وكانت الرسالة قصيرة وبسيطة تقول "أخبروا أمي أنني في أمان". وعقب ذلك بفترة وجيزة، أعلما أولادهما بمكانهما، وبانضباط رائع، كتمت العائلة السر عن السلطات الأمريكية. ومن أن للآخر كان عميل فدرالي يأتي ليستجوب أفراد العائلة بشأن أى اتصال قد يكون قد حدث معهم، لكنهم لم يفصحوا عن أى شىء، ولم يتم تبادل الخطابات المباشرة خوفاً من أن تكون السلطات تراقب البريد، وبمرور الوقت تم استخدام وسائل اتصال معقدة.

ذهب ابنهما الأصغر إلى زيوريخ حاملاً بعضاً من أغراضهما الشخصية. وأحضر معه أيضاً نسخة من مجلة لوس أنجلوس تايمز التي وصفت المشهد الفوضوى في قاعة المحكمة في اليوم الذى تغيب فيه سميث عن الجلسة: القاضى الغاضب، ومطالب المدعى العام المدوية بقرارات فورية، وتعليق محاميه الذى اعترف بجرم موكله، وحقيقة أن القاضى قضى بإخطار الإنتربول في لندن في الحال. وعزز هذا من حاجتهما لاتخاذ كل الاحتياطات وتجنب ممارسة أى من هواياتهما القديمة والتي قد تُرصد وتكشف عن مكانهما. في أوروبا، كان استئجار السيارات، والإقامة في الفنادق، والعديد من الأنشطة الأساسية الأخرى تتطلب تقديم بطاقة الهوية، وبالنسبة للأجانب، تتطلب تقديم جواز السفر. ولذلك كانت هوياتهما الجديدتان حاسمتين لمتطلبات الحياة الأساسية.

ثم كان هناك ارتيابهما المرضى اليومي وخوفهما من أن يتم القبض عليهما، وكانت تتخلل ليالى الأرق كوابيس مفزعة بالقبض عليهما وأفكار بخصوص الأقمار الاصطناعية الأمريكية التى تراقب العالم والتي تستطيع قراءة اللوحات المعدنية للسيارات! وكانا يتساءلان ما إن كانت ثمة توجيهات بالبحث عنهما. كان قلقاً سخيفاً إذا فكرنا فيه الآن، لكن الأفكار العقلانية صعبة المنال في مثل تلك الظروف.

ويعصف سميث في روايات لاحقة له كيف خرجت إميلي ذات يوم للتسوق وعادت مبكراً عن ميعادها، ودقت جرس باب الشقة. ولم تكن هناك عين سحرية في الباب وخاف سميث أن يفتح الباب أو حتى أن يجيب شفهاً، إذ راودته رؤية فظيعة بالقبض عليه وجره للسجن، ثم ترحيله إلى متعبيه المتربصين به مجدداً بينما لا تعرف إميلي ما حل به. ونتج عن ذلك إصابته بنوبة هلع ولم يستطع أن يحمل نفسه على فتح الباب. وبعد بضع دقائق محمومة بدت أبدية، بدأت إميلي تسير حول المبنى على أمل أن يراها ريتشارد خارج النافذة ليدرك أنها هي الطارقة.

لكن ريتشارد الرجل الناضج واسع المعرفة، كان يجلس القرقصاء في حوض الاستحمام وراء ستائر الحمام، خائفاً لحد يمنعه من اختلاس النظر عبر النافذة. وفي النهاية، عادت إميلي إلى الباب الأمامي وفعلت ما كانت تأمل أن تتجنبه. فتخلت عن السرية وصاحت بأعلى صوتها بينما هي تدعو ألا يسمعها الجيران ويبلغوا بوجود شيء مريب، وسمع ريتشارد نداءاتها، وبارتياح عظيم قفز من وراء الستائر وأدخلها أخيراً. وكان قلبه يخفق بشدة.

وفي هوليوود، ووسط نزاع فيلم برازيل، بلغت ميلتشان أخبار هروب سميث بنجاح.

وبينما كان كل من ميلتشان وتيرى غيليام يحسنان من سمعتهما في كاليفورنيا، كان عميل ميلتشان السابق هارباً من العدالة ويعيش في المنفى، بعيداً عن عائلته، وعن وطنه، وقد فقد سمعته التي كان يتمتع بها يوماً، وبعيداً عن الحياة الوحيدة التي كان قد عرفها. وكما قال أحد أفراد العائلة في شهادته إن ذلك كان بمثابة موت لفردين من العائلة.

ويحلول أول نوفمبر ١٩٨٥، كان التوتر قد أصاب الزوجين سميث، إذ لم يصل

الإيداع الأول، وبدأ الطقس يصبح بارداً وكثيباً، وكانت مواردهما المالية تتضاؤل سريعاً. وأصبحت زيارتهما للمصرف لتفقد الإيداعات التي يتم تحويلها أكثر تكراراً ويأساً. بالإضافة للخوف وجنون الارتياح من أن يُكتشفا ويتم ترحيلهما، سيطرت عليهما فكرة أن الإسرائيليين قد خانوهما.

ثم ذات صباح في ٢٣ من نوفمبر عام ١٩٨٥، تفاقمت مخاوفهما للأسوأ. إذ اشترى سميث نسخة من جريدة إنترناشونال هيرالد تريبيون وقرأ أخبار القبض على محلل استخباراتي بحري يدعى جوناثان جاي بولارد وزوجته آن، للاستباه فيهما بالتجسس بعد محاولة الهرب من فريق مراقبة المباحث الفدرالية إف بي آي. ولم يستطيعا ألا يلاحظا أن موقفهما الشخصي كان مشابهاً بشدة، فهما زوجان هربا نجا بحياتيهما وكان الزوج يواجه حكماً محتملاً بالحبس مدى الحياة. وعرفا أيضاً بعد ذلك، أنهما مثل الزوجين بولارد، كانا عميلين في منظمة سرية اسمها لاكام!

في صباح ٢١ من نوفمبر عام ١٩٨٥، حزم جوناثان وأن بولارد أمتعتيهما، وأخذوا ألبوم صور زفافهما، وقطعتهم داستي، وشهادتي ميلادهما، ورخصة الزواج، وأوراق التطعيم. تماماً كما فعل الزوجان سميث منذ بضعة أشهر. كانا يخططان بشكل هستيري للرحيل عن الولايات المتحدة للأبد، إذ استقلا سيارتهما المستأنف الخضراء، وكما فعل الزوجان سميث، بدءا يقودانها في دوائر، ويغيران الحارات، وينعطفان سريعاً ويغيران اتجاههما، في سعى يائس لتضليل أي متتبعين. ومثل الزوجين سميث، كانا خائفين ومرتابين. في النهاية، وفي الساعة الـ ١٠:٢٠ صباحاً وصلا إلى بوابة السفارة الإسرائيلية رقم ٢٥١٤ في الطريق الدولي في واشنطن دي سي. ولم يلاحظا أن المباحث الفدرالية كانت تتبعهما بأكثر من سيارة غير مميزة.

ومن خلال الاتصالات اللاسلكية المحكمة، عندما كانت ثمة سيارة تتوقف، وكانت سيارة أخرى تحل محلها، ولم ير بولارد سيارة واحدة تتبعه. كان ريتشارد وإيميلي سميث قد هربا بنجاح منذ بضعة أشهر في ظروف مثيلة ولم تكن المباحث الفدرالية لتسمح بحوث ذلك مجدداً. وفي تلك المرة زرعوا جهاز إشارات إلكترونية في مصد سيارة بولارد المستأنف، حيث كانت الإشارة الإلكترونية ستحدد موقع السيارة حتى إذا استطاع التخلص من متبعية.

ووفقاً لبولارد، فقد كان قد نسق مع أمن السفارة مسبقاً، وكان من المفترض أن تفتح له البوابة في تمام الساعة الـ ١٠:٢٠، ووصل بولارد في موعده بالضبط. ودخل مجمع مباني السفارة بالسيارة مباشرة وأغلقت البوابة من خلفه. "مرحباً بك في منزلك" تذكر بولارد أن أحد الحراس قال له هذا فشعر بارتياح بالغ. أخيراً، كان في أمان. لكن في ظرف دقيقة، كانت السفارة محاطة بالمباحث الفدرالية، ودسته من السيارات، وشاحنات أحدثت جلبة هائلة في الشارع بالخارج.

وأخذ عملاء المباحث الفدرالية يتوافدون من السيارات ويأخذون مواقعهم حول السفارة حاملين المناظير المتطورة ويتبادلون الإشارات اللاسلكية. وأدرك أفراد الأمن في السفارة ما يحدث وتجمعوا سريعاً. وإذا هم مرتبكون ولا يعرفون كيف يتصرفون، تحدثوا على الهاتف مع ضابط كبير داخل السفارة.

وعندما عادوا لبولارد، كان موقفهم قد تغير كلياً حيث قال العميل بإصرار:

- عليك أن تغادر السفارة.

* ماذا؟

- لقد سمعتني، عليك أن تغادر.

* هل تعرف من أكون؟

- عليك أن تخرج.

ولم يصدق بولارد أذنيه وبدأ يصيح بصوت عال إنه يهودى يقف على أرض إسرائيلية ويطالب بحقوقه فى المواطنة وفقاً لقانون العودة. ولم يجد هذا نفعا. إذ أعاده العملاء الإسرائيليون بالقوة إلى سيارته، وفتحوا البوابة، وطلبوا منه التراجع بالسيارة والخروج بينما وقف جيش من عملاء المباحث الفدرالية يراقبون ما يحدث فى ذهول من خارج البوابة.

أخرج بالسيارة الآن! هكذا أمروا بولارد بصوت عال. ولم يكن لديه بديل آخر، وبدأت زوجته تبكى بشكل هستيرى فى المقعد المجاور له.

ويتردد، خرج بولارد من البوابة، وفى الحال ألقى العملاء الفدراليون القبض عليه هو وزوجته المنتحبة ووضعوا الأصفاة حول أيديهما.

كان بولارد الأخير من ٨ عملاء سيئى السمعة تم كشفهم فى عام ١٩٨٥، والذي عرف إعلامياً باسم عام الجواسيس. والثمانية هم جون أنتونى ووكر وشارون دبليو سكارانج و لارى و تاي تشين و رونالد ويليام بيلتون و راندى مايلز جيفريز وجوناثان جاى بولارد وريتشارد كيلي سميث.

كانت ضربة صادمة، لكن التخلّى عن بولارد للعملاء الفدراليين الذين كانوا يلاحقونه فى وضع النهار هو ما أقلق الزوجين سميث عندما قرأ عنه. وإن كان قد تم التخلّى عن بولارد بمثل تلك الطريقة أمام العالم أجمع، إذن فما يمنع الإسرائيليين من التخلّى عنهما أيضاً؟

ولحسن حظ الزوجين سميث أنهم أساءوا تقدير الموقف، إذ لم يكن فى وسع

إسرائيل فى تلك اللحظة أن تتحمل فضيحة أخرى فى الولايات المتحدة. وهكذا كان لابد أن يظل ريتشارد وإميلى سميث مختبئين ومحميين جيداً لخدمة المصالح الإسرائيلية الوطنية. وإن كانت ثمة معضلات داخلية فى تل أبيب قبل فضيحة بولارد بشأن كيفية تولى قضيتهما، فقد حسمت تلك المعضلات سريعاً من خلال تلك الظروف الجديدة.

وخلال أيام من القبض على بولارد، تم تحويل إيداع ضخّم لحساب عائلة "شيرلر". غمرهما شعور بالفرح والارتياح: فلم يكونا وحدهما، حيث نجح الإسرائيليون أيضاً. ولم يتوقف الأمر عند المال فحسب، فقد تلقيا رسالة مفادها أنه يتم إعداد وضع أكثر استقراراً لهما.

وفى أعقاب القبض على جوناثان بولارد، والتحقيق معه عقب ذلك، أدركت الولايات المتحدة لأول مرة وجود منظمة اسمها لاكام. واتخذت إسرائيل موقفاً رسمياً مفاده أن المنظمة تدير عملية مارقة. وفى المفاوضات مع الولايات المتحدة، وافقت إسرائيل على حل منظمة لاكام كلياً كجزء من اتفاق أوسع يعيد تأكيد التفاهم القائم بين البلدين بالامتناع عن جمع الاستخبارات بشكل سرى من أحدهما الآخر. أجبر رافى إيتان خليفة بلومبيرغ، على الاستقالة، وحُظر عليه السفر إلى الولايات المتحدة حتى يومنا هذا. لكن لاكام مازالت مستمرة فى العمل خارج الولايات المتحدة ببنية واسم مختلفين.

وبرغم سخط الولايات المتحدة من تجسس إسرائيل عليها، فقد استمرت هى فى التجسس على إسرائيل. وعادة، عندما يتم اكتشاف وقائع التجسس الأمريكى على إسرائيل يتم التعاطى معها بهدوء بين الحليفين. لكن كما تبين وثائق ويكيليكس فى عام ٢٠١٠ بوضوح، فالتجسس الأمريكى على إسرائيل مكثف،

ويبحث عن تفاصيل بالغة السرية عن أى شىء بخصوص القيادة الإسرائيلية، والإدارة، وأنظمة الاتصالات والتكنولوجيا التى تستخدمها الحكومة والأفراد العسكريون، بما فيها شبكات الهاتف المحمول، وهواتف الأقمار الاصطناعية، ومحطات الأقمار الاصطناعية المزوجة، والإشارات المزوجة والمتحركة، وأجهزة الاستدعاء، وطاقات الاتصال المدفوعة مسبقاً، وأنظمة الحماية، والتشفير، والاتصال الدولى، واستخدامات تبادل البيانات الإلكترونية، وشبكات الكابلات والألياف.

وإذ هما غافلان عن الجانب السياسى للموقف، ومؤمنان مالياً، ولديهما هويتان جديدتان، ولديهما حس جديد بالثقة، بدأ ريتشارد وإميلي الاستعداد لرحلة طويلة بالسيارة إلى وجهتهما الأخيرة، مكان تقاعدهما ومخبئتهما الأخير، والذى سيقضيان فيه بقية حياتيهما. وكان موسم الشتاء يقترب ببرده القارس ولم يكونا ينتويان تحمل الشتاء السويسرى، إذ كانا قد اعتادا على مر العقود على طقس كاليفورنيا المعتدل وذكرنا أنهما يفضلان موقعاً ذا طقس مشابه إن كان الاختباء فى المنفى هو خيارهما الوحيد.

وفى نهاية نوفمبر عام ١٩٨٥، وفيما تصاعد النزاع حول فيلم برازيل حزم الدكتور جون وإميلي شيلر ممتلكاتهما القليلة وانطلقا فى الصباح الباكر فى سيارة مستأجرة من زيوريخ إلى وجهتهما الجديدة. وبعد يوم كامل من قيادة السيارة بلغا برشلونة، إسبانيا، قبل أن يستأنفا رحلتهم فى اليوم التالى بمحاذاة الساحل إلى مالاكا فى مدينة كوستا ديل سول، مسقط رأس بابلو بيكاسو وأنتونيو بانديراس. وكانت سمعة مالاكا هى أنها تعد ملاذاً للهاربين، ومكاناً للتقاعد أيضاً. حيث كانت القوانين مترخية وكانوا يتغاضون غالباً عن وضع الهجرة لأى شخص لا يتسبب فى المتاعب تحت شمس المتوسط.

سلما سيارتهما "أفيس" المستأجرة ويعربون قيمته ألف دولار، فيما كانت تنتظرهما سيارة فيات سيت باندأ صغيرة للاستئجار من تاجر سيارات مستقل، ويدون ترخيص سيارة يتطلب تسجيل اسميهما، وأصبحت تلك السيارة هي سيارتهما الدائمة في المنفى.

ثم قادا السيارة إلى منزلهما الجديد الذي تم تديره لهما في ٦ شارع ماركوس دي أبريغون، الشقة سى ٢، وسراً لما وجداه. إذ كانت الشقة تقع فى منطقة راقية مشجرة أقصى غرب ميناء مالاكا، على بعد نصف مريع سكنى فحسب من شاطئ متوسطى جميل ومنتزه مصفوف بالمطاعم والمتاجر ممتد بطول الشاطئ، ومثالى لرحلات سيرهما اليومية.

عندما سألتهما مالكة المنزل، التى كانت تنتظرهما، عن مدة إقامتهما المنتظرة فى الشقة، سُرّت السيدة العجوز عندما سمعت كلمة للأبد. ثم فتحا حساباً مصرفياً فى الفرع القريب لمصرف بانكو بيلباو باسم "شيرلر" وتمكنا من خلاله تحويل الأموال من وإلى حسابهما المصرفى فى مصرف يونيون بانك فى سويسرا.

وسرعان ما تأقلم الزوجان شيرلر -سميث سابقاً- مع محيطهما الجديد المريح، وبتحول الأيام لأسابيع، أصبحت الأسابيع شهوراً، وبدأ الخوف الرهيب الذى كان متمكناً منهما يتبدد تدريجياً. وبدأ الشعور بالأمن والاستقرار يعود إليهما. وأدركا أنهما لا يتعقبهما أحد وأن أقمار التجسس فى الفضاء لا يعاد توجيهها من مسارها المعتاد فوق الاتحاد السوفييتى. كانا هاربين مهمين، لكن ليسا بهذا القدر من الأهمية. فى الواقع، كان من الملائم للولايات المتحدة أن تغض الطرف عنهما، طالما التزما السرية، وتجنباً تخصيص موارد حقيقية لتعقبهما.

ووصف سميث لاحقاً كيف تطورت حياتهما فى مالاكا إلى عالم أحلام

متوسطى مبهج، إذ فرشاً الشقة بكل شيء كانا يحتاجانه، ومنها مائدة ١٢٠ فرداً، وسجاجيد رائعة، ولوحات زيتية كبيرة فى كل مكان. كانت هناك أشجار كاملة النمو فى المنطقة توفر كثيراً من الظل ونسيماً متوسطياً رقيقاً يلف الجوف حولهما. ولزيد من الصحبة اشترى قطتين سياميتين وأسمييهما مالاقا وموبيتاه.

وفى النهاية، بدءاً يكونان صداقات جديدة، واكتشفا أن مالاقا بها مجتمع كبير يتحدث الإنجليزية ونادٍ يتقابل أعضاؤه كل ليلة اثنين فى مطعم شاطئى على بعد حوالى ميل من شقتيهما. وبعد حضورهما اجتماعه الأول واستمتاعهما بالأشخاص الذين تعرفوا عليهم، انضموا إلى النادى وبمرور الوقت أصبحا عضوين نشطين فيه.

أصبحت إميلي سكرتيرة النادى ومسئولة عن إصدار النشرة الإخبارية الشهرية وأصبح جون شيلر نائب مدير النادى. وكان كل من جون وإميلي ملّمين نسبياً بالإسبانية لكن خلال أشهر أصبحا يتحدثانها بطلاقة. وفى النهاية أصبحا نشطين اجتماعياً وذائعى الصيت فى مجتمع المنفى الكبير فى المدينة.

اكتشفا المشهد الموسيقى فى مالاقا، وكانت الجامعة الموسيقية تقدم حفلات موسيقية فردية كل عام للطلاب الخريجين، وكانت أوركسترا الجامعة تقدم حفلات موسيقية مجانية كل شهر. وكان لمدينة مالاقا أوركسترا مكونة من ١٠٠ عضو، يتألف من موسيقيين موهوبين حقاً من كل أنحاء أوروبا سعداء للغاية بالعيش فى ظلال شمس المتوسطى مقابل أجر زهيد وكانت تذاكر الحفلات رخيصة للغاية، أقل من ١٠٠ دولار للتذاكر التى تستمر طوال الموسم.

وبمرور الوقت، كادا ينسيان أنهما هاربان مشهوران، ومطلوبان فى قضية شائنة ومعروفة دولياً. واشتركا حتى فى التعداد السكانى لمدينة مالاقا وكانا يصوتان فى انتخابات البلدية.

ووفقاً للزوجين سميث، فقد كانت ديبورا بن إسحاق مساعدة ميلتشان على اتصال دائم بهما عبر الهاتف وآلة الفاكس التي اشتروها لمكتبهما المنزلي. وفي النهاية، وبحلول عهد الإنترنت، اشترى الزوجان سميث حاسوباً وبدءا يتواصلان عبر البريد الإلكتروني من عنوان jonsch@vnet.co.es.

وظلت علاقتهما بديبورا قوية ودافئة وكانوا يطلعون بعضهم على المستجدات الخاصة بأنشطتهم.

وتابع الزوجان سميث أخبار ثروة ميلتشان وشهرته المتزايدة من منفاهما المتواضع نسبياً، وبدءا يتساءلان أيضاً لم لا يشاركهما ميلتشان بجزء ولو ضئيلاً من ثروته. فبعد كل شيء، ما الذي يعنيه مليون دولار أو مليونان بالنسبة لشخص سرعان ما أصبحت ثروته تقدر بالمليارات؟!

وكان التمويل الذي يتلقاه الزوجان سميث من إسرائيل كافياً لكل احتياجاتهما الأساسية، لكن ليس أكثر من ذلك. وكان ذلك هو السبيل للتأكد من التزام الهاربين بالسرية وتجنبهما إثارة أى نوع من الشكوك التي قد تصاحب الحياة المرفهة. لكن الزوجين سميث كانا معتادين على مستوى حياتي أعلى من ذلك، وسعياً بنشاط لتحقيقه. وسيكون هذا سبب سقوطهما.

امرأة جميلة

لا شك في ذلك، فلولا وجود أرنون، لصنعت أفلام أقل.

المخرج سيدنى بولاك لجريدة لوس أنجلوس تايمز في ٢٨ فبراير ١٩٩٢

بينما كان ريتشارد كيلي سميث مختبئاً في أمان في إسبانيا، وبعيداً عن منال المدّعين
الفدراليين، كان ميلتشان حراً يسعى وراء أحلامه الهوليوودية الضخمة.

وكانت مشاريعه في إيران قد توقفت فجأة بعد الثورة الإسلامية، وتدهورت حرب المعلومات جنوب الإفريقية لتصبح فضيحة دولية، وتم حل منظمة لأكام، على الأقل بشكل رسمي، بل إن تايوان كانت قد بدأت تضمّر تدريجياً فأقامت إسرائيل علاقة عمل مع الصين، والتي أدت لعلاقات دبلوماسية كاملة بين البلدين عام ١٩٩٢ . كان كل ما تبقى له هو حسابه المصرفي المتضخم، وشركته للأسمدة الكيماوية، وصفقات الدفاع العسكري المعتادة بين الحكومة الإسرائيلية وقليل من نخبة متعهدي الدفاع العسكري الأمريكيين. وكانت تلك مشاريع مربحة بلا شك، لكن بالكاد تكفي لإثارة حماس شخص مثل أرنون.

كانت أولريكا قد رحلت، وحلّت محلها امرأة جميلة جديدة، أسي ثاستروم، في القصر في مونفورت لاموري. والشيء العجيب أن "أسي" كانت من مدينة غوتنبيرغ بالسويد، وكانت من الحي نفسه الذي كانت تقطنه رفيقتا أرنون السابقتان أولاً

وأولريكا، وصاحبت أسى أرنون فى العديد من المناسبات العملية والاجتماعية. وأكدت قائلة لى: إنه شخص رائع، وليس لدى تجاهه إلا أبلغ مشاعر التقدير.

كان الوقت قد حان لتفحص الذات الجاد، ووفقاً ليلتشان الذى قال: "كان من الممكن أن أقضى بقية حياتى أبحر بيختى، لكن تلك ليست شخصيتى". ولذا بدأ هجمته على هوليوود.

وبالرغم من رغبته العميقة فى أن يصبح جزءاً من نخبة هوليوود المسيطرة، كان لديه طريق طويل يقطعه. وبالرغم من أنه أحب العمل مع كبار المخرجين المصابين بجنون العظمة، فقد كان سعيداً للغاية بسمعته كمنتج للأفلام الفنية. وقد اكتسب احتراماً كبيراً من المجتمع الفنى، لكنه شعر أن الوقت قد حان لتتحية أنواقه الشخصية وانجذابه للمشاريع النخبوية والمعقدة، والتركيز على النجاح التجارى، ونوعية الأفلام

التي تتوق لها الاستوديوهات الكبرى.

يأتى الناس طوال الوقت إلى هوليوود ليعيدوا اختراع أنفسهم، إنها أرض الفرص التي تحتضن لاعبيها الجدد وتتسى ماضيهم سريعاً. ولم تضر خلفية ميلتشان الغامضة بفرصه، وعمل خلفه مع سيدنى شاينبيرغ مدير شركة يونيفرسال على تعزيز صورته. فهووليوود تحب الفتى "الشقى" سيئ السمعة.

ساعدت شائعات صفقات الأسلحة، والإشارة لاسمه فى قضية تهريب نووية، على توسيع هالة الغموض والمؤامرات المحيطة به. وبمعايير هوليوود، لا يهم كثيراً نوع العلانية الذى تحظى به، لكن ما يهم هو أن ينطقوا اسمك بشكل صحيح! وكان من المؤكد أن يتحول تاجر السلاح صانع الأفلام لمصدر جذب فى حفلات الكوكتيل حتى وإن لم يكن ميلتشان تاجر سلاح بالمعنى التقليدى. لكن فى هوليوود لم يكن الناس يعرفون الفرق، وللشائعات أسلوبها فى فرض نفسها.

عندما وصل ميلتشان المشهد كان شخصية غير معتادة منذ البداية، وكما شرح

لنا:

"سرعان ما اعتبرونى كائنًا مختلفاً. ولم أتأقلم بسهولة، وعملت خارج الممارسات العادية لتلك الحقبة. كان معظم الإسرائيليين الذين قابلهم أناس هوليوود أشخاصاً مثل مناحم غولان ويورام غلوباس، فى أفضل الأحوال، أو الأغلب، سائقى التاكسى، والبائعين المتجولين. وفجأة قابلوا شخصاً لا يفهم الجوانب المالية للمجال فحسب، بل ويريد المشاركة بالجانب الفنى. وكان من الصعب عليهم استيعاب ذلك. فى هوليوود، هناك مساران متوازيان، الجانب العملى، والجانب الفنى، وإن يلتقى المساران أبداً. كان الناس متشككين، وكان لسان حالهم يقول: ماذا تفهم عن الفن؟ التزم بالجانب المالى وإن أردت أن تكون فناناً، فلتتظم حفلاً لجمع الأموال لصالح الفن بدلاً من ممارسته

فعلياً. وكانوا يحطون من شأن الخلط بين المال والفن. وأدى هذا للشك في أفلامى. وكانوا يسألون لم دخل المجال؟ الشهرة؟ النساء؟ المال؟ وظلوا يبحثون عن أجندة خفية لم تكن موجودة. أردت أنا فقط الجمع بين المجالين.

وكان المنتج المتواضع ظاهرياً، غير المدعى، الثرى، يحضر اجتماعات هامة بالسروال الجينز والأقمصة القطنية الخفيفة، حاملاً حقيبة عرْفها بأنها مكتبه. وشق طريقه عبر النظام بسحره وعرف كيف يُبهر الأشخاص المهمين بمزيج فعال من الحماس والخجل، والمظهر المتواضع، واستخدم حتى وضعه كأجنبى لاستغلال غرائز الآخرين الطبيعية لمساعدته.

وأثارت طبيعته غير المحبة للظهور الجدل، إذ لم يكن يحضر العروض الأولى للأفلام، ولا حتى أفلامه. وأدرك أن هوليوود تلقى بالمال لأولئك الذين يملكون المال، لذا كان يتباهى بما يملكه من أموال من أن للآخر، من أجل غرض استراتيجى أكبر. وبشكل مجازى، كانت الحيلة هى استغلال المليون دولار فى المصرف للتسويق لصورة شخص يملك ٣٠ مليون دولار! وكان ذلك منهجه منذ اليوم الأول. فسر آلان هيرشفيلد الرئيس السابق لشركة توينتيث سنشورى فوكس، السبب الرئيسى لنجاح ميلتشان فى هوليوود بثلاثة عوامل: لديه أموال طائلة وهو مستعد للمخاطرة بها. كلمته هى ميثاقه. وهو من أذكى الأشخاص الذين قابلتهم قط

كانت قدرته على التركيز الشديد على التفاصيل وذاكرته الأسطورية عاملين مساعدين أيضاً.

يفسر آخرون مثل المخرج سيرجيو ليون، السر فى نجاح ميلتشان بشكل أبسط:

أما ميلتشان فلهذه تفسيره الخاص: سحره الشخصى والمتعة التى يجدها الإنسان إلى جواره.

يرى الناس فى سمات، لا أراها فى نفسى. لست مهذباً، ولا متواضعاً، ولا ذكياً
كما يظننى الآخرون لسبب غريب لا أدركه. معظم نجاحى بُنى على أخطاء. وبالنظر
للوراء، ليس لدى فكرة كيف نجحت. أنا لا أخاف وأحب المخاطرة، ربما هذا هو السر.
لم تكن لدى خطة قط لحياتى، لا خطة فى عملى ولا خطة شخصية. أنا فطرى جداً،
وألقى بنفسى فى المواقف المورطة ثم أسأل نفسى كيف بحق السماء سأخرج نفسى
منها؟ أو كيف سأمضى قدماً؟، أحب شيئاً ثم أستثمر فيه كل طاقتى لكى ينجح".

هناك العديد من التعليقات الملائمة تعكس فى مجملها تركيبة ميلتشان، أحدها قاله
وودى آلان، فى فيلم "بلاى إت أجين سام" أى: ٨٠٪ من الحياة هى مجرد تواجد.

وكان ميلتشان ذا تواجد.

وبعد بضعة أفلام متوسطة الأداء، حقق ميلتشان نجاحاً متواضعاً بفيلم "ذا وور
أوف ذا روزيس"، أشهر فيلم عن الطلاق، من بطولة مايكل دوجلاس وكاتلين تيرنر ودانى
ديفيتو. وكان شمعون بيريز هو من أوصى برواية ورين أدلر لميلتشان، الذى أخذ
بنصيحته. لكن فى العام التالى أى ١٩٩٠، حدث أكبر نجاح لميلتشان بفيلم حقق أرباحاً
هائلة، أى "امرأة جميلة"، ولا يزال الفيلم مرتبطاً باسمه حتى يومنا هذا.

"امرأة جميلة" فيلم كوميدى رومانسى يتمحور حول عاهرة سيئة الحظ وهى
فيفيان وورد، يستأجرها لمدة أسبوع رجل الأعمال وقاهر الشركات إيوارد لويس، لتكون
رفيقته فى عدة فعاليات برنس فى المجتمع الراقى فى لوس أنجلوس. وتركز القصة على
تطور علاقتهما، والتى تجسد نسخة عصرية من قصة سندريلا.

ظل نص سيناريو الفيلم الذى كتبه جيه إف لاوتون، يتجول فى أنحاء هوليوود
لأعوام تحت اسم ثرى تاو زاند، وكان ذلك هو المبلغ الذى يدفعه لويس لوورد مقابل
خدماتها كمرافقة. وكان السيناريو ملكاً لشركة إنتاج اسمها فيسترون أعلنت إفلاسها.

وكان ميلتشان قد أرسل وكيلاً ليفتش فى مكتبة الشركة ليرى ما إن كان هناك أى نص متميز فى كومة نصوص الشركة المعروضة للبيع. واتصل الوكيل بميلتشان من مكتبة شركة فيسترون ليخطر به أنه وجد قصة صغيرة شائقة عن عاهرة ورجل أعمال. وبشكل فطرى، كلف ميلتشان وكيله ألا يدفع فيها أكثر من ٣ آلاف دولار، نفس المبلغ الذى عُرِضَ على العاهرة. وفى النهاية اشترى حقوق النص كاملة بمبلغ ٢٥٠٠ دولار فقط.

قرأ ميلتشان النص ولم تعجبه نهايته الحزينة، إذ يعيد إيوارد فيفيان بالسيارة إلى هوليوود بوليوارد، ويعطيها معطفاً من فراء الملك، ويتركها فى ذات البقعة التى اصطحبها منها قبل أسبوع. فى اليوم التالى، تستقل فيفيان حافلة إلى ملاهى ديزنى لاند لتحقيق حلم عمرها الباش. وكانت تلك هى النهاية.

تصور ميلتشان نهاية أسعد بكثير حيث يعود إيوارد فى ذات اليوم بعد أن يوصلها سائق الفندق، على حصان أبيض -فى الواقع سيارة ليموزين بيضاء- ليطلب يدها، إن لم يكن للزواج، فعلى الأقل لعلاقة حصرية. وعندما وصف ميلتشان رؤيته للنهاية، فى غرفة المؤتمرات الخاصة به، تحير طاقم عمله. وقال كبير موظفيه ستيف روثر بتهكم "يبدو كفيلم من أفلام ديزنى".

وكان رد فعل ميلتشان بالغ الحماس حيث قال: أوتعلم؟ تلك فكرة رائعة، اتصل لى بجيفرى كاتزينبرغ. وكان كاتزينبرغ يرأس استوديوهات ديزنى آنذاك. وفى غضون دقائق معدودة كان وميلتشان منهمكين فى حديث عميق.

- بين يدي الآن فيلم رائع من نوعية أفلام ديزنى، ونهايته سعيدة رائعة.

- عمّ يدور؟ سأل كاتزينبرغ.

~ قال ميلتشان: سأعطيك النسخة الأصلية، إنه عن عاهرة ورجل أعمال.

- اعترضه كاتزينبرغ: لن ننتج фильماً مثل هذا ولو بعد مليون عام.

لكن بطريقة ما أقنعه ميلتشان بقراءة النص على الأقل. وقرر في الحال أنه إن قبلته شركة ديزنى فسينتجه، وإن لم يقبلوه، فسيفرض النص كلياً.

وبعد عدة أيام، تلقى ميلتشان مكالمة من كاتزينبرغ. وأخبر ميلتشان أن لديه مخرجاً اسمه غارى مارشال، كان قد أخرج لتوه فيلم "بيتشز" لشركة ديزنى، ولديه التزام بإخراج فيلم آخر. ولم يكن لدى شركة ديزنى عمل يناسبه، واقترح كاتزينبرغ أن مارشال سيكون المرشح المثالى لإخراج الفيلم.

وعبر كاتزينبرغ عن موافقته أيضاً على فكرة النهاية السعيدة التى اقترحها ميلتشان، وقدم قائمة طويلة من التغييرات الإضافية المقترحة لجعل الفيلم أكثر ملاءمة لاسم شركة ديزنى، ومن بينها أن تكون فيفيان جديدة على عالم البغاء، حيث لم يمر عليها سوى أسبوع فى تلك الممارسة لتتمكن من تسديد مصاريف تعليمها الجامعى. فى النص الأصيل، كانت وورد مدمنة للكوكايين. وكانت تلك فكرة غير مقبولة من جانب ديزنى وسرعان ما تم رفضها. وبالإضافة إلى ذلك، أصرت شركة ديزنى أن تكون فتاة نظيفة، وتم إضافة العديد من المشاهد التى تصور نظافتها الشخصية، منها حمامات الفقاعات وتنظيف الأسنان بالخيوط.

اقترح كاتزينبرغ شون كونرى وميشيل فايفر لأنوار البطولة، وأحب ميلتشان ذلك المزيج.

ظهرت أول عقبة عندما تلقى خطاباً من شون كونرى يرفض فيه الدور لأنه شعر أنه عجوز عليه. وعندما أخطر ميلتشان كاتزينبرغ، اقترح آل باتشينو بديلاً له.

وقبل ٢ أسابيع من بدء التصوير، وقعت الكارثة. أولاً، تلقى مكالمة من آل باتشينو

يخبره فيها:

"لا أعرف كيف ألعب دور رجل الأعمال، لم أكن رجل أعمال يوماً. حقاً يا أرنون، هذا الدور ليس لى، لا أستطيع أدائه".

وعندما أدركت ميشيل فايفر أن كلاً من كوني وياتشينو انسحبا من الدور، أخبرت ميلتشان أنها ستسحب من الدور أيضاً. وأجاب ميلتشان على هذا بكلمة يديشية واحدة فاركاكتا وتعنى تبا!

وعلى مر عدة أيام، أقيمت تجارب أداء طارئة. وكان من بين الأسماء المقترحة كيم باسينغر، شارون ستون، مابونا، بريجيت فوندا لكنهن فشلن فى تفهم جوهر الدور، على حين بدت "اينونا رايدر"، و"درو باريمو" أصغر من أن يؤديا الدور، فيما اعتبرت داريل هانا ومولى رينغوالد، الدور مهيئاً للنساء وانسحبتا.

وفى ذلك المساء عاد ميلتشان لمنزله مكتباً وقرر مشاهدة فيلم ليليه عن كل ذلك. وكان الفيلم الذى اختاره هو الفيلم الكوميدى الرومانسى "ميسيتيك بيتزا" من إنتاج عام ١٩٨٨.

أثناء الفيلم، لاحظ ممثلة شابة فى دور مساعد، وشعر بشكل غريزى أن لديها القبول والمظهر اللذين أرادهما لشخصية فيفيان وورد. لم يكن يعرفها إذ لم تكن مشهورة آنذاك. وانتظر ظهور قائمة الأسماء الأخيرة ليعرف اسمها.

فى الصباح التالى، اتصل بوكيلته وطلب منها تحديد تجربة أداء طارئة. واجتازت الممثلة الاختبار بنجاح ساحق، وتميزت بقدرتها على البكاء وإظهار المشاعر العميقة بكل سهولة. وكان اسمها جوليا روبرتس.

وعندما علم كاتزينبرغ بقرار ميلتشان ومارشال، أعرب عن عدم ارتياحه:

- لكن هل تستطيع روبرتس أداء دور العاهرة يا أرنون؟

- جيفرى! ما خطبك؟ أى امرأة تستطيع أداء دور العاهرة، إن كانت تستطيع البكاء، وأن تبدى مشاعرها بقوة، لست قلقاً بشأن قدرتها على لعب ذلك الدور.

ووافق كاتزينبرغ بعد تردد.

والآن كان ميلتشان يحتاج لممثل يؤدي دور رجل الأعمال. تم وضع جون ترافولتا، ألبرت بروكس، سيلفستر ستالون، وآخرين فى الاعتبار، وكلهم رفضوا.

ثم من حيث لا يحتسب، تلقى ميلتشان مكالمه من ريتشارد جير، والذي كان قد منى بفشل كثير من الأدوار التى أداها آنذاك فى أفلام مثل "كينغ ديفيد" و"باور".

تم تخفيض ميزانية الفيلم لتصبح مجرد ١٧ مليون دولار، شاملة إجمالى التوقعات. ووجه ميلتشان كبير موظفيه ستيف روثر بالآ يضيع أى وقت فى الذهاب لمواقع التصوير قائلًا: هذا الفيلم لن يحقق أى أرباح تُذكر. لنركز على الفرص الأكثر ربحية.

عندما كان الفيلم فى المراحل الأولى للمونتاج، كان إيهود ألومرت عمدة القدس آنذاك يزور لوس أنجلوس. ودعاه ميلتشان لحضور عرض فيلم "ثرى ثاوزاند" فى استوديوهات وورنر براذرز. جلس ميلتشان وأولرت ومعهما مايكل أيزنر رئيس شركة ديزنى، وجيفرى كاتزينبرغ والمخرج غارى مارشال فى دار عرض صغيرة.

أثناء عرض الفيلم، تمت تجربة العديد من الأغنيات لتكون أغنية الفيلم. كانت إحداها أغنية "بريتى وومان" للمغنى روى أرويسون. التفت أولرت تجاه ميلتشان واقترح بحماسة أن يكون اسم الفيلم "بريتى وومان". وأجاب ميلتشان ماذا تعرف بحق السماء؟ كيف لك أن تسمى فيلماً "امرأة جميلة" أو "Pretty Woman"؟!

ووافق الجميع ميلتشان، لكن أولرت مضى بإصرار يقول: أسد لي صنيعاً وجربه.

مضى ميلتشان يتناوب مع ضيفه قالاً "ماذا تعرف عن عناوين الأفلام؟".

وعلى أية حال، تم وضع اقتراح أولرت في الاعتبار مع قائمة طويلة من الأسماء المحتملة للفيلم، ليتم اختباره من قبل جماعة الفحص. وعندما عادت النتائج، فوجئ ميلتشان والجميع أن اسم "بريتي وومان" حصل على أعلى الأصوات. واشترى ميلتشان حقوق الأغنية، وتم تغيير اسم "ثرى ثاوزاند" إلى "بريتي وومان أو امرأة جميلة".

وعُرض الفيلم لأول مرة في الولايات المتحدة محققاً أرباحاً متواضعة قيمتها ١٢ مليون دولار في شباك التذاكر في أول عطلة أسبوعية له. لكن شهرته تحققت مذاك واستمرت في التزايد في الأسابيع التالية. وبانتهاء عرضه في دور العرض، كانت أرباحه في شباك التذاكر قد بلغت ١٨٠ مليون دولار داخلياً و ٣٠ مليون دولار دولياً. وهذا ليس سيئاً بالنسبة لفيلم كانت تكلفته إنتاجه ١٧ مليون دولار فحسب، في وقت كان متوسط ثمن تذكرة السينما ٤,٢٢ دولار.

ولا يزال ميلتشان يجني ثمن حقوق الملكية الفنية لفيلم "بريتي وومان" حتى يومنا هذا. فيما ظل إيهود أولرت راضٍ بمساهمته الفنية المتواضعة في تسمية الفيلم، بينما صرح ياسر عرفات رئيس دولة فلسطين ذات مرة أنه كان فيلمه المفضل، واحتفظ بنسخة منه في غرفة نومه، وشاهده ٢٠ مرة، وفقاً لميلتشان.

لكن الشخص الذي استفاد أقل بكثير مما ينبغي له كان كاتب السيناريو جيه إف لاوتون، والذي كتب سيناريو فيلم "بريتي وومان" وهو في العشرينيات من عمره. لاوتون، ابن الروائي هاري لاوتون تغلب على مرض خلل القراءة الحاد وقصور الانتباه وفُرض الحركة ليصبح كاتباً متميزاً. وكان ميلتشان حساساً تجاه الفبن الذي وقع عليه ووعد

بشراء سيناريو لوتون التالي مقابل مليون دولار.

ومن مفاهما البعيد، تابع ريتشارد وإميلي سميث مسيرة ميلتشان العملية في هوليوود وكانا يترددان باستمرار على دار العرض المحلية في مالاقا وشاهدا أفلاماً مثل "مان أون فاير" و"وور أوف ذا روزيس" و"بريتي وومان".

ويقدر ما بدا وضعهما مريحاً، لم يستطيعا أن يمنعا نفسيهما من الشعور بمزيج من الذهول وقدر من الاستياء إذ يقرآن اسم ميلتشان على رأس قائمة القائمين على الأفلام ليراه العالم أجمع، بينما هما مجبران على الاختباء... بالمعنى الحرفي.

وفي عام ١٩٩٤، وعلى بعد رحلة جوية قصيرة من ريتشارد وإميلي سميث، فوق شبه الجزيرة الأيبيرية، وفي فندق دى كارلتون في باريس، نظمت أسى ثاستروم حبيبة أرنون السويدية حفلة مفاجئة مسرفة للاحتفال بعيد ميلاده الخمسين.

وسافر من كل أنحاء العالم ٦٠ من نجوم هوليوود، والأصدقاء والعائلة لحضور المناسبة الهامة، وكان من بين الحضور روبرت دى نيرو، وأوليفر ستون، ورومان بولانسكى، كريستوفر لامبرت، وترى سيميل من شركة وورنر برازرس، وروب فريدمان من شركة باراماونت، بين آخرين. وكانت والددة أرنون وأخته وأبنائهم كلهم حاضرين.

وتدفقت الشمبانيا مترعة، وكما يتذكر ميلتشان كان الجمع أشبه بالأمم المتحدة لجال السينما.

تم توثيق أهم أحداث تلك الأمسية في فيلم مدته ٢٠ دقيقة أنتجته ثاستروم كإشادة بحبيبها، وأسمته ناتشورال بورن سيدوسر Natural Born Seducer أو المغوى بالسليقة.

الفخ

لابد وأن تكتبوا أشياء سلبية عني، فقد كنت غيباً.

ريتشارد كيلى سميث للمؤلفين في ٢٠ أغسطس ٢٠٠٩

شعر الزوجان سميث بارتياح كاف جعلهم يجوبون أوروبا، ويقابلون بشكل متكرر أفراد عائلتهم في مواقع حدّوها مسبقاً. وفي إحدى المناسبات سافرا إلى مدينة يورو ديزنى الجديدة على مشارف باريس لقضاء الوقت مع أحفادهما. وفي مناسبة أخرى سافرا إلى جنوب فرنسا ليشهدا ابنهما الأكبر راندى وهو يشارك في سباق القوارب الشراعية.

كان راندى سميث بحاراً مشهوراً، يظهر على أغلفة العديد من أهم مجلات الإبحار فى العالم، ولعب دور القبطان أمام كيفين كوستنر فى فيلم "ووترورلد" أو عالم الماء، وبيرس بروسنان فى فيلم ذا "توماس كراون أفير" أو "علاقة توماس كراون الغرامية". وقاد القارب الشراعى الضخم إلى خارج مانهاتن بينما رينيه روسو تنتظر إليه فى إجلال. وفاز أيضاً بميداليتين أولمبيتين بكأس أمريكا عام ١٩٨٨ .

بعد ٩ أعوام من الإقامة فى إسبانيا، بلغ الزوجان سميث سن الخامسة والستين. وفى مخاطرة متهورة محيرة، قرر سميث التقدم لطلب فوائد الضمان الاجتماعى الأمريكى، مراهناً على عدم تمكن أى موظف متدنى المستوى فى نظام الضمان الاجتماعى الأمريكى من التعرف عليه. واتصل بالسفارة الأمريكية فى مدريد، وأعطاهم اسمه الحقيقى ورقم الضمان الاجتماعى الخاص به، وقدم طلباً بإرسال دفعاته الشهرية إلى حسابهما فى مصرف بانكو بيلباو فى مالاقا.

ومن الواضح أن رهان سميث كان فى محله، حيث لم يستطع موظفو المستوى الأدنى فى الحكومة الأمريكية التعرف على المتهم الهارب، وبدأوا يرسلون مبلغ ١٦٠٠ دولار شهرياً إلى ذلك الحساب. كانت مخاطرة وقحة طائشة، وبدأ أنها آتت ثمارها. وبعد عام، أكملت إميلي عامها الـ٦٥ وكان يحق لها مبلغ إعانة الزوجة وقيمته ٤٠٠ دولار شهرياً. وقُبِلَ طلبها لهذا المبلغ أيضاً. ووفرت إبداعات الضمان الاجتماعى المنتظمة دخلاً شهرياً إضافياً رفع من مستوى حياة الزوجين سميث والتي كانت إميلي تصفه بالرعى.

وبمرور الأعوام، تخليا عن حذرهما كلياً. واحتفلا بحريتهما مجدداً فى منتصف ليلة ١٣ ديسمبر عام ١٩٩٩، بمشاهدة الألعاب النارية فوق مالاقا مع بدء الألفية الجديدة. ولدة ١٥ عاماً، تمكن الزوجان سميث من تفادى السلطات بينما يعيشان فى جنتهما الصغيرة.

فى يونيو ٢٠٠١، طلب مدير مصرف بانكو بيلباو من "جون شيلر" أن يمر على المصرف لعقد اجتماع قصير. اعتذر مدير المصرف وأخبر سميث أنه لى يمكن من الاستمرار فى استخدام هذا الحساب، فعليه الحصول على ترخيص مواطن غير مقيم، وسلم سميث نسخة من الاستثمارة التى عليه ملؤها ليأخذها لاحقاً إلى قسم شرطة مالاكا ليختموها له. ووصف الأمر بأنه لا يتعدى كونه إجراءً بيروقراطياً روتينياً. واشتكى سميث بأنه استطاع استخدام هذا الحساب طوال سنوات بدون مشاكل، إذن لم الجلبة الآن؟! هز مدير المصرف كتفيه وكأته يعبر عن استيائه من هذا الأمر السخيف أيضاً، لكنه عليه أن يتبع الإجراءات.

ومن المصرف، قاد الزوجان سميث السيارة إلى قسم شرطة مالاكا وركناها، وبرشاقة صعدا السلم وصولاً للضابط الجالس فى المدخل وراء أحد المكاتب. وأرياه الاستثمارة التى ملأها وأخبراه أنهما يريدان أن يخرجاها. فأخذ الضابط الاستثمارة ونظر إليها بتمعن، وأعطاهما كعباً بموعد العودة وهو يشرح لهما بأن عليهما العودة فى ٩ يوليو لاستلام ترخيصهما. اعتادت الأمور أن تسير ببطء فى مالاكا.

وكما تم توجيههما عاد الزوجان سميث فى ٩ يوليو ٢٠٠١، وهما ينتظران ألا يستغرق الأمر أكثر من ٥ دقائق. وما أن وصلا لقسم الشرطة، تم توجيههما للذهاب لمنطقة المكتب الخلفى والانتظار. وبعدما مرت حوالى ١٥ دقيقة ولم يأت أحد، التفت سميث إلى إمبلى وسألها:

"لم يستغرقون كل هذا الوقت؟ سنتأخر عن رحلة السير على الشاطئ". وبعد ٥ دقائق دخل الغرفة ضابط طويل أزرق العينين يرتدى زياً أسود، وسار حتى جهاز الفاكس فى الركن، وأخرج ورقة كانت قد وصلت لتوها. ثم سار تجاههما، وسلم سميث الفاكس بدون أن ينطق بكلمة واحدة، وانتظر ليشاهد ردة فعله. ونظر سميث

إلى الورقة وصدم عندما رأى صورة أبيض وأسود له يبدو فيها أصغر بعشرين عاماً عن عمره البالغ آنذاك ٧٢ عاماً.

ولاحظ كلمة إنتربول أعلى الورقة. وطفى عليه إحساس مفاجئ بالفزع وتقلصت معدته قلقاً. فبعد ١٦ عاماً كان قد نسى تقريباً وضعه كهارب. وبطلبه فوائد الضمان الاجتماعي، فقد أشار مباشرة إلى موقعه. وبطلبه رخصة المواطن غير المقيم وقع في الشرك المعد له بحنكة، ودخل قسم الشرطة، وسلم نفسه. وبالنسبة لشخص بالغ الذكاء، كان هذا غباء يفوق التصور.

ويعد لحظة لا بد وأنها بدت كدهر، سأل الضابط "هل هذا أنت؟".

كان سميث مصدوماً لكنه أكد أن الصورة تبدو له. فالتفت الضابط إلى إميلي وقال:

حسناً، يمكنك الانصراف الآن، سألني القبض على هذا الرجل.

لم تجد إميلي ما تقوله وفي الحال اعتراها الشحوب فيما بدأ الضابط يقيد زوجها بالأصفاد. بين سميث أنه يحتاج لأن يعطى زوجته مفاتيح السيارة لتذهب بها إلى المنزل. ومد يديه بمفاتيح السيارة فقبضت عليهما إميلي بقوة. نزع الضابط يديه، ولفهما بقوة وراء ظهره ووضع الأصفاد حول معصميه. لا أحضان ولا قبلات. وقفت إميلي في وسط الغرفة وهي في حالة صدمة هائلة بينما كان زوجها منذ حوالي ٥٠ عاماً يُصطحب حتى غاب عن الأنظار. لم يدرك الأمر في تلك اللحظة، لكن كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يراها فيها سميث كرجل حر ولأعوام تالية.

وحُسر سميث في زنزانة خرسانية بلا نوافذ بها منطقة إسمنتية مرتفعة تستخدم كفرش، وعليها بطانيتان قذرتان. وكان المرحاض في آخر الرواق عبارة عن ثقب

بسيط في الأرضية. ولم يكن هناك ورق تواليت. وكان الطعام يقدم في أوعية بلاستيكية صغيرة. ولم يكن هناك حراس في الليل، لذا عندما كان السجين نو الثانية وسبعين سنة يحتاج للتبول بسبب البروستاتا المتضخمة، كان يتبول على أرضية زنزانته.

كانت الليلة الأولى بشعة. ومضى يستعيد العملية التي أدت للقبض عليه مراراً وتكراراً وبدأ يدرك كم كان أحرق، إذ فاتته كل الإشارات الواضحة المتجلية أمام عينيه. وأدرك أنه كان لديه العديد من الفرص منذ بداية الأحداث لتجنب ذلك المصير. إذ كان بإمكانه تجنب طلب الضمان الاجتماعي، وتجنب الذهاب إلى قسم الشرطة... مرتين. وكان بإمكانه الخروج من القسم ما إن وصله. وكان بإمكانه إنكار أنه هو ذاته الرجل الذي في الصورة.

وشرد عقله إلى ما قبل ١٨ عاماً، حيث كان بإمكانه الامتناع عن إخبار العميل الفدرالي عن شحنة الكرايترون الخاطئة بعد حادث اقتحام شركته، وكان بإمكانه الامتناع عن التوقيع على وثيقة إسقاط التقادم، وكان بإمكانه الامتناع عن إرسال شحنة الكرايترون الأخيرة بعدما قرأ التحذير، وكان بإمكانه البقاء في شركة روكويل وتجنب الأمر برمته، برغم أن ذلك كان يعنى حرمانه من نوادي اليخوت والعقارات الشاطئية. وكانت قائمة التفاصيل التي تنور بخلده طويلة طويلة.

عادت إميلي إلى شقتهم مدهولة ومرتبكة. فخلال لحظة واحدة انهار عالمها بأكمله للمرة الثانية. وعندما علم المسئولون في واشنطن بواقعة القبض عليه، لم يسعدوا بذلك، إذ كان من الأفضل تتاسى الماضي الفاسد. لكن الزوجين سميث بتصرفاتهما، بدا وكأنهما كانا يتوسلان القبض عليهما ولم يكن لدى الإنتربول خيار سوى اتباع أدنى حد من الإجراءات.

وعندما سمع ميلتشان أخبار القبض على سميث، عرف مثل أى أحد آخر قرأ الجريدة فى ذلك اليوم، أنه سيكون خطباً جلاً، وسيُذكر اسمه مجدداً فيما يتعلق بما أسماه قصة الكرايترون متناهية الغباء. واجتاحته عاصفة من المشاعر المتضاربة.

فمن ناحية كان يستشيط غضباً من الإهمال الرهيب الذى ساد الموقف برمته، ومن ناحية أخرى، كان يشعر بالأسى لأجلهما. إذ لم يكن سميث فى النهاية سوى واحد من الكثيرين الذين يجندهم ميلتشان، ولم يكن أكثرهم أهمية. بل كان بالأحرى أكثرهم مشاكل. فى اليوم التالى، مثل سميث أمام قاض أمر أن يحبس فى سجن ألهورين دى لا تور، على بعد حوالى ٢٥ دقيقة بالسيارة من مالاكا. وذكر القاضى أنه قد يُنقل لاحقاً إلى ريال مدريد ليمثل أمام المحكمة الدولية لتسليم المتهمين.

وكان سجن ألهورين دى لا تور كابوساً. وجد سميث، الرقيق المتعلم المثقف، نفسه فجأة فى حضرة كل مجرم يمكن تصويره.

كان بكل زنزانة مرحاض معدنى بدائى بلا غطاء وحوض غسيل معدنى صغير ليغسل فيه ملابسه الداخلية المتسخة، وجواربه، وأدوات الأكل، وصينية الطعام. أسوأ شئ كان عدم وجود ماء لدفق المرحاض مرتين فى اليوم. وكان عليه ملأ دلو الاستحمام ثم صبه فى المرحاض للتخلص من الرائحة البشعة الكريهة. وكان هناك الكثير من السجناء المصابين بالإيدز، لحد منع مغسلة السجن من قبول الملابس الداخلية أو الجوارب. وتلك كان يجب غسلها باليد فى حوض الغسيل المعدنى الصغير. ولم تكن هناك صابونة غسيل. وكان الجميع يدخنون تقريباً وكان من المستحيل الهروب من الدخان حتى فى زنزانات النوم (جاء ذلك فى وصف شيلر لنظام السجون).

واستحالت الأيام لأسابيع.

كان مسموحاً لإميلى بالزيارة مرة أسبوعياً. وكانا يتحدثان عبر حاجز زجاجى سميك به مكبر صوت صغير، على طراز فيلم "مينايث إكسبريس". وكما قال سميث:

"كانت الزيارات الزوجية أحد الجوانب اللطيفة لنظام السجون الإشباني. ملأت استمارة سجناء أطلب فيها زيارة خاصة فى غرفة نوم مجهزة بفراش مزدوج، وملاءات نظيفة، وحمام به دش. كانت العلاقات الخاصة مسموحاً بها مرتين شهرياً فى زيارات مدة كل منها ساعة".

"كنت فى سعادة غامرة عندما أبلغونى أنتى مُنحت تصريحاً بزيارة خاصة من زوجتى التى كان زواجى بها قد استمر لخمسین عاماً بعد ٢٠ يوماً طوَّالاً مضنية من الابتعاد عنها. وكنا نشعر بالاسترخاء التام أثناء تلك الزيارات الحميمة، ذلك التقليد الرحيم من جانب السجون الإشبانية".

أثناء إحدى الزيارات الزوجية، احتفل ريتشارد وإميلى بذكرى زواجهما الخمسين.

وألقت ظروف السجن الصعبة بحملها الثقيل على كاهل سميث، وفى مخيلته بدأ يقارن بين موقفه وموقف صديقه القديم ميلتشان. وأصبح أسير فكرة "آه لو لم أقابل ميلتشان يوماً! لتغير كل شيء". تمنى لو أنه بقى فى شركة روكويل ونسى أوهام النجاح وامتلاك شركته الخاصة. وذات يوم فى يأسه، كتب خطاباً أعطاه لإميلى يطلب منها إرساله بالفاكس إلى ميلتشان، جاء به التالى:

التاريخ: ٢٢ أغسطس ٢٠٠١ .

المرسل إليه: أرنون ميلتشان منتج الأفلام الشهير.

المرسل: ريتشارد كيلى سميث. نزيل سجن ألهورين دى لا تور فى مالاقا،

إسبانيا.

ويرسل أيضاً إلى: ديورا بن إسحاق.

عزيزى أرنون،

أتمنى حقاً لو عرفت كيف هو الحال فى السجن. يمكننى أن أخبرك، أن الوضع ليس مبهجاً. أسوأ شيء أننى كنت بعيداً عن زوجتى، فى ذكرى زواجنا الخمسين، والتي كانت فى ١ أغسطس ٢٠٠١ .

أدرك أنك تظن أنك لم ترتكب أى خطأ، لكنك فى الواقع، قد فعلت. أنت السبب فى وجودى فى السجن، لأننى أرسلت إلى شركتك ميلتشان بروس فى تل أبيب، بعض الأنابيب الإلكترونية المسماة بالكرايترون. أتذكر؟ أظن أنك تذكرها.

استخدمت تراخيص وزارة التجارة بدلاً من تراخيص الذخائر لذا ارتأت الحكومة الأمريكية أننى يجب أن أدخل السجن لمدة ١٠٥ عام. قرأت فى الصحف أنك بعت أفلاماً بـ ٤٥٠ مليون دولار إلى قناة تشانل بلاس، القناة التلفزيونية الخاصة بالأفلام المشفرة. أمل أن تكون قد أودعت معظم تلك الأموال فى حسابك السرى فى يونيو بانك فى زيوريخ مثل نسبة الـ ٦٠٪ أرباح من كل شيء، ومنها الكرايتون الذى كنت أشحنه إلى شركة هيلى تريدينغ. وأتوقع ألا يكون أحد فى الحكومة الإسرائيلية مهتماً بحقيقة أنك كنت تفتصب نسبة ٦٠٪ كأرباح على كل شيء أرسلته شركة "ميلكو إنترناشونال" إلى شركة ميلتشان بروس. فبعد كل شيء كان ننتيا هو رئيس الوزراء الإسرائيلى قبل شارون، يعمل لصالح شركة ميلتشان بروس! هل من الممكن أن جزءاً من نسبة الـ ٦٠٪ أرباح التى كنت تفتصبها كانت تذهب لمسؤولين فى الحكومة الإسرائيلية؟!

شاهدت أيضاً فيلم بريتي وومان الذى أنتجته، تهانى! كان فيلماً رائعاً.

ما شعورك وأنت تملك كل هذا المال؟ لطالما تساءلت كيف سيكون شعورى إن امتلكت المليار ونصف المليار دولار التى تشتهر أنت بامتلاكها. ما كنت لأستطيع أن أكل أكثر مما أكل، ولا أن تكون سيارتى أكثر سرعة على الطريق السريع، ولا فراشى أكثر راحة، ولا أن تطارحنى الغرام امرأة سوى زوجتى منذ ٥٠ عاماً، ولا أن يكون حاسوبى أسرع مما هو. ماذا تفعل بهذا المال؟ هل هو رضا الشعور بالقوة؟ لست على درجة تعليم تعادلنى، أحمل شهادة الدكتوراه. لذا أنا أفوقك عقلياً. أعتقد أن قوة العقل أهم من قوة المال. لكن لكل منهما قوته الخاصة.

أرنون! دعنى أخبرك القليل عن الحال فى السجن: أولاً، لا تعليمك ولا مالك يعنيان أى شىء لحراس السجن، فما أنت إلا سجين آخر، مثل مدمن المخدرات، مثل اللصوص المسلحين، مثل القتل، والأشخاص الذين ارتكبوا جرائم نصب ضد البنوك والحكومات. وعليك أن تأكل ما يقدمه السجن فى أوقات الوجبات، بلا اختيار. وعليك اتباع روتين السجن: تأنى إلى الفراش عندما يأمرؤك، وتذهب لمناطق التريض عندما يصرح لك. ما رأيك أن تستبدل أسلوب حياتك الحالى بأسلوب حياة السجن؟ يمكننى أن أخبرك من الآن أن هذا الأمر لن يعجبك!!

لذا يا أرنون، أشكر على العمل الذى أبينه لشركة ميلتشان بروس. والآن أتعلم كيف هى حياة السجن. لم أظن يوماً أن هذا قد يحدث لى. ربما قد تكفل لك المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها إيجاد مخرج آمن من أى موقف أياً كان الجرم الذى ارتكبته.

أرنون! إن تم تسليمى للولايات المتحدة ومثلت للمحاكمة بتهمة شحن الكرايترون إلى شركتك ميلتشان بروس، سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت أنت

طرفاً فيها، أنا واثق من ذلك.

لا أقدر لك أنك لم ترفع إصبعاً واحداً لمساعدتي بعد إدانتى أو بعدما قررت إلى إسبانيا. أعرف أنك كنت تعلم مكانى فى إسبانيا. كانت دييورا ستزورنى لكنك ألغيت زيارتها. هل نصحك ننتياهو بعدم مساعدتى؟ أم أنها كانت فكرتك؟ أفترض أنك أمرت دييورا ألا تزورنى ما أن أبلغتك بمكانى فى إسبانيا. لا أزال أشعر بالرهبة من المليار ونصف المليار دولار التى تمتلكها، لكنك تشعرنى بالغثيان.

صديقك السابق

ريتشارد كيلي سميث

عندما قرأت إميلي ذلك الخطاب أدركت فى الحال أن زوجها قد تخلى عن فطنته. ولم ترسله قط، ولم يره ميلتشان حتى اليوم الذى سلمناه إياه. حيث قال:

"الخطاب يعكس درجة كبيرة من سوء الإدراك من جانب سميث، والذى لم يعرف يوماً أن نسبتي المفترضة من الأرباح لم تؤل إلى قط. قلة المعرفة أدت بسميث إلى أن يكيل الاتهامات الرعناء فى وقت محنته.

ومضى قائلاً "لم أعرف، ننتياهو ولم تكن لى علاقة به حتى التسعينيات، بعد إدانة سميث عام ١٩٨٥. ولم أعرف بمكان سميث حتى تم القبض عليه فى مالاكا بسبب طلب لأكام والموساد منى أن أنأى بنفسى كلياً عن تلك القضية وأتركهما يتوليانيها".

ثبت أن تهديد سميث حيث قال "إن تم ترحيلى... سيعرف العالم أجمع بالصفقات المشبوهة التى كنت طرفاً فيها، بمرور الوقت" كان تهديداً خاوياً، ولم توجه أى اتهامات لميلتشان.

كانت الولايات المتحدة تعرف بوضع سميث فى سجن مالاكا لأنهم أرسلوا ممثلاً

من السفارة ليزوره، لكنهم استغرقوا وقتاً طويلاً في الحديث عن عملية تسليمه. كانوا يعرفون أنه محاط بحثالة المجتمع، من القتل، إلى المدمنين المصابين بالإيدز، إلى تجار المخدرات، إلى لصوص السطو المسلح. كانت المشاجرات تتدلع باستمرار من حوله. وشعر بأن حياته في خطر وعاش في حالة خوف مستمرة. وفكر جدياً في الانتحار، لكن التفكير في التأثير المعنوي المحتمل لموته على إميلي وأبنائه حال دون قيامه بذلك. كان كل يوم كالكابوس. وفي أحلك لحظاته الشخصية في مستشفى السجن شاهد الطائرة الثانية تصطدم بالبرجين المزدوجين أو مركز التجارة العالمي في نيويورك، وأخرى تصطدم بالبتاغون. وتذكر سيره في أروقة وزارة الدفاع البتاغون كعضو مبجل في المجلس الاستشاري العلمي، ولم يتمالك نفسه من مقارنة تلك الأيام الجيدة بورطته الحالية.

بحلول أواخر سبتمبر ٢٠٠١، كان قد قرر التخلي عن فكرة مقاومة تسليمه أو إنقاذ حياته الرعوية في مالاكا، واستعدت إميلي لشحن أكثر متعلقاتهم قيمة إلى الولايات المتحدة.

وأخيراً في ١٥ نوفمبر ٢٠٠١، بعد أكثر من ١٦ عاماً من هروبه المحموم على رحلة لوفتهانزا إلى فرانكفورت، ألمانيا، تم إعادة ريتشارد كيلى سميث إلى الولايات المتحدة: اقتيد إلى خارج السجن بنون أصفاد إلى السيارة الفولفو السوداء، يصحبه مسئولان من وزارة العدل الإسبانية في رحلة الخمس ساعات بالسيارة من مالاكا إلى مدريد، حيث قضى ليلته الأخيرة في إسبانيا في زنزانة مريحة نسبياً. في اليوم التالي في الواحدة ظهراً غادر سجن مدريد وتقابل مع مارشالين أمريكيين بارزين.

في يوم الجمعة الموافق ١٦ نوفمبر ٢٠٠١، غادر على رحلة لشركة دلتا إلى لوس أنجلوس مروراً بباتاغونيا، ولم يعد إلى إسبانيا مجدداً أبداً. وصل إلى مطار لوس

أنجلوس الدولي في الـ ٨:٤٥ مساءً وتم اصطحابه في الحال إلى مركز الاحتجاز الفدرالي في وسط لوس أنجلوس، حيث تم إيداعه بزنزانة لشخصين. كانت مقارنة بسجن مالاقا فارمة للغاية، بالرغم أنها كانت بلا زيارات زوجية. وخلال أيام، قامت المباحث الفدرالية باستجوابه بشكل متكرر.

وبعد أكثر من شهر من عودة سميث إلى الولايات المتحدة، كان مكتب المدعي العام الأمريكي يعيد التفكير في قضيته. وأنداك، لم يعد الكرايترون يتطلب ترخيص تصدير ذخائر على الإطلاق. وأعيد معظم الكرايترون الذي شحنه سميث لشركة هيلي تريدينغ إلى الولايات المتحدة وفقاً لاتفاقية بين الحكومتين.

وفي ظل تلك المستجدات الأخيرة، بدأت فكرة قضاء رجل عجوز، وجدّ متزوج، ١٠٥ عام في السجن بسبب ما كان في الأساس خطأً إدارياً أثناء شحن أحد الأغراض لمن كان بعد كل شيء، حليفاً رئيسياً للولايات المتحدة في الشرق الأوسط، تبدو أكثر فائزاً كردة فعل هستيرية تصاعدت إلى عقاب قاس واستثنائي، خاصة بالنظر إلى ما تكشف بالفعل. فالافتراضات القوية التي سادت في عام ١٩٨٥ والتي ذهبت إلى أن الكرايترون لا يمثل سوى قمة جبل الجليد في أنشطة شركة ميلكو، مع احتمال صوابها آنذاك، لم يعد لها نفس القدر من الأهمية بعد مرور ١٦ عاماً ونصف العام. ثم كان هناك خوف ألا تقبل أي هيئة محلفين بإرسال رجل عجوز ليقضى بقية حياته في السجن، بينما تجلس زوجته وأبنائه وأحفاده في قاعة المحكمة يتعذبون.

وفي ٢٠ ديسمبر ٢٠٠١، لأن جانب الحكومة الأمريكية، إذ عرضت صفقة استئناف مخففة بشدة، وبعد بضعة أيام من المفاوضات، تم الاتفاق بأن يدفع سميث بأنه مذنب بتهمة واحدة وهي انتهاك القانون النظامي لتصدير الأسلحة الأمريكية، ويتهمه الكذب بشأن محتويات شحنات الكرايترون. وتم تحديد جلسة النطق بالحكم

فى ٢٩ أبريل ٢٠٠٢، على أن يبقى سميث فى السجن طيلة تلك الفترة على الأقل.

وللاستعداد للنطق بالحكم، طلبت إميلي من كل شخص أمكنها التوصل إليه كتابة شهادات لصالح شخصية زوجها. وكان هذا أصدق اختبار لأصدقائه المخلصين، أولئك المستعدون للمجابهة ولارتباط أسمائهم بما يواجهه شخص آخر من متاعب قانونية، فى وقت كان أسهل الخيارات فيه هو التزام الصمت.

وعلى الرغم من أن كثيراً ممن كان المأمول منهم أن يهبوا ويبادروا بالمساعدة تجاهلوا الطلب، فقد تقدم عدد لا بأس به، بعضهم لم يكن متوقفاً، بالمساعدة، من بينهم أصدقاء الدراسة القدامى، وحبيبة سابقة من أيام الجامعة، وعدد من أصدقائه فى العمل، والعديد من أفراد العائلة، وبضعة من أصدقاء اليخوت، وكثير من أصدقاء نادى المتحدثين بالإنجليزية والنادى الأمريكى فى مالاقا، ثم كان هناك خطاب من مدير شركة ميلتشان بروس ليتد جاء فيه ما يلى:

إلى من يهمه الأمر:

أنا شريك عمل سابق للدكتور ريتشارد كيلى سميث. تم تعيينى من قبل شركة هيلى تريدينغ ليتد، وهى شركة تابعة لشركة ميلتشان بروس ليتد ومن قبل شركة ميلتشان بروس ليتد، منذ عام ١٩٦٦ وتقاعدت فى عام ٢٠٠٠. وباسم شركتى كانت لى علاقات عمل مقربة للغاية من الدكتور ريتشارد كيلى سميث منذ عام ١٩٧٣ وحتى القبض عليه.

وبالإضافة لعلاقات العمل التى جمعتنا، أصبح الدكتور سميث وزوجته وأبناؤه، أصدقاء مقربين للغاية لى ولزوجى. تقابلنا عدة مرات فى إسرائيل وأيضاً فى لوس أنجلوس عندما زرناها لحضور زفاف ابنته. ومن خلال سنوات عديدة من العلاقات الحميمة، أشعر أننى أعرف الدكتور سميث جيداً. إنه شخص رائع، صادق، مخلص،

رجل عائلة فخور وأمريكي فخور. ليس لدى أدنى شك أنه مواطن يمثل للقانون ولم يكن ليفعل أى شيء متعمداً خرق القانون. لظالما أرشدنى ووجهنى فى الإجراءات القانونية الأمريكية وفيما يجب اتباعه أو تجنبه.

"أنا مقتنعة كلياً: أنه إذا كان قد ارتكب أى خطأ، فقد فعل ذلك بحسن نية وبدون أدنى سوء يضره. وأنا مقتنعة أنه إن كان له أن يستأنف حياته العملية، فسيكون بالغ الحذر فى المستقبل وإن يتكرر سلوكه فى انتهاك القانون.

"الدكتور سميت ليس شاباً. وعلى حد علمى فهو يبلغ من العمر ٧٢ عاماً ولا يتمتع بصحة جيدة. ولقد دفع بالفعل ثمناً باهظاً مقابل الخطأ الذى ارتكبه. ولسنوات عدة، تنازل عن اتصاله اليومي بعائلته التى يعزها بل ويعشقها، وعاش بعيداً عن بلده، وخسر كل ما عمل لأجله طيلة حياته. أتمنى أن تضعوا فى اعتباركم كل تلك العوامل لتجدوا مكاناً فى قلوبكم للرحمة والعطف عندما تتطرقون بالحكم".

دييورا بن إسحاق

فى ٢٩ أبريل عام ٢٠٠٢، دخل ريتشارد كيلى سميت قاعة المحكمة ومعنوياته مرتفعة على الرغم من أنه كان فى الثانية والسبعين من عمره وأجبر على ارتداء زى السجن البرتقالى وكان مكبل الكاحلين بالأصفاد، والأغلال تحيط بوسطه ومتصلة بأصفاد يديه، على طراز معتقلى غوانتانامو باى. أوصى ضباط المراقبة بأن يُطلق سراح الرجل العجوز ويكتفى بالمدة التى قضاه فى الحبس، والتى بلغت عشرة أشهر منذ القبض عليه فى مالاقا. وطمأنه محاموه وكذلك زملائه من السجناء أن القضية عادة ما يمثلون لتوصيات ضباط المراقبة. وامتلات قاعة المحكمة بأفراد العائلة وبالأصدقاء الداعمين، وبأبنائه وزوجته ويزملائه منذ كان طالباً فى الجامعة، وأصدقائه فى شركة روكويل، وعدد من الصحفيين. وأخيراً، حانت لحظة الحقيقة.

كانت القاضية باملا آن رايمر، وهى نفس القاضية التى كانت فى قاعة المحكمة عندما تغيب سميث عن جلسة محاكمته فى أغسطس ١٩٨٥، قد تم ترقيتها مذاك لترأس محكمة الاستئناف الفدرالية. واتخذت خطوة غير معهودة إذ تنحت عن موضعها لكى تحاكم الرجل الذى شعرت أنه أمانها هى والنظام القضائى منذ حوالى ١٧ عاماً. ومن منطلق الخبرة، شعرت بأن قاعة المحكمة ستكون مكتظة بالمراسلين الصحفيين.

وإذ تبوأ مقعدها على منصة القضاء، بدأت الجلسة بخطاب افتتاحى، صرحت فيه بأن سميث قضى الستة عشر عاماً فى موقع خلاب فى إسبانيا. وقالت إنها لا تصدق أنه نسى طلب عام ١٩٧٥ لاستصدار ترخيص تصدير ذخائر لطلابية الكرايترون التى تم إلغاؤها.

لم تذكر له إسهاماته العديدة فى مجال الدفاع العسكرى عن الولايات المتحدة على مدار سنين عدة فى ذروة الحرب الباردة. ولم تن عليه لمحنه الطويلة، ومنها حبسه فى السجن، فى إسبانيا. ولم تلق بالاً للمحظة أن معظم الكرايترون قد تمت استعادته ولا أن التراخيص لم تعد مطلوبة لتصدير الكرايترون. وتجاهلت حقيقة أن كل الشحنات المعنية كانت إلى أحد أقرب حلفاء الولايات المتحدة فى العالم، وليس لدولة عدوة.

ثم حكمت القاضية رايمر عليه بالسجن لمدة أربعين شهراً ويوضعه تحت المراقبة لعامين وبغرامة ٢٠ ألف دولار. صُدم لذلك أفراد العائلة والأصدقاء فى قاعة المحكمة، وشعروا بالتحرز والانزعاج. وجلس سميث فى قاعة المحكمة عاجزاً عن الحركة أو التفكير. كان المشهد وكأنه مشهد من أحد أفلام ميلتشان، على الرغم من أنه كان حقيقياً.

تم اقتياده مكبلاً بالأصفاد خارج قاعة المحكمة وعودة إلى زنزانه بينما كانت أسرته تنتظر في فزع. ثم تم نقله لاحقاً إلى مجمع سجون فدرالى فى لومبوك شمال سانتا باربرا، حيث تم احتجازه حتى يُقَل إلى معسكر سجون فى تافت، كاليفورنيا فى أبريل ٢٠٠٤ .

وفى سبتمبر ٢٠٠٤ تم نقله إلى منزل وسيط فى تافت. وفى يناير ٢٠٠٥ أطلق سراحه أخيراً ووضع تحت المراقبة وتم السماح له بالإقامة فى مقطورة متنقلة متواضعة فى لومبوك، كاليفورنيا. والتأم شمله أخيراً بزوجه الحبيبة إميلي، والتي وقفت صامدة بجواره بشجاعة طوال تلك المحنة التي استمرت لعقود.

وفى ١٥ ديسمبر عام ٢٠٠٥، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره، تم استدعاء سميث لاستجوابه فى مكاتب المباحث الفدرالية فى ويلشاير بوليفارد فى لوس أنجلوس. وأثناء التحقيق الذى استمر ثلاث ساعات والذى أطره فيه بالأسئلة السريعة، طُلب منه سرد التفاصيل الكاملة لعلاقته بميلتشان منذ أن التقاه فى أواخر الستينيات، حتى آخر اتصال به عام ١٩٨٣ .

وفى مايو ٢٠٠٦، أنهى سميث فترة المراقبة، ولأول مرة منذ عام ١٩٨٥ لم يكن سجين النظام ولا هارباً منه. وبإطلاق سراحه، انتهت قصة ميلكو للأبد، والتي تفادى ميلتشان التورط فيها مجدداً.

عقب تلك الأزمة، جلس الزوجان سميث لتوثيق قصتهما فى كتيب واقعى بعنوان "الاتهام غير المنطقي والسجن، أو تصدير الكرايترون إلى إسرائيل". ومجدداً استخدم ريتشارد اسمه الحركى الذى كان قد استخدمه لفترة طويلة أى الدكتور جون شيلر وأعطى كل الشخصيات المعنية أسماء مستعارة. وأسمى شخصيته الدكتور إرنست كيلي. وأسمى زوجته إميلي أنى وأسمى ميلتشان داني روتو.

وفي رسالة إلكترونية إلينا، أكد سميث أن كل المعلومات التي نحتاجها نستطيع أن نجدها في كتاباته. ويمكننا أن نقول بكل ثقة إن القليلين هم الذين استطاعوا الربط بين الدكتور جون شيلر والهارب الشهير من الثمانينيات حتى الآن. وأنهما الشخص ذاته في واقع الأمر.

ونظراً لكل ما حدث، وجد سميث أنه من المستحيل له التوافق مع واقع ميلتشان وواقعه، إذ إنه يعيش في منزل متنقل بجوار قضبان السكة الحديد، ويتخيل صديقه السابق يتنقل بطائرته الخاصة بين دول العالم، كانت تلك حقيقة مريرة بالنسبة لرجل كان يوماً يعمل في أهم شركة لرواد مهندسي الفضاء في الولايات المتحدة.

وبالتأكيد، يرى ميلتشان الأمر من منظور مختلف كلياً. ليس من المبالغة القول إن ميلتشان يرى أن إسرائيل أنقذت سميث في الواقع من مصير أسوأ بكثير، وأنه يعتقد أن سميث نفسه -والذي تصرف تصرفات خرقاء في مناسبات عدة- مسئول شخصياً عن أزمته. وأن تصرفاته عرضت ميلتشان للخطر وأخرجت إسرائيل بل وحتى الولايات المتحدة بكل طريقة ممكنة.

هناك أكثر من طريقة لرؤية الأمر، لكن الواضح تماماً أنه أثناء التسعينيات، وبينما كان كل ذلك يحدث، حقق ميلتشان أحد أنجح الإنجازات في تاريخ هوليوود، وحققها معتمداً على نفسه.

وما بين صيفي ١٩٨٥ و٢٠٠١، أنتج ميلتشان ما مجمله ٦٦ فيلماً، وأثر في ثقافتنا الشعبية بأضخم أفلام العصر.

المفاوض

رأيت في أرنون شخصاً بالغ النكاء ذا موهبة فريدة في المجال. لم يكن لدى أى علم بعالمه خارج نطاق هوليوود، ومازالت أجهل ذلك.

ترى سيميل رئيس مجلس الإدارة الأسبق لشركة وورنر براذرز في تصريح له للمؤلفين

عقب فيلم 'بريتى وومان'، سرعان ما أصبح ميلتشان من أشهر الشخصيات في هوليوود، وبحلول عام ١٩٩١ أبرم التزاماً، في شراكة مع وورنر براذرز، لتسويق وتوزيع ٤. فيلماً طويلاً. لكن علاقته بالاستوديو بدأت متعثرة.

يقول تيرى سيميل رئيس مجلس الإدارة الأسبق لشركة وورنر بروس، والذي أصبح صديقاً شخصياً لأرنون، "كنت من بادر بالاتصال بأرنون بشأن الاشتراك مع شركة وورنر فى إنتاج العديد من الأفلام، بدلاً من إنتاج كل فيلم على حدة".

وكان أول مشروع لهما معاً فيلم "أندر سيج" أو "تحت الحصار"، وهو فيلم حركة وإثارة، بطولة ستيفن سيغال. وتنطوى قصته على سرقة السفينة الحربية يو إس إس ميزورى من قبل مجموعة ساخطة من القوات الخاصة سابقاً يقودها تومى لى جونز فى نور باد بيلى. ويلعب سيغال دور طاهى السفينة، وهو من قوات البحرية الخاصة سابقاً، وينجح بواسطة مكيدة مكررة فى الاستيلاء على السفينة. كتب سيناريو الفيلم جيه إف لاوتون.

تلقى لاوتون، الذى كتب سيناريو فيلم بريتى وومان، مبلغ مليون دولار مقابل

السيناريو اللاحق كما وعده ميلتشان. وعندما سمع ترى سيميل رئيس مجلس إدارة شركة وورنر براذرز بمبلغ المليون دولار الذي دفعه ميلتشان للآوتون لم يسعد بذلك.

كانت لدى شركة وورنر براذرز قناعة بأن عقدها مع ميلتشان هو عقد معياري شأن أي منتج مستقل آخر، ويشترط أن الاستوديو له القول الفصل بخصوص أي قرار هام يتعلق بالميزانية. لكن ميلتشان فهم الأمر بشكل مختلف. إذ أراد أن تقوم شركة وورنر براذرز بتوزيع الأفلام التي يقرر إنتاجها، والتي يملك هو السلطة المطلقة في الموافقة عليها، بما فيها كل الجوانب المتعلقة بالميزانية. وعندما أدرك ميلتشان وجود سوء تفاهم اتصل بترى سيميل من باريس وطلب منه فسخ العقد. صدم سيميل لذلك وقال متعجباً "لكننا وقعنا العقد منذ أسبوعين فحسب".

سأله ميلتشان ما إن كان قد قرأ العقد، فاعترف سيميل بأنه لم يقرأه إذ افترض أنه عقد معيارى. قال ميلتشان: كل ما أطلبه هو الحق فى إنفاق أموالى على المشاريع التى أؤمن بها، وكان فى الواقع يطلب الحرية المطلقة فى التصرف.

لم يكن الاتفاق الذى يسيطر فيه الفرد على المؤسسة من نوعية العقود التى تبرمها شركة وورنر براذرز مع المنتجين المستقلين. وكان لدى سيميل الحق المطلق فى فسخ العقد ونسيان أمر ميلتشان كلياً. لكن ميلتشان كان مطلوباً جماهيرياً، وكان سيميل معجباً به. وكان مصراً على الإبقاء على ميلتشان لدرجة أنه استقل طائرة خاصة إلى باريس ليشرح له شخصياً كيف تسير الأمور فى هوليوود.

وما أن دخل غرفته فى فندق ريتز، رفع سيميل الهاتف ليكمل حوارهِ مع ميلتشان.

لكن ماذا إن استيقظت صباح الغد وقررت التوقف عن إنتاج الأفلام بالإنجليزية؟ أنتوقع منى أن أوزع تلك الأفلام؟ أنا أمثل شركة عامة يا ميلتشان" قال سيميل محزناً.

وأجاب ميلتشان "لن أعمل إلا بهذه الشروط".

ثم توصل سيميل لفكرة تمنح ميلتشان الفرصة للنزول من برجه العاجى الذى يتفاوض منه. وشرح له أنه إذا أراد الحرية كاملة، فسيكون عليه بدء شراكة منفصلة مدعومة بمليار دولار، حتى يتعرض الاستوديو لأقل المخاطر، وقال سيميل فى نفسه "لنرى كيف سيستجيب لذلك!".

- فاجأه ميلتشان قائلاً: حسناً! بكم أنتم مستعدون للمساهمة؟

- "يمكننا المشاركة بـ ٢٠٠ مليون دولار" أجاب سيميل مفترضاً فى قرارة

نفسه أنه من المستحيل على ميلتشان تحمل مبلغ الـ ٧٠٠ مليون دولار المتبقية. وأنه على أسوأ تقدير، إن استطاع ميلتشان فعل المستحيل، فستملك شركة وورنر ثلث الشركة تقريباً.

- إن استطعت تدبير مبلغ الـ ٧٠٠ مليون دولار الباقية، هل يمكنك أن تؤكد لي أنه سيكون لي مطلق الحرية؟ استفسر ميلتشان.

- أجل، مهم سيميل بخبث.

- وستأخذ الشركة مصاريف التوزيع؟

- حسناً، إذن سأتصل بك في غرفتك في الساعة مساءً لأخبرك بجوابي.

أنهى سيميل المكالمة، وهو غير متأكد من تفسيرها، لكنه كان لا يزال واثقاً من أنه يستطيع إقناع ميلتشان بالنزول من برجه العاجي.

فوجئ مسئول كبير في كانال بلاس، أكبر شركة قنوات تليفزيونية خاصة في فرنسا، عندما اتصل به ميلتشان ليبلغه أن استوديو أمريكياً ضخماً ينوي استثمار ٢٠٠ مليون دولار في شركة الإنتاج المستقلة الخاصة به، فوعدها ميلتشان، بأنهم سيستثمرون معه دولاراً مقابل كل دولار، ليضاهوا استثمار الاستوديو.

كانت تلك فرصة فريدة للشراكة مع استوديو أمريكي ضخم بالنسبة لشركة كانال بلاس. وكانت بالفعل تدفع مبالغ طائلة مقابل حقوق التوزيع في البلاد المتحدثة بالفرنسية. وكانت تلك فرصتهم للحصول على عائد جزئي على الأقل من تكاليفهم الداخلية.

في الساعة مساءً بالضبط، دق جرس الهاتف في جناح تري سيميل وطلب منه ميلتشان الانضمام إليه في حانة الفندق بالدور السفلي.

عندما وصل سيميل، كان هناك ٢ أشخاص بانتظاره، ميلتشان ومسئولان من شركة كانال بلاس. وبدون تأخير، تطرق ميلتشان للحديث في العمل.

- ترى! هل قلت إنك ستشارك بـ ٣٠٠ مليون دولار؟

- أجل... قلت ذلك.

فالتفت ميلتشان إلى مسؤولي كانال بلاس وسألها بالفرنسية.

- هل قلتما إنكما مستعدان للمساهمة بـ ٣٠٠ مليون دولار إن اتفقت مع الاستوديو؟

فأكد مسئولو كانال بلاس ذلك.

- حسناً، سأشارك بـ ٣٠٠ مليون دولار. إذن لدينا ٩٠٠ مليون دولار لتمويل الأفلام التي أقرر إنتاجها.

في الأيام التالية، سافرت تلك الحاشية إلى نيويورك وتقابلت مع ستيف روس رئيس شركة تايم وورنر ومحامي الشركة لصياغة العقود. واستمر الاجتماع لما بعد الثانية صباحاً.

وعندما سأل المحامون عن اسم الكيان الجديد، سألهم ميلتشان في المقابل: "ما اسم هذا الفندق؟" وعندما أخبروه أن اسمه ريجينسي، طلب من المحامي تسمية الشركة نيو ريجينسي. وفي الحال أصبح هذا الاسم مألوفاً لجميع محبي الأفلام في العالم.

جمع ميلتشان المائة مليون دولار الإضافية التي طلبها سيميل، جمعها من التليفزيون الألماني ومن استوديو أفلام سكريبيا أند ديهيل، ومن صديقه سيلفيو

بيرلاسكوني، وهو من أباطرة الإعلام الإيطالي والذي أصبح رئيساً فيما بعد. هكذا رسخ ميلتشان نفسه في قلب هوليوود تحت اسم شركة "نيو ريجينسي فيلمز".

تكلف إنتاج فيلم "أندر سيج" لكتابه لاوتون والذي أشعل الموقف برمته من البداية، ٣٥ مليون دولار وحقق ١٥٧ مليون دولار أرباح في شبابيك التذاكر العالمية. في الأعوام التالية، شارك أباطرة إعلام آخرون شركة نيو ريجينسي، ومنهم "ليو كيرتش" وشركة سامسونغ عملاق الإلكترونيات من كوريا الجنوبية.

آنذاك أسس ميلتشان أكبر شراكة إعلامية دولية. ومذاك تمت الكثير من الصفقات على تلك الشاكلة، الكبيرة منها والصغيرة، لكن شراكة ميلتشان كانت الأولى من نوعها. وكانت أيضاً صفقة أحدثت نظاماً جديداً في هوليوود اسمه "استأجر استوديو" أو "استوديو داخل استوديو"، بما يعني أن المنتجين يمكنهم أن يدفعوا للاستوديو مقابل توزيع منتجاتهم بدون أن يسيطر الاستوديو على محتوى أعمالهم.

كانت إحدى آخر صفقات أنظمة الدفاع العسكري المعروفة التي تعاقدها عليها ميلتشان هي شراء ١٦ طائرة حربية إلكترونية من شركة بيتش كرافت، من طراز كينغ إير آر سي ١٢ ودي وآر سي - ١٢ كيه، في صفقة بـ ٨٠ مليون دولار مع إسرائيل في منتصف التسعينيات.

في يناير ١٩٩١، اندلعت حرب الخليج الأولى، وهدد صدام حسين بإطلاق صواريخ سكود على قلب إسرائيل إذا تجرأت الولايات المتحدة على مهاجمته. وكان الحل الوحيد لمجابهة تلك الصواريخ هو نظام صواريخ باتريوت الجديدة من صناعة شركة رايشيون.

وكانت أكبر مخاوف إسرائيل هي أن تطلق العراق صواريخ ذات رؤوس

كيماوية أو بيولوجية على المراكز الحافلة بالسكان. ارتدى ميلتشان قبعة تاجر السلاح بفخر مجدداً! وتعاقد على شراء عدة بطاريات من صواريخ باتريوت وأُرسلت إلى إسرائيل وتم تشغيلها في البداية بقوات أمريكية حتى صارت الفرق الإسرائيلية مدربة بشكل كاف على أنظمة الصواريخ تلك.

ومجدداً، صارت إسرائيل ميدان تجارب لأنظمة سلاح أمريكية متقدمة. وهذه المرة، اكتشفوا أن صواريخ باتريوت ليست مؤهلة لإسقاط الصواريخ المعادية، وانتهى بها الحال أن أحدثت أضراراً في الميدان أكثر من صواريخ سكود العراقية نفسها. وبالرغم من هذا، قررت إسرائيل شراء نظام صواريخ باتريوت مقابل ١٧٠ مليون دولار للبطارية الواحدة، ثم تم تحديث النظام بشكل كبير، وأصبح مكملاً لاستراتيجية الصواريخ المضادة الإسرائيلية حتى الآن.

في هوليوود، تعملت شركة وورنر براندس أن تستغل ميل ميلتشان للمخاطر لصالحها، وعرضت على مشاريعه الجديدة في شركة نيوريجينسي بعضاً من أكثر موادها خطورة. ومن بينها مشروع انتهى به الحال على مكتبه وكان ملحمة مؤامرة مثيرة للجدل، تتفحص الأحداث التي أدت إلى اغتيال جون إف كيندي وما تلاها من طمس الحقيقة المزعومة وفقاً لرؤية جيم جاريسون المحامي العام الأسبق لولاية نيواورلينز.

نظرت شركة وورنر براندس إلى السيناريو على أنه يسبب القلق. إذ كان موضوعه مثيراً للجدل سياسياً ومن الأفضل تجنبه، ومخرجه أوليفر ستون مغرور لا يتنازل عن رأيه، وكان السيناريو طويلاً للغاية. مرّوه إلى ميلتشان لأخذ رأيه. يقول ميلتشان واصفاً موقفه من السيناريو: قرأته ونظرت إلى كل نظريات المؤامرة، لكن كان هناك شيء وحيد جذب انتباهي. أحدهم أطلق الرصاص على رئيس

الولايات المتحدة، وبعد يومين أطلق جاك روبي الرصاص على القاتل، وحتى يومنا هذا لا نستطيع فتح ملفات لى هارفى أوزوالد، وذلك لأسباب متعلقة بالأمن القومى. سألت نفسى وأنا أحك رأسى فى حيرة، ما الأمر المتعلق بالأمن القومى والذى يمنعهم من فتح الملفات؟ كان السيناريو جيداً بما يكفى لأقتنع بنظريات المؤامرة، أو ربما لعدم الاقتناع بها، لكن كان هناك شىء واحد حقيقى، وهو أن هذا سيلهم الناس المطالبة بفتح الملفات.

وبالرغم من الجدل المحيط بنظريات المؤامرة فى الفيلم، كان فيلم جيه إف كيه من بطولة كيفين كوستنر، ناجحاً تجارياً ونقدياً. أنتجه ميلتشان بـ٥٢ مليون دولار وجنى أكثر من ٢٠٠ مليون دولار من شباك التذاكر. وتم ترشيح الفيلم لثمانى جوائز أوسكار والعديد من التكريمات الأخرى، وارتقى بسمعة ميلتشان كرجل ذى حدس قوى للأعمال الناجحة.

واستمر ميلتشان فى صداقته مع أوليفر ستون المثير للجدل، وأنتج فيلمين آخرين معه، "هقين آند إيرث" أو السماء والأرض عام ١٩٩٣ و"تاتشورال بورن كيلرز" أو قتله بالفطرة عام ١٩٩٤. وعمل ستون على استمرار العلاقة بشخصية سياسية أخرى مثيرة للجدل وهو نيكسون، لكن ميلتشان اعترض. وأدى هذا لأحد أكثر النزاعات فى هوليوود شهرة، وكما يفسرها ميلتشان:

فى البداية أراد أوليفر إنتاج الفيلم بـ١٨ مليون دولار ليلعب دور البطولة توم هانكس، ووافقنا على هذا. ثم غير أوليفر رأيه وأراد أن يقوم بالبطولة تومى لى جونز، وكان أكثر تكلفة. ثم أراد داستن هوفمان، ثم أراد وارين بيتى، واستمرت ميزانية الفيلم فى التزايد. ثم فى عيد الميلاد المجيد غير رأيه مجدداً. أراد أن يلعب دور البطولة روبين ويليامز، روبين ويليامز يلعب دور نيكسون؟! بدأت أفقد

أعصابى. ثم اختار أنطونى هوبكنز. واستمرت الميزانية فى التزايد، أكثر فأكثر. فى النهاية رفضت ذلك أنا وترى سيميل. واستاء ترى للغاية، وانتهى بنا الحال أن وصلت الميزانية إلى ٦٥ مليون دولار، فانفصلنا.

ولم يتقبل أوليفر ستون هذا بصدر رحب. وكان لديه عقد لفيلم آخر مع ميلتشان. ولفترة وجيزة فكر فى تنفيذ فيلم فاضح من سيناريو كانوا يتناقلونه فى هوليوود كمزحة أكثر من أى شىء آخر. وكان اسمه المبدئى "عوزى فلافل"، ويحكى قصة تاجر سلاح إسرائيلى بغيض جنى أموالاً طائلة وكان يغسلها فى مهنة جديدة وهى إنتاج الأفلام.

لم يجد ميلتشان الأمر مسلياً. ووجد أوليفر ستون الذى كان يشعر بالمرارة فرصاً أخرى يهاجم بها صديقه السابق. حيث قال فى حوار صحفى: حذرنى مسئول كبير فى هوليوود ذات مرة بالابتعاد عن ميلتشان. وأخبرنى أن ميلتشان كان تاجر سجاد من الشرق الأوسط، وكان من الواجب على الاستماع له، فقد كان محقاً. إن أرنون فى غاية البخل. وهو مريض بالمال، ولديه هوس مرضى من فقدائه. تعلمت درساً قاسياً للغاية، وكلفنى الكثير من أموالى الشخصية. لا أريد الدخول فى خلاف شخصى قدر، لكن أرنون يمكن أن يكون شريراً للغاية.

ملحوظة من المترجم: المخرج القدير أوليفر ستون لمن لا يعرف يهودى الديانة، أى لا يمكن حمل رأيه هذا على أنه معاد للسامية بأية حال، وشىء آخر، علينا ألا ننسى نزاعه الأول مع المنتج اليهودى المخضرم سيدنى شاينبيرغ والذى كان رأيه فى ميلتشان مماثلاً لرأى ستون.

واستجاب ميلتشان بالشكل التقليدى قائلاً أوليفر يروقنى، أنا متيم به، حقاً!. ولا يزال ميلتشان يدعو ستون للعديد من المناسبات التى تقام فى منزله. التى،

يحضرها ستون أحياناً. وهكذا الحال في هوليوود، القلب ما بين الحب والكراهية.

وبينما كانت أسي ثاستروم عشيقة ميلتشان تقيم في قصره في فرنسا، اتجه أرنون لحب جديد في الناحية الأخرى من العالم، أي مساعدته الشخصية الجديدة شونا بيل، والتي انتقلت من شركة تريستار بيكتشرز للانضمام إلى ميلتشان في شركته نيو ريجينسي. وتبع ذلك حياة مزدوجة أخرى، بالرغم من أنها في تلك المرة لم تشمل شهادة زواج.

لم يقنع ميلتشان بإنتاج الأفلام فقط وعمل بدأب لتوسيع إمبراطوريته. واشترى شركة تسجيلات ريستليس ريكوردز، وبدأ في توزيع الأغاني عبر ذلك المنفذ، مدعوماً بأكبر شركة توزيع موسيقى في العالم آنذاك بي إم جى. ولم يخف طموحاته في الانضمام في النهاية للاستوديوهات الستة الكبرى كنداً لها حيث قال: "لم أحب يوماً كلمة صغير، إما أن تكون فاعلاً أو لا تكون".

طبق ذلك المبدأ في اللهو كما في العمل. إذ استحدث ميلتشان تقليداً خاصاً بالإجازات الشتوية اشترك فيه أبرز المواهب في هوليوود، مثل كريستوفر لامبرت وجون بيشى وروبرت دى نيرو، وكانوا يبحرون في يخت إلى نيكرو، وهي جزيرة حصرية صغيرة يمتلكها السير ريتشارد برانسون في جزر فيرجين الإنجليزية، حيث كانوا يستجمون بدون أن يقلقوا بشأن المصورين المرتزقة.

وبينما كان ميلتشان ينظم تلك الرحلات، كانت شركة نيو ريجينسي تعمل بكفاءة بطاقم عمل صغير نسبياً عدده حوالى ٣٠ موظفاً، من المبنين الصغيرين المتصلين في استوديو وورنر براندرس في بريانك. كان ميلتشان سعيداً بالعمل في مكتب صغير. وحدها اللوحة الفنية الغالية على الحائط هي التي كانت تشير لمكانة الشركة، بالإضافة لنوقة المكلف.

وعلى عكس مكاتبها الجديدة المتواضعة، فقد تعاملت شركة نيو ريجينسى مع أفضل مواهب هوليوود وأبرزها فى المجال السينمائى، ومضت تنتج الفيلم تلو الآخر فى تعاقب سريع، وأحياناً بشكل متزامن، بداية بفيلم الإثارة "كيو أند إيه"، من بطولة نيك نولتى وتيموثى هاتون ومن إخراج سيدنى لوميت، وسرعان ما قدمت مجموعة انتقائية من فئات أفلام الاستوديو داخل الاستوديو، مثل الفيلم الدرامى عن حقبة مكارثى "غيلتى باى ساسبيشن" أو مذهب بالاشتباه، من بطولة روبرت دى نيرو وأنيث بينينغ فى عام ١٩٩٢، والفيلم الرومانسى الكوميدى "ميموارز أوف آن إنفزيابل مان" أو مذكرات رجل غير مرئى من بطولة تشيفى تشيس وداريل هانا، وفيلم الأكشن "أندر سيج ٢" أو تحت الحصار الجزء الثانى.

ومن بين العديد من المشاريع الأخرى، اشترت شركة نيو ريجينسى حقوق ملكية روايات جون غريشام الأعلى مبيعاً، وأنتجت فيلم "ذا كلاينت" أو العميل، و"أتايم تو كيل" أو وقت للقتل فى ١٩٩٦. وركز ميلتشان أيضاً على الأفلام العائلية مثل سلسلة أفلام "قرى ولى" أو ولى الحر، وأفلام الرسائل مثل "ست درجات من الانفصال"، وأفلام الرعب مثل المقلد، وأفلام التسلية للمراهقين مثل كاربول من بطولة توم أرنولد.

ولجارة الطلب المستمر، وفى وجود العديد من المشاريع فى طور الإنتاج، أجبر ميلتشان أحياناً على التنازل ويقول فى هذا: هناك بعض الأفلام - ولا أريد الحط من شأن شركتى - لكن أحياناً كنت أقول، يا رفاق! هذا غباء فادح! وكانوا يجيبون، أرنون! يوجد جمهور عريض لهذا. وكنت أقول حسناً، فلنفتح قسماً للغباء وننتج تلك الأفلام الغبية... وأرجوكم! لا تخبرونى بقصتها، لذا أنتجنا العديد من الأفلام الساخرة التافهة مثل فيلم "إيبىك موفى" أو الفيلم المسمى "ديت موفى" أو فيلم الموعد الغرامى، و"ميت ذا سبارتازن" أو تعرف على "الإسبرطيين". وعلى الرغم

من أنها كانت مربحة، لكن ميلتشان ليس فخوراً بها.

بين روبرت دى نيرو الذى لعب دور البطولة فى خمسة من أفلام ميلتشان، منها هيت أو الخطر عام ١٩٩٥، السبب فى أن العديد من المواهب البارزة ترغب فى العمل مع ميلتشان قائلاً "مقارنة ببعض المنتجين، الذين لا يمتلكون شيئاً سوى البذلات الغالية، فإن أرنون رجل أصيل. وعانى فى حياته، ولديه ذوق جيد، ويعمل بكد وهو ملتزم للغاية، وقد أبعد نفسه عن أولئك المنتجين الآخرين".

وبمرور الوقت، صنع ميلتشان فلسفته وتركيبته الخاصة للنجاح فى مجال صناعة الأفلام، وهى وجهة نظر أكثر تعقيداً من نظرتة فى سنواته الأولى عندما كان يعمل وفقاً لما تمليه عليه غريزته وعاطفته. يقول ميلتشان "دعونى أشبه الأمر بشخص يشيد بناية، المنتج هو خبير العقارات الذى يبحث باستمرار عن موقع جيد. وفى حالتنا، أفضل موقع هو السيناريو. فالسيناريو بالنسبة للفيلم كما الموقع الجيد بالنسبة للعقار. الموقع ثم الموقع فالموقع".

فى الواقع، كتاب السيناريو الذين يعملون مع ميلتشان يقولون إنه كثير المطالب للغاية.

يقول ميلتشان فى مقابلة صحفية معه فى مجلة سيغار أفيسينادو فى أكتوبر ٢٠٠٨:

"إن لم يكن لدى قصة رائعة لأرويهها، فلم عسائ أختار طاقماً رائعاً من الممثلين ليروى قصة غبية؟! فالنص الرائع يمكن أن يرويه عدد قليل من الممثلين، وهناك أكثر من طاقم من الممثلين الذين يمكنهم رواية قصة رائعة.

ومن ناحية الأهمية، بعد السيناريو يأتى المخرج. يُشبّه أرنون المخرج بمهندس

معماري في مشروع عقاري:

"إن أردت التحكم فيه، فلن تحصل على أفضل مُنتَج. عليك أن تكون قادراً على أن تقول: حسناً! لنتفق على هذا مقدماً، إليك بالمفاتيح، ولتقم أنت بتنفيذ رؤيتنا المشتركة. وغالباً ما يكون لدينا فكرة عن نجم أو ممثل يلعب دور البطولة، أو ربما يكون لدينا قائمة من ٣ أسماء، إذن يمكن أن يكون الممثل كيفين كوستنر أو براد بيت أو داني ديفيتو. ثم نتحدث بشأن النجمات اللاتي تتوافق معهن جنيفر أنيستون أم كامرون دياز أو أيأ من كانت. وبتناقش كثيراً بشأن التركيبة والتوافق".

ولنأخذ مثلاً فيلم سامرزبي، الذي أنتجه ميلتشان عام ١٩٩٢، الفيلم درامي رومانسي مقبّس من سيناريو لرواية فرنسية اسمها لو ريتور دو مارتن غور أو عودة مارتن غور، يروي قصة امرأة شابة متزوجة في المنطقة الجنوبية بعد الحرب الأهلية تستطيع بالكاد الحفاظ على مرزعتها بدون زوجها، الذي فقدته في الحرب الأهلية. وفجأة، يعود زوجها بعد ٧ أعوام من الغياب، رجلاً متغيراً تماماً وللأفضل. ويمرور الوقت، تراودها الشكوك هي والآخرين في أنه ليس زوجها الحقيقي لكنه نصاب.

أراد ميلتشان أن يقوم ريتشارد جير بدور الزوج العائد، واقترح آخرون جوليا روبرتس في دور الزوجة، كتكرار لفريق عمل فيلم "بريتي وومان". أصر ميلتشان على جودي فوستر بدلاً منها. وقال إنه إن حدث وترك رجل شخصية مثل جوليا روبرتس، فمن المؤكد أنها ستكون قد عثرت على رجل آخر أثناء السنوات السبع. أما شخصية فوستر، فتشع مبادئ الإخلاص. وستظل ودية، وعندما يعود زوجها لطيفاً ووسيماً، ستأخذ القرار بالعيش معه، بالرغم من أنها في قرارة قلبها تشك في أنها كذبة. وحصلت فوستر على الدور.

وبعد اختيار السيناريو والمخرج وطاقم العمل، يقرر ميلتشان بعد ذلك الميزانية. وتقوم تركيبته على تقسيم الجمهور المستهدف إلى أربع فئات: الذكور أكبر أو أصغر من ٢٥ عاماً، والإناث أكبر أو أصغر من ٢٥ عاماً. إذا كان الفيلم فيلم إثارة كوميدياً مثل مستر أند مسيز سميث، وهو فيلم يصلح للذكور والإناث فوق ٢٥ عاماً، ووافق على الاشتراك فيه نجوم كبار مثل براد بيت وأنجلينا جولي، فسيزيد ميلتشان ميزانيته حتى تصل إلى ١١٠ مليون دولار. وإن كان الفيلم من نوعية الدراما الثقيلة مثل فيلم "بى سيزون" أو موسم النحل، وهو فيلم أنتج أيضاً عام ٢٠٠٥، وجمهوره المستهدف من الإناث فقط فوق ٢٥ عاماً، فلن يستثمر فيه ميلتشان أكثر من ١٤ مليون دولار، حتى وإن كان من بطولة ريتشارد جير وجولييت بينوش.

وبعد الاستقرار على كل تلك العناصر -من السيناريو إلى المخرج إلى طاقم الممثلين إلى الميزانية-، يعين ميلتشان المنتج التنفيذي. وبمصطلحات العقارات فالمنتج التنفيذي هو المفاوض العام. وكثير من متعهدي العقارات، يعرض ميلتشان على منتج التنفيذ أجراً أساسياً، بالإضافة إلى نسبة ربح وعلاوة إضافية إن انتهى من إنتاج الفيلم بأقل من الميزانية المحددة. وإن كان الفيلم مربحاً، يتلقى المزيد من العلاوات، وكثير من محفزات الأداء يتم وضعها في العقد.

عندما انضمت شركة نيو ريجينسى لشركات النخبة فى هوليوود، بدأت تتلقى أيضاً منتظماً من النصوص من دون أن تطلبها، والتي شكلت فى النهاية عدداً لا حصر له. من قبل، كان ميلتشان يبحث باستمرار وحذر عن القصة الرائعة، والآن غدت السيناريوهات تتدفق على مكتبه بمعدل يتجاوز ٢٥٠٠ سيناريو فى العام الواحد. وتحت تلك الظروف، غدا فريق العمل المتكامل ضرورياً لتصفية تلك المواد، ومن آلاف السيناريوهات التى كانت ترد على المكتب، كان ينتج منها ٨ أو ١٠

سيناريوهات على أكثر تقدير.

وإحصائياً، كان يأمل أن ينجح منها فيلمان أو ٣ لتدعم الشركة مادياً. وإن حاله الحظ لن تحقق ثلاثة أو أربعة أفلام ربحاً، أو ستحقق ربحاً قليلاً، وسيخسر فيلمان على الأرجح، وسيكون فيلمان كارثة محققة. إنه مجال فظيع هكذا يقول ميلتشان.

ومن المشاكل التي يقابلها اللاعب الرئيسي الذي تغمره المواد الفيلمية، أنه أحياناً، يدرك متأخراً، ولرة واحدة في حياته، أنه تجاهل فيلماً كان سيحقق نجاحاً ساحقاً. كان ميلتشان المنتج الأول الذي عرضت عليه الحقوق الحصرية لأول كتاب عن هارى بوتر، ولكل السلسلة التالية من الكتب التي لم تكتب بعد. عرضت عليه تلك الحقوق بمبلغ شديد الزهد لدرجة السخافة وهو ٣٥ ألف دولار. لكنه وجد صعوبة في التواصل مع القصة ورفضها، معتقداً أنها لن تنتج على الأرجح.

وبعد النجاح الواسع الذي حققه فيلم هارى بوتر الأول، قال ميلتشان إنه لا يعرف ماذا يفعل أولاً، يتقيأ أم ينتحر!

ولم تكن تلك المرة الأخيرة، إذ كان ميلتشان يمتلك حصة ٥٠٪ من السلسلة التي تحولت إلى رسوم متحركة بلغ ربحها المليار دولار وهى سلسلة أفلام آيس إيدج أو العصر الجليدى. عندما تجاوزت ميزانية آيس إيدج الـ ٥٧ مليون دولار بقليل لتصبح ٦١ مليون دولار، تراجع عنها، ورفض أن يصدق أن فيلم رسوم متحركة لن يحقق خسائر.

ومن ناحية أخرى، إن آمن ميلتشان بشيء حقاً، نجده قادراً على إنتاجه مرتين إن لم يخرج الإنتاج الأول بالشكل المتوقع. كان هذا الحال مع فيلم "مان أون فاير" أو رجل يحترق من بطولة سكوت غلين، والذي أنتجه عام ١٩٨٧. آمن ميلتشان

بالسيناريو بشدة لكن الفيلم حقق خيبة أمل كبيرة في شباك التذاكر. وفي ٢٠٠٤، قرر إعادة محاولة إنتاجه، وغير موقع التصوير، وتخلي عن أسلوب أفلام الجريمة، واختار دينزل واشنطن في دور البطولة لعميل استخباراتي سابق وقاتل محترف تحول إلى حارس شخصي ينتقم من عصابة مكسيكية اختطفت الطفلة التي تم تعيينه لحمايتها في مكسيكو سيتي.

قبل ذلك بسبعة عشر عاماً، خسر مبلغاً هائلاً بسبب الفيلم، لكن ميلتشان ضاعف الميزانية واستثمر ٧٠ مليون دولار أخرى في الإنتاج الثاني للفيلم، ولذا حقق أكثر من ١٣٠ مليون دولار، وهو ربح أكثر من كاف لتغطية الخسائر السابقة في كارثة عام ١٩٨٧.

تتجلى حقيقة أن المبدأ مهم بالنسبة لميلتشان أيضاً في واقعة أخرى حيث كان مستعداً أن يتقبل خسارة ١٧ مليون دولار على أن يستسلم لشيء شعر أنه غير عادل. في ١٩٩٣، في عشية العرض الأول لفيلم "ذا ناتكراكر" أو كسارة الجوز، من بطولة ماكولاي كالكين، والذي كان في الحادية عشرة من عمره آنذاك، قدم والده، وهو رجل معروف عنه الجشع وكان مدير أعمال ابنه، قدم لميلتشان قائمة طويلة من المطالب تتضمن تغييرات جذرية في الطبعة النهائية من الفيلم. وكانت مطالبه مصحوبة بتهديدات مفادها أنه في حال لم يحقق ميلتشان المطالب، فسيمنع ابنه للترويج للفيلم.

ذهل ميلتشان من ذلك التجرؤ، لكنه ابتلع كبرياءه وجاراه. ثم مضى الوالد يصدر المزيد من الإنذارات. في تلك المرحلة أخبره ميلتشان أن يذهب للجحيم. منع كالكين الأب ولده من الترويج للفيلم حتى بعد تقاضيه أجره الذي بلغ ٨ مليون دولار. وخسر ميلتشان ١٨ مليون دولار، لكنها كانت كارثة بالنسبة لكالكين

وسمعته، بالرغم من أن ذلك لم يكن خطأه.

بالرغم من أن ميلتشان يبدو كمتخذ قرارات صعب المراس يُعنى بكل تفاصيل شركة نيو ريجينسى، نجده يقضى معظم وقته بعيداً عن هوليوود حيث ينتقل باستمرار بين قواعد عملياته حول العالم. سمعته تلك هى نتاج اتصالاته المكثفة من مواقع البعيدة بمديره فى بيربانك. وليس غريباً عليه أن يتصل ١٠ مرات يومياً ليطلعوه على المستجدات وليعطى توجيهاته فى كل ساعات اليوم تقريباً، بما فيها العطلات الأسبوعية والإجازات.

يمتلك ميلتشان ٧ منازل فى ٧ بلاد، ولم يكن لديه سكن دائم فى أى مكان، إلى أن استغل العرض المقدم من الحكومة الإسرائيلية بالإقامة بشكل رسمى فى إسرائيل بدون دفع ضرائب على الدخل الذى يحققه خارج البلاد للعشر سنوات التالية.

ومع الأخذ فى الاعتبار حياة ميلتشان المرفهة، فلم يكن ظهوره فى نهائى دورة أستراليا المفتوحة للتنس أمراً مفاجئاً. وهناك التقى ميلتشان أسطون الإعلام والمقامر العالمى الشهير كيرى باكر، أغنى رجل فى أستراليا، بينما كان يستعد للمغادرة بطائرة مروحية بعد المباراة، اقترب باكر وهو رجل جريء وشديد الطموح، من ميلتشان بدون سابق معرفة، وقال له أنا وأنت سنصير شريكين.

فضحك ميلتشان وقال "هل أنت متأكد؟ لأننى ليس لدى أية أسهم لأبيعها".

فقال باكر "سترى".

وفى الأيام المقبلة، أرسل باكر جيشاً من المحامين والمحاسبين إلى مكتب ميلتشان فى بيربانك وحرروا له شيكات فارغة لكن بلا جدوى. فى النهاية، وخلال

بضعة أسابيع، تمكن باكر من شراء ٢٥٪ من شركة نيو ريجينسى من شركاء ميلتشان الآخرين وعبر إصدار أسهم إضافية للشركة. إذ رأى باكر فى ميلتشان تذكرته إلى هوليوود، ووسيلته لمنافسة غريمه اللود روبرت مردوخ، فى مجال صناعة الأفلام.

وفى الواقع استرعت شراكة باكر وميلتشان انتباه مردوخ وأدى هذا المناورات شائقة فى مجال البيزنس.

ونظراً لإسهاماته ذائعة الصيت فى مجال صناعة الأفلام، فربما يتكون انطباع خاطئ لدى الناس أن شركة نيو ريجينسى كانت نشاط ميلتشان الوحيد.

فى عام ١٩٩٦، حاول ميلتشان شراء استوديوهات إم جى إم، أحد أكبر ٦ استوديوهات للأفلام فى هوليوود، لكن تفوق عليه فى المزايدة الملياردير كيرك كيركوريان، الذى نجح فى شرائها بعرض قيمته ١٣ مليار دولار. عبر ميلتشان عن موقفه حيال ذلك بالقول أحياناً تكسب الأشياء بخسارتها. وفى ذات الوقت الذى فشل فيه فى شراء إم جى إم، أنهى ميلتشان فيلمه الأربعين مع شركة وورنر براذرز، مكملاً شروط العقد المبدئى بينهما. وكشروط لـ الاتفاق، طالب ميلتشان وورنر براذرز بزيادة استثمارها فى شركة نيو ريجينسى وتوقيع عقد مداه أطول. فرفض الاستوديو، وحذر تيرى سيميل صديقه ميلتشان من أنه إن لم يوقع العقد بشروط وورنر براذرز، فسيحرص شخصياً على ألا يعمل ميلتشان فى تلك المدينة مجدداً. ولم يتقبل ميلتشان إملاءات سيميل بصدر رحب، وفى عام ١٩٩٧ اتخذ الخطوة الكبيرة الثانية فى مسيرته عندما تسوق لشراء مقر جديد لشركة نيو ريجينسى. وأخبر سيميل قائلاً إنه سيفادر المدينة على أية حال.

اتصل ميلتشان أولاً بإدغار برونفمان الابن فى شركة يونيفرسال، لكن، لم

يعاود برونفمان الاتصال به كما كان سيميل قد أخبره. وكانت المحطة التالية هي شركة باراماونت، حيث قدم سامر رديستون -صديقه المقرب- عرضاً يمكنه رفضه إن أراد، حيث كان أقل بكثير من عرض شركة وورنر براذرز. وبدأ يتخوف، لكنه كان لديه ورقة لعب أخرى ليستخدمها.

لن ينسى ميلتشان عشاءه الأول مع الشخص الذي أصبح من أقرب أصدقائه وشريكه أي روبرت مردوخ، مالك شركة نيوز كوربوريشن، الشركة الأم لشركة توينتييث سينشري فوكس. وعُقد اجتماعهما في مطعم سباغو في بيفرلي هيلز، وفي هذا يقول ميلتشان "كنت أحمل حقيبة بها حذاء ماركة پوما و سلع دعائية خاصة بفيلم فرى ويلى، وكنت متحسماً لدرجة أن كان أول ما فعلته هو أن سكبت زجاجة كوكا كولا عليه".

كان العشاء غير مريح، ولم يفهما بعضهما بشكل كامل بسبب سوء الترجمة والتفت مردوخ إلى مدير أعماله بيتر شيرنين، والذي كان حاضراً العشاء أيضاً وقال:

- لا أفهم نصف الأشياء التى يقولها، لكنه يروقنى.

وفوجئ ميلتشان بشخصية مردوخ الرقيقة، والتي كانت على النقيض تماماً من صورته كأحد أباطرة الإعلام الأقوياء. لكن ميلتشان فهم فى الحال أنه بقدر ما هو حلو الحديث، فقد كان شخصاً لا يُستهان به.

وسرعان ما تشكلت الصفقة مع مردوخ، لكن كان ثمة عقبة أخرى قبيحة لم تكن قد ظهرت بعد. كان كيرى باكر هو شريك ميلتشان فى نيوريجينسى، وكان باكر ومردوخ غريمين لدودين فى عالم الأعمال الأسترالى. وكانت كراهيتهما لأحدهما الآخر أسطورية، وتعود لأيامهما الأولى كمنافسين فى سوق الإعلام

الأسترالى. بالإضافة إلى ذلك، كان دافع باكر الأساسى فى الشراكة مع ميلتشان
ذا علاقة كبيرة بتموحيه لمنافسة عمليات مردوخ القائمة فى هوليوود.

وعندما تقابل ميلتشان ومردوخ لإتمام الصفقة، أمطره مردوخ بالأسئلة
السريعة:

- هل خاطرت بأموالك قط؟
- ماذا تعنى؟ شركة نيو ريجينسى تدين لى بخمسين مليون دولار.
- إن ساهمتُ ببضع مئات الملايين من الدولارات فى شركتك، أنتوى أن تدفع
لنفسك من أموالى؟
- أجب ميلتشان بصدق "أجل".
- ثم اقترح مردوخ على ميلتشان أن يعيد استثمار أمواله بذات الشروط التى
عرضها عليه،

فوافق ميلتشان فى الحال.

عندئذ، أصبح مردوخ أكثر استرخاءً وسأله.

- هل صحتك جيدة؟

فأجاب ميلتشان أجلى.

- هل ستدير الشركة؟

- ولم لا؟

- أتدخر بعض المال جانباً؟

- لم؟ سأل ميلتشان.

- لا أحب العمل مع الأشخاص الطائشين.

- أجل، أذكر بعض المال.

- حسناً، الآن لنحدث بشأن شيء صغير يقلقني. كيف ستعامل مع كيري؟

- دعني أحاول إقناعه.

- أين يمكنك أن تجده بظنك؟

- ربما في أحد الكازينوهات في مكان ما.

ثم بدأ ميلتشان يجري اتصالات من مكتب مردوخ إلى أماكن مألوفة ظن أنه يمكنه العثور على باكر فيها. في النهاية، تمكن من الوصول إليه في أسيبزالز كازينو في لندن وطلب استدعاءه إلى الهاتف.

- كيري، أنا جالس هنا مع روبرت مردوخ ونحن على وشك عقد اتفاق يمكنه أن يغير حياتي العملية، وأحتاج للموافقة عليه.

- مستحيل!

- كيري! هذه حياتي.

- وهذه حياتي أيضاً.

- بربك يا كيري! تلك ليست حياتك.

كان مردوخ يجلس في الطرف الآخر من المائدة، مستمتعاً بالحوار المتبادل بينهما وبمشاهدة مراوغة ميلتشان. ولم يكن يستطيع سماع باكر على الناحية

الأخرى من الهاتف.

صاح ميلتشان بسخرية فى الهاتف، قائلاً "رائع! أنا سعيد لأنك تحبه، وهو أيضاً يحبك.

مضى مردوخ يقلب ناظريه. وقال كيرى:

- لم لا تحيى روبرت نيابة عنى؟

عندئذ مد ميلتشان يده عبر المائدة ووضع السماعة فى يد مردوخ المذهول، فارتبك مردوخ ولم يكن لديه بديل آخر سوى الحديث مع غريمه القديم.

وأنصت ميلتشان متوتراً بينما كان مردوخ يغمغم على الهاتف.

- مرحباً... أجل، هذا الرجل الإسرائيلى، أجل... يستحسن أن نتحد ضده!

وارتسمت الابتسامة ببطء على وجه مردوخ.

وفجأة خطر لميلتشان أن شركة نيوريجينسى كانت الوسيلة التى أحلت السلام بين اثنين من أشرس الغرماء فى التاريخ.

وخلال لحظات، وضع مردوخ سماعة الهاتف والتفت لميلتشان وقال "أنت صانع معجزات".

ثم طلب ميلتشان صنيعاً من مردوخ. لم يُرد أن يتم الصفقة بدون مباركة صديقه جerald ليفين، رئيس مجلس إدارة شركة تايم وورنر. وافق مردوخ على الاتصال به وغادر ميلتشان الغرفة ليتيح له الخصوصية. وعندما عاد أخبره مردوخ بوجود احتمالين:

- إما أنه لا يطبق صبراً حتى يتخلص منك، أو أنك تروقه حقاً.

- لم؟

- لأنه قال إنك تحتاج جناحين لتحلق بهما، ومعنى ستُحلق أعلى. ويعد توقف وجيز، أشار إلى أن الاتفاق سيمضى قدماً بإيماءة من رأسه.

- روبرت! لقد أعطيتني للتو بضعة ملايين من الدولارات، لم؟

- أنا لا أحلل الماضي، بل أحلل المستقبل.

- كيف تتخذ مثل تلك القرارات؟

- الأمر في غاية البساطة، أنظر خلفك ولا أرى أى جثث! إننى أعرفُ شريك وهو يبدو سعيداً بالشراكة. وبالمناسبة، لم أعطك بنساً واحداً.

- ماذا تعنى؟

- لقد وضعت المال في شركتنا.

- ساعدنى! لست واثقاً أننى أفهمك.

- حسناً، دعنا نفترض أنك تلعب باكاراه، وأنت مقامر رائع لكنك ليس لديك فيشيات كافية. لذا أتى أنا وأقول يبدو أن هذا الرجل يعرف ما يفعله وأعطيك حفنة من الفيشات. وما أن أغادر الكازينو، تهرع إلى أمين الخزينة وتطلب صرف تلك الفيشات. لكن أمين الخزينة سيسألك هل أنت السيد ميلتشان؟ لدى هنا رسالة من السيد مردوخ، مكتوب فيها أنك لا يمكنك صرف الفيشات لمدة خمسة عشر عاماً أخرى. لذا تبحث عن مائدة وتضع عليها الفيشات وتنتظر. ثم يأتى رجل يرتدى حلة وربطة عنق ويسأل هل أنت السيد ميلتشان؟ لدينا رسالة من السيد مردوخ مكتوب فيها أنك لا يمكنك الانتظار هكذا، والمفروض أن تلعب الباكاهه كل خمس دقائق.

هكذا الأمر. وأيما يتبقى بعد لعب خمسة عشر عاماً يصبح ملكاً لك.

ظلت ٥٥٪ من شركة نيو ريجينسى فى أيدي ميلتشان. واحتفظ كيرى باكر بحصة الـ ٢٥٪ الخاصة به، واشترى مردوخ ٢٠٪ مقابل ٢٠٠ مليون دولار. وحصل ميلتشان على قروض ائتمانية بقيمة ٦٠٠ مليون دولار من مجموعة بنوك منها تشيس مانهاتن وبانك أوف أمريكا وبانك ناشونال دو بارى، وبنوك أخرى.

كان جزء من الاتفاق بين فوكس ونيو ريجينسى ينص على تأسيس قسم تليفزيونى جديد. أتى ميلتشان بصديق مقرب إليه، الشخصية الإسرائيلية التليفزيونية الطموحة يائير لايبى، ليرأس القسم الجديد. وكان أول مشروع ينتج عنه هو مسلسل "مالكوم إن ذا ميدل" أو مالكوم فى المنتصف، وهو مسلسل أطفال كوميدى لقى نجاحاً واسعاً.

من آخر الأفلام وأهمها التى أنتجها ميلتشان مع شركة وورنر براندرس قبل تأسيس الشراكة الجديدة مع مردوخ وشركة توينتيث سينشرى فوكس، كان فيلم "إل إيه كونفدنشال" أو سرى من لوس أنجلوس. تتضمن قصة الفيلم ٣ محققين شرطة فى لوس أنجلوس نوى شخصيات ودوافع متباينة، ويكونون تحالف اتحاد مصالح لتطهير القسم من الفساد المنظم. طلب المخرج كيرتس هانسون، إرسال الفيلم إلى ميلتشان مباشرة، قبل أن يقرأه. انبهر ميلتشان بجرأته ووافق. وعندما تقابلا، أصر هانسون على أن يشاهد ميلتشان لقطات قديمة من الخمسينيات وذلك كى يضعه فى الحالة المزاجية المناسبة. فجاراه ميلتشان. وعرض هانسون بعد ذلك الفيلم بطريقة درامية ذكرت ميلتشان باجتماعه الأول بتيرى غيليام فى باريس عندما وصف له غيليام فيلم برازيل. حيث علق ميلتشان قائلاً "أقنعتنى لفتة الجسدية أنه يتكلم لغة سينمائية مختلفة".

بعدما وافق ميلتشان على السيناريو، كان لدى هانسون طلب آخر غير تقليدي. أراد ضماناً بأن يتم اختيار ممثلين أستراليين مغمورين للعب دورين كان يفكر فيهما. كان الممثلان هما راسل كرو وغاي بيرس. في البداية اعترض ميلتشان لكنه لأن لاحقاً. بعدما قابل راسل كرو تبذرت كل شكوكه. الشيء الآخر الذي كان يقلقه هو ما إن كانت كيم باسينغر ستوافق على أداء دور العاهرة. ولم يكن لديه ما يقلق بشأنه، لأنه ما أن قرأت باسينغر السيناريو، حتى عاودت الاتصال بميلتشان في الحال وقالت بحماس "هذا الدور كتب لأجلي"، وفازت باسينغر بجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة، وهي واحدة من ٧١ جائزة فاز بها الفيلم.

أنتجت تلك الشراكة بين ميلتشان ومردوخ فيضاً من أكثر من ٥٥ فيلماً طويلاً، منها نادى القتال، والشيطان الجريء، ومستر أند مسيز سميث، نايت أند داي. كانت تلك أفضل صفقة أبرمها مردوخ منذ أن وصل إلى هوليوود، محققاً أكثر من ٥,٢ مليار دولار من مبيعات شبك التذاكر بحلول نهاية ٢٠١٠ .

مدينة الملائكة

عندما سمعت أن براد ترك المنزل ويبحث عن فندق، عرضت عليه الإقامة في منزلي في مالميو.

أرنون ميلتشان

تبنى ميلتشان نموذجاً في العمل يروج للأفلام والرياضة معاً. وبدلاً من أن يشتري فريقاً رياضياً، كما فعل صديقه روبرت مردوخ مع فريق لوس أنجلوس دوجرز، أو يقضي ٢٠ عاماً في بناء شركته الرياضية الخاصة، وجد ميلتشان طريقاً مختصراً، وهو شراء شركة للملابس الرياضية.

وكان أول هدف له هو شركة أديداس، والتي حاول شراءها بالشراكة مع صديقه الممثل ريتشارد دريفوس، لكنه لم يفلح في ذلك. وكانت خطته البديلة هي السيطرة على شركة الملابس الرياضية الألمانية الراكدة "پوما"، وهي صفقة استثمر فيها مبدئياً ٢٥٠ مليون دولار، وفي ذات الوقت استهدف شراء حقوق البث لاتحاد التنس النسائي المتعثر "دبليو تي إيه".

وكانت الفكرة هي استغلال نجوم هوليوود للترويج لاتحاد التنس النسائي، ولاستغلال الاتحاد وأفلامه للترويج لشركة پوما. وخلال فترة وجيزة، بدأ شعار پوما يظهر بشكل أكبر على ملابس كيانات رياضية رائدة حول العالم، بدءاً من فريق إف سى برشلونة إلى المنتخب الإسرائيلي لكرة القدم. وفي عام ٢٠٠٠، كان كلا الفريقين المنافسين في نهائى دورى كرة القدم الأمريكية، فريق سانت لويس رامز وفريق تينيسى تايتانز، يرتديان شعار پوما المملوكة لميلتشان.

وفى ٢٠٠١، وصل ميلتشان لحضور بطولة فرنسا المفتوحة فى طائرة خاصة يصحبه أرنولد شوارزنيغر والعارضة الشهيرة ناعومى كامبل. ووصل لدورة ويمبلدون مع شون كونرى وكيفين سبيسى. كان قد استأجر فى وقت سابق من ذاك العام، فى مهرجان كان السينمائى، يختاً طوله ٣٠٠ قدم وأقام حفلاً مختلطاً بين نجومات اتحاد التنس النسائى ونخبة هوليوود وفى ذلك قال:

"إذا كنت أدفع لأحد النجوم ١٨ مليون دولار ليظهر فى أحد أفلامى، لا أظننى أثقل عليه إذا طلبت منه حضور بضع مباريات لاتحاد التنس النسائى".

ومن خلال علاقاته مع مردوخ، استطاع ميلتشان تأمين عقود بث حول العالم لاتحاد التنس النسائى. وأحدثت إدارته لاتحاد التنس النسائى تغييراً

جذبياً في التنس النسائي وارتقت به بشكل مذهل. دُعيت نجمات شابلات مثل مارتينا هينغز وأنا كورنيكوف والشقيقتين ويليامز للظهور على أغلفة مجلات حول العالم، كرموز الجنس الجديدة لتلك الحقبة. وكانت نتيجة ذلك أن نجمات اتحاد التنس النسائي كن يتفوقن غالباً على أقرانهن الذكور في سباق معدلات المشاهدة التليفزيونية العالمية.

كان ميلتشان يتواصل مع التنس النسائي بنفس الطريقة التي كان يتواصل بها مع إنتاج الأفلام، حيث كان تركيزه على السيناريو وطاقم الشخصيات. وكانت اللعابات المتألفات ترتدين أرقى تصميمات الأزياء، يشع منها مستوى معين من الجاذبية الجنسية، وكانت الكاميرات التي تغطي المباريات عادة ما تركز على المشاهير من المتفرجين، مثل ليوناردو دي كابريو ويرات بيت، وهم يشجعون لاعباتهم المفضلات. وكان الهدف من المشهد برمته هو إظهار تألق التنس النسائي وإثارته. ونجح هذا، حيث يعد التنس النسائي قصة نجاح عالمية ويعود الفضل في ذلك بشكل كبير لميلتشان.

لكن علاقته بقائمة طويلة من مشاهير هوليوود تتجاوز بكثير دعواتهم لحضور دورات التنس الخاصة به، وفي أحيان كثيرة أصبحت تلك علاقات شخصية لحد كبير. وفي عام ١٩٨٤، استضاف باربرا سترایساند في إسرائيل لافتتاح فيلمها "ينتل". ومع أن ميلتشان ينكر ذلك، لكن الخبر ظل محل تداول لأعوام في دائرة صغيرة من خاصة هوليوود، وكما أكدت لنا إيتي كاتر مساعدة ميلتشان منذ ٢٠ عاماً، أنه وسترایساند كانا أكثر من مجرد صديقين، وقدمها لشمعون بيريز، والذي استخلص منها تبرعاً قيمته ٢٥ ألف دولار لحزب العمال، وقدمها لرئيس الوزراء آنذاك إسحاق شامير، والذي لم يكن يعرف من هي. وعندما أخبره ميلتشان أنها تعمل في مجال الغناء

والتمثيل، كان رده "وهل تستطيع أن تتكسب رزقها من هذا؟"، وبعد ١٣ عاماً، تعاون ميلتشان وسترايساند في إنتاج فيلم "المرأة لها وجهان".

وبالإضافة لعلاقاته الواسعة، عُرف عن ميلتشان أيضاً أنه يقوم بدور الخاطبة في مواقع تصوير أفلامه، إذ قدم ووبي غولديبرغ إلى تيد دانسون في موقع تصوير فيلم "صنّع في أمريكا". وأصبحت أشهر زوجين مختلطي الأعراق في هوليوود آنذاك. كما قدّم "بين أفليك" و "جنيفر غارنر" لبعضهما أثناء تصوير فيلم "ديرديفيل".

قابل أنجلينا جولي أثناء تصوير فيلم "إنجاز المهام" في ١٩٩٩، وعرفها على زوجها المستقبلي بيلي بوب ثورنغتون. وبعد ٦ أعوام اختار جولي لفيلم مستر أند مسيز سميث مع براد بيت، وهي قصة عن زوجين يفاجآن باكتشاف أن كليهما قاتل محترف تم استنجاارهما من قبل وكالتين متنافستين لقتل أحدهما الآخر.

في البداية، تم اختيار نيكول كيدمان أمام بيت، لكن لم يحدث أي انسجام بينهما وترك بيت الفيلم. فاختر ميلتشان بعد ذلك جوني ديب، ولاحقاً ويل سميث، مع كاترين زيتا جونز، لكن مجدداً، لم يحدث بينهما انسجام. وعندما سمع بيت أن ميلتشان يفكر في اختيار أنجلينا جولي، هرع للعودة للفيلم.

عُرف ميلتشان بيت على جولي واستشعر في الحال شرارة الغرام تقدرح بينهما، وليس في مجال التمثيل فحسب. وأعقب ذلك علاقة غرامية ملتبهة، لكن كانت هناك مشكلة صغيرة. بالرغم من أن جولي كانت في سبيلها للتعافي من انفصالها مؤخراً عن زوجها بيلي بوب ثورنغتون والذي كان قد استمر لثلاثة أعوام، كان بيت متزوجاً من محبوبية أمريكا الممثلة جنيفر أنيستون. في البداية

أنكر بيت وجولى العلاقة الغرامية، لكن عندما طردته أنيستون من المنزل، انتشرت الأخبار بشكل محموم وأخذ المصورون يحومون حوله كالضباع حول فريستها، وأخبرنا ميلتشان:

"عندما سمعت أن براد ترك المنزل ويبحث عن فندق، عرضت عليه الإقامة فى منزلى فى مالىبو، إذ ظننت أن هذا سيمنحه المزيد من الأمان والخصوصية. وكان يذهب إلى موقع التصوير، وكل مكان آخر، على دراجة بخارية، وارتدى خوذة رأس ذات غطاء داكن حتى لا يتعرف عليه أحد. كان يتوقف فى مرأبى فى شارع متفرع من طريق باسيفيك كوست السريع، ويستخدم جهاز فتح باب المرأب، ويغلقه وراءه قبل أن يخلع الخوذة. هكذا غافلنا المصورين المرتزقة، وتمكن براد من الحفاظ على هدوئه. كنا نمارس لعبة تنس الطاولة، وهو لاعب رائع. ومن الناحية المهنية، أرى أن براد بيت وويل سميث هما أكثر ممثلين يمكن التوافق معهما بسهولة، كما أن العمل معهما ممتع".

ولا يجد ميلتشان مشكلة فى نشوء العلاقات العاطفية فى موقع التصوير ويرى تلك الظاهرة كفرصة للعلاقات العامة ويقول "دعنا نصف الأمر بهذه الطريقة، إن كانت العلاقة مشبوبة، غالباً ما يكون الرجل مثيراً ومتزوجاً، والفتاة مثيرة ومتزوجة أيضاً! يصوران معاً الكثير من المشاهد الساخنة، وينكران العلاقة، فيثير ذلك فضول المصورين، إذن فهى دعاية مجانية".

وكان منزل ميلتشان فى مالىبو هو المنزل الذى قضى فيه السيناتور روبرت كنيدي ليلته قبل أن يتم اغتياله فى فندق أمباسادور. وكان كنيدي قد قضى يومه فى السباحة، والجلوس تحت أشعة الشمس، والتحدث مع أصدقائه،

والنوم، وأصبح مسترخياً للغاية لحد أنه فكر في عدم حضور حفل ليلة الانتخابات، واقترح أن يشاهد هو وعائلته وأصدقائه النتائج الأولية على التلفزيون. وأراد دعوة الإعلام لينضم إليهم، لكن لأن الشبكات التلفزيونية رفضت نقل معداتها إلى مالبو، وافق كنيدي بعد تردد على الذهاب إلى فندق أمباسادور بدلاً من ذلك، حيث أطلق عليه الرصاص المهاجر الفلسطيني سرحان بشاره سرحان.

بمرور الوقت بدأ ميلتشان يدير نيو ريجينسي أثنى مشاريعه، بأسلوب عائلي.

ذات يوم في ١٩٩٥، اتصل ميلتشان بديفيد ماتالون صديق طفولته ومؤسس شركة ترايستار بيكتشرز، ليعرض عليه إحدى الأفكار. وكان ميلتشان قد حدد اجتماعاً بعد ذلك بفترة وجيزة مع ستيف روثر رئيس مجلس إدارة شركة نيو ريجينسي، وكان كلما تقابلا يطلب روثر علاوة، تتبعها إنذارات. وكان ميلتشان قد سنم هذا وكان عازماً على فصل روثر إذا فعل ذلك مجدداً. سأل ماتالون ما إن كان مستعداً ليحل محل روثر إذا قام بفصله، مؤكداً له أن هذا سيكون لبضعة أشهر حتى يجد له بديلاً دائماً.

وكان ماتالون يفكر في اعتزال العمل السينمائي كلياً ليذهب في إجازة مفتوحة لكنه قال إنه سيفكر في الأمر، وفقاً لما سيحدث مع روثر.

وبعد بضعة أيام قابل ميلتشان روثر، وكما كان متوقعاً، انهال بالطلبات بشكل مستفز على رئيسه. ففصله ميلتشان في الحال، ودخل ماتالون ليحل محله. لكن ميلتشان لم يكن في عجلة من أمره، ومرت ١٢ عاماً قبل أن يتمكن ماتالون من العودة لإجازته أخيراً.

وتدرجياً، بعد عام ٢٠٠٠، بدأ أرنون يعين أبناءه في مواقع هامة في نيو ريجينسى. كان ياريف وأختاه ألكساندرا وإليانور، قد تربوا في مدارس داخلية وتشبعوا بجرعة هائلة من الثقافة الفرنسية، لكن عندما نضجوا تعرفوا على عالم واسع للغاية بفضل الأسفار المنتظمة بصحبة والدهم إلى مختلف أنحاء العالم. كانوا يقضون شهراً على الأقل في إسرائيل كل عام وتربوا على حقيقة أنهم أعضاء في القبيلة! بكل ما يُضمّر ذلك من دلالات تاريخية ومسئوليات.

تقول ألكساندرا في حديث لها، "كنت في طور نشأتي، أقرأ أن والدي تاجر أسلحة، وأنه يعمل في الموساد، وأنه منتج أفلام، كنا نريد أن نقضى مزيداً من الوقت معه. لكننا، عندما كبرنا، توصلنا لحقيقة بالنسبة لأبي، هي أن الجودة هي ما يهم، وليس الكمية. وفهمنا أن حياتنا المرفهة خارج باريس كانت أفضل هدية كان بإمكانه أن يقدمها لنا. ما أحبه فيه هو أن قدميه راسختان بقوة وأنه حقيقي للغاية" أدلت ابنته بهذا في مقابلة مع مجلة لوس أنجلوس ماغازين في أبريل ٢٠٠٠ أجرتها معها آن لويس بارداتش.

بدأ ياريف ابن أرنون مسيرته المهنية موزعاً حصرياً لسلع وورنر براذرز في إسرائيل، وكان يدير عمله من مكاتب ميلتشان بروس. ثم عمل كمصور للأزياء وللمشاهير. ومن بين مشاريع أخرى، قدم مجموعة من الصور الفريدة الكاشفة المثيرة لأنجلينا جولى استرعت انتباه الكثيرين وتعجبهم. ومذاك انضم لشركة نيو ريجينسى كمدير تنفيذي فيما لا يزال يمارس هواية التصوير.

ألكساندرا هي ابنة أبيها وتملك -من بين أبناء ميلتشان- الشخصية التي

يعتبرها الكثيرون مشابهة لشخصيته. بدأت علاقتها بشركة نيو ريجينسى بفيلم هيت فى ١٩٩٥ كمنسقة مساعدة فى القسم الفنى. وبمرور السنين أصبحت معنية أكثر بالإدارة اليومية للشركة. وفى ١٩٩٨ أنتجت فيلمها الأول - "وداعاً أيها الحبيب"، والذي فشل مادياً لكنه أضاف إلى خبرتها. تقول ألكساندرا "أكثر ما أفخر به هو أن والدى لم يتصل ليتوسط لى أبدأ، أذكر ذات يوم أن مايكل دوغلاس قال لى إن الأمر سيكون أكثر صعوبة بالنسبة لى بما يفوق أى شخص، وهو محق. إنها ليست صناعة يُرحَّب فيها بالأبناء، وبصفة مايكل ابن كيرك دوغلاس فهو أدرى بذلك".

تزوجت ألكساندرا من سكوت لامبرت وهو وكيل أعمال ويليام موريس السابق.

أما إليانور فشخصية مستقلة. بعد فترة عمل وجيزة فى نيو ريجينسى أصبحت مصورة فنية وتقيم فى سوهو، نيويورك. تقول "والدى هو صديقى المفضل. ورثت عنه حماسه، وتركيزه على أهدافه، وميله لاتباع حدسه. وأخبرنى أننى لا يمكن أن أخطئ بمثل تلك الرؤية. وكان محقاً".

فى التسعينيات، أنتجت إليانور фильماً وثائقياً متميزاً اسمه "تودو كامبيا" يصف سلسلة من ثلاثة أجيال لعائلة من الفنانين فى كوبا فى عهد كاسترو. ولا تزال صورها تزين حوائط المكاتب التنفيذية بدءاً من شركة تونتييث سينشرى فوكس وحتى الشاشات العملاقة فى ميدان تايم سكوير.

وفى نوفمبر ٢٠٠٨، تزوجت بأوديد باراك، وهو شريك فى شركة غولدمان ساكس وابن عالم فيزياء نووية إسرائيلى، فى حفل زفاف متواضع فى تل أبيب.

وفى ٢٠٠٢، أخذت علاقة أرنون بمساعدته السابقة شونا بيل بعداً جديداً عندما أنجبت طفله الرابع وابنته الثالثة مايان. ويقول أرنون وهو مفعم بالمشاعر "مايان تشعر بك أنك أصغر سناً، قضينا الكثير من الأوقات السعيدة معاً". تعيش بيل ومايان بأسلوب مرفه فى منزل مستقل فى مالىبو، ويحتفظ أرنون بعلاقة وطيدة مع ابنته الصغرى، وبعلاقة صداقة قوية مع والدتها.

منذ حادثة عهده ظل لدى ميلتشان شغف بالشئون السياسية الإسرائيلية، وبالرغم من مشاغله العالمية، فقد سعى دوماً للتأثير على مسار الأحداث التاريخية فى الشرق الأوسط من وراء الكواليس.

وفى ٢٠٠٥، ترك أرييل شارون رئيس الوزراء حزبه الليكود، والذى ساعد على إنشائه فى منتصف السبعينيات، وأسس حزباً جديداً أكثر وسطية يدعى كاديما، والذى انتوى قيادته فى الانتخابات التالية بصفته مرشحه لمنصب رئيس الوزراء.

من ناحية أخرى، كان شمعون بيريز، رجل الدولة الأعلى منزلة فى حزب العمال، والذى كان يمثل المعارضة آنذاك. كان شارون اليميني وبيريز اليسارى غريمين أيديولوجيين لعقود وقامت علاقتهما الشخصية على العداوة، لكن ميلتشان ارتأى أنه إن استطاع المصالحة بين صديقه المقرب بيريز وبين شارون، فإن مجريات السياسة الإسرائيلية ستشهد تغيراً جذرياً.

وخلال ساعات من إعلان شارون، كان ميلتشان على الهاتف يضغط على كل من بيريز وشارون، أكثر شخصيتين سياسيتين مهيمنتين، ليتحالفا. لكن بيريز أصر قائلاً "ليس لدى نية للاتصال به". فأجابه ميلتشان "أنا قادم".

وعقب ذلك بفترة وجيزة، كان ميلتشان يجلس مع بيريز فى منزله محاولاً

إقناعه بأن الحزب الوسطى سيعكس بشكل أعمق الوحدة الوطنية. لم يستطع بيريز الذى عاش حياته بأكملها فى المعسكر الليبرالى فى السياسة الإسرائيلية.. تخيل نفسه متحالفاً مع شارون، المعروف باسم البلدوزر ومؤسس المعسكر القومى الحديث.

وإذ تذكر لحظة الحسم عندما واجه موقفاً مشابهاً بين روبرت مردوخ وكيرى باكر، رفع ميلتشان سماعة الهاتف فى مزرعته فى جنوب إسرائيل بينما كان بيريز ينظر إليه، وهو غير متأكد مما سيفعله ميلتشان.

عندما أجاب شارون الهاتف، قال ميلتشان "سيدى رئيس الوزراء، يوجد شخص هنا يحتاج للحديث معك". ثم أعطى الهاتف لصديقه المذهول.

عندما أدرك شارون أن بيريز كان على الهاتف فى الطرف الآخر، رقق صوته فى الحال وبدأ، على غير عادته، بالاعتذار عن تصريحاته المسيئة له أثناء المناظرات العامة الأخيرة. لم يشعر بيريز المخضرم، والسياسى المحنك، بالإساءة، ومضى الاثنان يتحدثان بتهذيب، بينما كان ميلتشان يجلس جانباً يستمع لهما فى رضا.

ومع نهاية المكالمة، قدم شارون دعوة عامة لبيريز لينضم لحزب كاديما ليحرك إسرائيل فى اتجاه آخر. وفى الأيام التالية استقبل ميلتشان روفين أدلر كبير المستشارين السياسيين لكل من بيريز وشارون فى سقيفته فى هرتسليا بيتوح المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وأثناء الاجتماع فاجأ بيريز أدلر عندما أبلغه أنه غير مهتم بالحفاظ على مقعده فى الكنيسيت، وأنه يريد إنشاء وكالة حكومية جديدة للترويج لعملية السلام وتطوير صحراء النقب ومنطقة الجليل. وأضاف "لا نريد أن نهدر مقعداً خاصاً أحتله فى الكنيسيت".

وقبل أن يبدي شارون موافقته، أمر ميلتشان محاميه بصياغة الاتفاق بين الطرفين.

وقضى ميلتشان وبيريز الأسبوع بأكمله معاً. وسافرا إلى برشلونة في طائرة ميلتشان الخاصة لحضور مباراة ودية دعائية لكرة القدم بين فريقى إف سى برشلونة وفريق إسرائيلى / فلسطينى مشترك للترويج للسلام فى أكبر مدرج فى أوروبا. نظم ميلتشان الحدث بأكمله، فى الأغلب على شرف بيريز، وتم تنفيذه مثل حدث هوليوودى ضخيم. وحضر المباراة شخصيات مشهورة مثل نجم كرة القدم رونالدinho والممثل شون كونرى، وشخصيات سياسية مثل بيل كلينتون وملك إسبانيا خوان كارلوس الأول.

انبهر بيريز، واستخدم ميلتشان تأثيره على العديد من القادة ليقترحوا على بيريز أن يشاركته أمراً لا غنى عنه، وأنه يجب أن يظل شخصية فاعلة على مسرح عمليات الشرق الأوسط. ونجح فى ذلك، وفى برشلونة اتخذ بيريز قراره النهائى، وهو التحالف مع أرييل شارون.

فاز حزب كاديما بالانتخابات، وتم تعيين بيريز نائباً لرئيس الوزراء، وتم تحقيق كل مطالبه. لكن كما فى مغامرته فى حزب رافى قبل أعوام، لم يتحقق حلمه فعلاً. حيث تعرض شارون لعدد من الجلطات الدماغية وفقد قدراته وأصيب بالشلل التام. وأصبح صديق آخر لميلتشان، أو الرجل الذى اختار اسم فيلمه "امرأة جميلة"، أى إيهود أولمرت رئيساً للوزراء بدلاً منه.

ثم تبع ذلك تغيير درامى فى الأحداث. تورط رئيس إسرائيل الشرفى موشيه كاتساف، فى فضيحة جنسية غير مسبوقة تتضمن تقديم العديد من الموظفين بلاغات ضده بأنه فرض نفسه عليهن بالقوة. وسرعان ما أصبح

الموقف لا يحتمل. وإذا أدرك أن استقالة الرئيس باتت وشيكة، حاول ميلتشان استغلال الموقف بأقصى سرعة ممكنة، وغدا يحوم في الكواليس لاستبدال الرئيس بصديقه القديم ومعلمه شمعون بيريز. وعندما استقال كاتساف أخيراً، كان ميلتشان قد دبر الدعم الكافي لبيريز ليحل محله كرئيس للبلاد.

وُضع اسم بيريز ضمن المرشحين. لم يُكوّن جماعات ضاغطة ولا حملات، ولم يشتر الإعلام. بل فعل شيئاً واحداً فحسب، وهو أن اعتمد على صديقه ميلتشان لتحقيق بغيته، وبعد ذلك بفترة وجيزة، تم عد الأصوات في الكنيست وأصبح شمعون بيريز الرئيس التاسع لإسرائيل.

كان أول خطاب رسمي كتبه الرئيس الجديد هو خطاب شكر لصديقه القديم ميلتشان، والذي لازمه في السراء والضراء، ليصل به إلى ذلك اليوم.

فيما يقضى ميلتشان كثيراً من وقته في أحد منازل في إسرائيل، ويعمل وراء الكواليس للدفع بالنظام السياسي المعقد لبلده، نجده أيضاً بمثابة القنصل العام الإسرائيلي الفعلي في الساحل الغربي للولايات المتحدة. عندما تصل شخصية هامة إسرائيلية إلى هوليوود، يستقبلها ميلتشان في الأغلب في منزله، ووفقاً لمكانة الضيف، يمكن أن ينظم حفل استقبال فاخراً ويدعو فيه صفوة من يعملون في مجال صناعة الترفيه.

ويعتبر أرنون أيضاً المضيف الأول لنخبة هوليوود عندما يزورون إسرائيل، عادة بمبادرة منه. حيث تُعتبر توجيه دعوة من ميلتشان لزيارة إسرائيل دليلاً على النجاح في هوليوود. ولا تلقى هذه الرحلات دعابة إعلانية صاخبة لكنها تكون فاخرة ومسرفة إلى أقصى حد، وهي فاعلة للغاية أيضاً فيما يتعلق بجهود العلاقات العامة الإسرائيلية.

وفى عملية روتينية خاصة بميلتشان، وصل ريتشارد جير وتيرى سيميل وباربرا والترز إلى إسرائيل فى زيارة خاطفة لثلاثة أيام فى عام ٢٠٠٥، بدعوة منه. واستقلوا المروحيات والطائرات الخاصة، وجاءت الشخصيات الثلاثة الهامة البلد بأكمله أثناء النهار، وزاروا مواقع تاريخية واستراتيجية هامة فى الأرض المقدسة، من إيلات إلى خليج العقبة جنوب مضبة الجولان فى الشمال، وكل ما يقع بينهما.

وأثناء الإفطار والغداء والعشاء، شربوا وأكلوا، وأطلعهم الخبراء العسكريون والجنرالات وقادة الصناعة، وكبار قيادات الدولة، بمن فيهم وزير المالية آنذاك بنيامين نتنياهو ورئيس الوزراء آنذاك شارون، على المستجدات. ولم تكن رحلتهم غير معتادة.

ومثل كل من سبقوهم أو تلوهم، رحلوا ولديهم تفهم واضح لموقف إسرائيل الاستراتيجى.

أما من حيث النساء، يظل أرنون ولداً شقياً تم تهذيبه. فى سن التاسعة والعشرين، كان مطلقاً ولديه ثلاثة أطفال. وبعد العارضة الفرنسية بريجيت غونمير، والمثلة الأمريكية إليزابيث مكفايرن، والنساء السويديات الغامضات أولاً وأوليرىكا وأسى ثاستروم، وشونا بيل، قابل أرنون حبه الأخير والوحيد، نجمة التنس جنوب الإفريقية أماندا كويتزر. ويصفته مالكاً لحقوق البث لاتحاد التنس النسائى ومن كبار معجبيها، لم يكن مفاجئاً أن اكتشف أرنون زوجته الثانية التى تصغره بـ ٢٧ عاماً فى عالم التنس.

اعتبرت كويتزر المولودة عام ١٩٧١، اللاعبة الأصغر حجماً فى تنس المحترفين بسبب قياساتها الصغيرة، فهى بالكاد تتجاوز الخمسة أقدام طولاً،

ويبلغ وزنها حوالى ٥٤ كيلو جراماً. ومن بين الألقاب التى اكتسبتها على مر السنين كانت القاتلة الصغيرة والمصارعة الصغيرة لقدرتها الهائلة على هزيمة منافسات لها فى الملعب يفقنها بمراحل حجماً وقوة، مثل شتيفى غراف وليندزى دافنبورت. وما بين عامى ١٩٩٢ و٢٠١١، تم تصنيفها سنوياً ضمن أفضل ٢٠ لاعبة فى العالم، وحلت كالمصنفة الثالثة عام ١٩٩٧ فى أفضل تصنيف لها. وكانت موضع شائعات صحف الفضائح بسبب علاقاتها الغرامية الطويلة بنجم البيسبول الأمريكى بريدى أندرسون، والذى كان يلعب لفرق بوسطن ريد سوكس، وبالتيمور أوريوليز، وكليفلاند إنديانز.

بدأت كويتزر تلعب التنس وهى فى السادسة من عمرها وتركت المدرسة وهى فى الرابعة عشرة لتبدأ مسيرة ناجحة كلاعبة تنس محترفة، جنت منها ما يتجاوز ٥٥ مليون دولار، وملايين الدولارات من صفقات الدعاية لمنتجات نايكى وفيرارى وبى إم دبليو، وشركات أخرى. ولأنها ثرية بشكل مستقل، فمن الواضح أنها لم تتزوج حباً فى المال، يقول ميلتشان:

”تطورت صداقتنا ببطء. وكنا نتحدث عن جنوب إفريقيا والفصل العنصرى. وأصبحنا أكثر قرباً عندما دعوتها على العشاء أثناء بطولة أستراليا المفتوحة وتحدثنا عن فيلم جيه إف كيه، والتى لم تكن قد شاهدته، لكنها أبدت اهتماماً كبيراً به.

”فى اليوم التالى، أرسلت لها دى فى دى الفيلم، وتحدثنا عنه على الهاتف، وهى محادثات استمرت لأربعة أشهر وتناولت مواضيع عدة. وكان لقائنا التالى فى بطولة إنديان ويلز فى بالم سبرينغز. كانت تلك عملية تدريجية. فى النهاية وجدت نفسى مجدداً فى بطولة أستراليا المفتوحة أشجعها بصوت عالٍ،

ربما أعلى مما يجب. وضايقها سلوكي الصاخب، ووقعتُ أنا في الحب".

تزوجا في هدوء عام ٢٠٠٤. وكان ميلتشان يستعد لإعادة اكتشاف نفسه مجدداً. في صحبتها وهو في الـ ٦٠ من عمره، وعدها بأن يكون صالحاً، وليس عابثاً كما يصفه بيريز مازحاً.

وفي أغسطس ٢٠٠٧، استقبلت أماندا وأرنون ابنهما الجديد شمعون، والذي أسماه على اسم معلمه القديم شمعون بيريز.

الوثاب

أرنون أنكى من أن يبدد حياته فى التشاؤم.

الرئيس الإسرائيلى شمعون بيريز

يكاد يكون من المستحيل أن نتتبع كل صفقة جنونية كان ميلتشان طرفاً فيها، أو أنشطة كذلك التى يقوم بها دايفيد رايس فى فيلم "الوثاب" تلك الأنشطة التى جاب من أجلها العالم بأكمله. نجد له يداً فى كل شيء، الشراء والبيع، المساومة وانتهاز الفرص دونما توقف تقريباً، إنه لا يتعب قط ولا يرضى أبداً، وكما يقول هو:

حاولت أن أفهم لم أبلغ الرضا يوماً أو أحقق السلام الداخلى. لم أبلغ المرحلة التى أقول فيها حسناً، الآن لدى ما يكفينى. ولم لم يحطمنى أى فشل، ولم أشعر بعد كل نجاح كبير بالاكتئاب وبالقلق، ولم لا أستطيع النوم بدون الحبوب المنومة. ووصلت أخيراً إلى أننى أحاول إيقاف مرور الوقت، وأن هذا مستحيل.

فهمت أننى حاولت دوماً أن أكون محل إعجاب، بل وحتى موضع حب الناس كلهم، وفهمت أن هذا أيضاً مستحيل. فهمت أننى أهدرت الكثير من طاقتى محاولاً تحقيق المستحيل، حتى وجدت نفسى أبدد فرص الاستمتاع بمباهج الحياة.

ولأننى سعيت دائماً وراء الكمال، فقد ظلت دائماً عرضة للإحباط. كان كل فشل طويلاً ومريراً، وكل نجاح قصير العمر.

وفى اللحظة التى تصالحت فيها مع حدودى، اقتنعت ببساطة أننى غير قادر

على التواجد في كل مكان في ذات الوقت. منحني هذا السلام، وقدرة التركيز على عائلتي، والعمل على إسعاد القريبين مني."

ما زال لديه في مجال البيزنس غريزة غريبة لمعرفة متى ينضم إلى عمل ما أو متى ينسحب منه. كان قد اشترى شركة الملابس الرياضية المتعثرة "بوما" وهي في أسوأ حالاتها، مقابل ٢٥٠ مليون دولار، وروج لها بشغف حتى صارت ناجحة في النهاية، وتخلّى عنها بلا أدنى عاطفة وهي في قمة نجاحها مقابل ٦٥٠ مليون دولار.

منذ عام ٢٠٠٤ وهو يتقدم باستمرار في قائمة فوربس لأثري أثرياء العالم. لكن محرري مجلة فوربس يعرفون قطعاً أنه لا توجد أية إمكانية لتقدير ثروته الحقيقية بشكل دقيق. إذ إن ميلتشان لديه ممتلكات منتشرة في كل أنحاء العالم، وأرصدة في عشرات البنوك، يمكن أن تتجاوز بكثير أصوله الواضحة.

كيف يمكن لمجلة فوربس تقدير قيمة مشروع زراعى ضخم فى كازاخستان، وهو ضمن صفقات ميلتشان العديدة عبر العديد من شركاته الأجنبية الفرعية؟ الأرجح أنهم ليس لديهم أى دراية به.

ومنذ عام ٢٠٠٠ وجريدة لوس أنجلوس بيزنس جورنال تقيم ميلتشان سنوياً على أنه بين أغنى ٥٠ شخصاً يقطنون لوس أنجلوس. وهم يبنون تقديراتهم على صفقاته فى هوليوود وحدها، بالرغم من أنه ليس من سكان لوس أنجلوس المقيمين، حيث يقضى بضعة أشهر فحسب كل عام. ويقدر موقع الإنترنت بوكس أوفيس موجو أنه منذ فيلمه ذا كينغ أوف كوميدى أو ملك الكوميديا والذي عرض لأول مرة فى فبراير ١٩٨٣، وحتى فيلم هذا هو حظى، والذي عرض لأول مرة فى مايو ٢٠٠٦، أنتج ميلتشان ٨١ фильماً بإجمالى أرباح من شباك التذاكر يقدر به ٢٧٥ مليار دولار فى الولايات المتحدة و٥٠ مليار دولار عالمياً على الأقل.

ليس لدى ميلتشان نية للتقاعد، بالرغم من أنه بلغ سنّاً يبدأ معظم الناس فى التفكير فى التقاعد فيه. وبدلاً من ذلك، فهو يعيد اكتشاف نفسه مجدداً. وفى ٢٠٠٧ أسس مجموعة استثمارية جديدة أسماها ميوز جروب، والتي سيطرت على شركة مريديان، وهى شركة متطورة غير معروفة لتصنيع الصوتيات والمرئيات فى إنجلترا. وخلال أشهر تم بيع نظام مريديان إلى ستيف وين وتم تركيبه فى كل غرف منتجعه الضخم وملهاه المسمى وين فى طريق لاس فيغاس الشهير. وفجأة، أصبحت مريديان علامة تجارية عالمية فاخرة. وفى إسرائيل، استثمر ميلتشان فى أدرين، وهى شركة لإيجاد حلول للطاقة صديقة البيئة ذات مكانة مرموقة فى استغلال موجة تكنولوجيا الطاقة صديقة البيئة.

وفى ٢٥ أبريل ٢٠٠٧، جاب ميلتشان منشأة المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية،

حيث ينتظر من تجارب أطلس فتح آفاق جديدة لاكتشاف المادة والطاقة والفضاء والوقت. وتلك هي أكثر التجارب طموحاً علمياً في التاريخ الإنساني.

سيتصادم مليار بروتون عالي الطاقة كل ثانية داخل كاشف أطلس على الحدود الفرنسية السويسرية، والذي وُضِعَ على عمق ٢٠٠ قدم تحت الأرض في كهف مكون من عشرة طوابق. سيقوم أكثر من ٢٥٠٠ عالم من ٢٥ بلداً، بما فيها معهد وايزمان في إسرائيل بتحليل تلك البيانات بحثاً عن إشارات متناهية الصغر يمكن أن تجيب عن بعض أكثر الأسئلة الإنسانية تعقيداً. إن ميلتشان يعتزم أن يكون في صدارة من يستغلونها في اللحظة التي تنتج أطلس تكنولوجيات جديدة يتوفر لها فرص تجارية.

وبالإضافة لكل المشاريع الجانبية، اشترى ميلتشان أسهم كبرى باكر صديقه وشريكه في نيوريجينسي في صيف ٢٠٠٨، ليصبح صاحب أغلبية الأسهم والمهيمن على مقاليد الأمور في الشركة.

في ذات العام، ولأول مرة في حياته، وافق ميلتشان على تلقي جائزة، لتكريمه في مناسبة العيد الـ ٦٠ لقيام إسرائيل. ولم يُقَمَّ الاحتفال في إسرائيل، لكن في استوديوهات باراماونت في هوليوود. ومن ضمن ٧٤٠ مدعو من الحضور كان هناك مشاهير مثل أنيت بينينغ وسيرينا ويليامز وأنتونيو فيلاريغوسا عمدة لوس أنجلوس. وحضر أيضاً رؤساء بعض الاستوديوهات مثل أيمي باسكال من سوني، وبيتر تشيرنين من تونتيت سينشري فوكس، وسامر ريدستون من باراماونت.

لم تخذله غريزته في التوجه لمزيد من المشروعات وخاصة مع تدهور الاقتصاد العالمي. إذ باع ممتلكاته العقارية مثل مساكنه في لندن وموناكو ونيويورك قبل فترة وجيزة من تدهور الاقتصاد. وحول المال إلى عملات أجنبية، مراهنأً ضد قيمة

الدولار، وتحوط على ممتلكات أخرى في آخر لحظة. لكنه لم يكن محصناً كلياً، إذ خسر أكثر من ١٨ مليون دولار في مشروع بونزى الذى كان يديره برنارد مادوف.

لا يجرؤ، ميلتشان الآن وقد أصبح الأكبر سناً والأكثر حكمة، على الدخول فى مغامرة مثل فيلم وانس أبون أتايم إن أمريكا أو كان ياما كان فى أمريكا. وغيرها من الأعمال التى اقتضت الجنون، والالتزام التام، والشجاعة، واتباع مخرج عبقرى مصاب بجنون العظمة، و١١ شهراً من التصوير، وأكثر من ١٥٠ شخصية لها أدوار حوارية، واستئجار قطار أوربينت إكسبريس من أجل لقطة واحدة، والسفر سريعاً من باريس إلى فينيسيا من أجل مشهد واحد، والاختيار الدقيق لكل ملابس، وكل هذا العمل ليشهد فى النهاية خيبة الأمل العميقة فى ردة فعل الجمهور الأمريكى. ومع ذلك، وحتى يومنا هذا، لا يزال ميلتشان الخيار الأول لأى كاتب سيناريو أو مخرج غير تقليدى يبحث عن منتج مجنون بما يكفى ليدرس مشروعه الخارج عن المألوف.

تعد الدراما التاريخية الضخمة بعنوان "١٠٦٦" أكبر مخاطرة فى هوليوود حالياً، حيث من المقرر عرضها فى العام المقبل أو الذى يليه. إنه مشروع يمكنه أن يُسقط أى استوديو، لكنه فيلم أيضاً يمكنه أن يحقق أرباحاً طائلة إن نجح. وبالتعاون مع إليزابيث مردوخ ابنة مردوخ، فمن المرجح أن ينتج ميلتشان تلك الدراما التاريخية التى تصف معركة هيستينغس، حيث تلاقى الجيش النورماندى بقائده ويليام الفاتح، والجيش الإنجليزى وقائده الملك هارولد غودوينسون فى ميدان المعركة، فى معركة أثرت نتيجتها على التاريخ الإنجليزى لآلاف عام تالية.

تم تطوير مكاتب الشركة المؤسسة التى بدأ منها كل شىء أى ميلتشان بروس، فى ٢٠٠٥. تم فتح الأروقة الرمادية المؤدية لأجنحة مكاتب كنيبة لتصبح منطقة

عمل عصرية شاسعة، ذات أثاثات على أحدث الصيحات من لو كوربوسير ومناضد خشبية إيطالية راقية. وزينت الجدران بصور انسيابية منسقة للبحر المتوسط من تصوير إيلانور ميلتشان. لكن المصممين قرروا أن يتركوا الجوائز والأوسمة التي تغطي الحوائط الضخمة لقاعة المؤتمرات الجديدة في أماكنها.

وبمرور الوقت، فقد ميلتشان اهتمامه بشركة ميلتشان بروس، والتي كان يديرها صديق طفولته يوسى جيفا، وهو رجل خدم في الجيش مع أرنون منذ أعوام كثيرة، ويدرك أهمية السرية والتكتم. وتحت إشراف جيفا توسعت ميلتشان بروس متجاوزة مناطق نشاطها التقليدية إلى مشاريع مثل عمليات الطباعة بالشراكة مع عائلة عربية عريقة، وشراكة في أكبر شركة لتصدير السيارات في إسرائيل.

وفي ٢٠٠٨، باع ميلتشان شركة ميلتشان بروس إلى عميل سابق في الموساد اسمه يوسى ميمان. وفيما كان يوقع عقد البيع، فكر طويلاً وملياً في جده حاييم إيلعازر ووالده دوف، اللذين وضعوا الأساس بمشروع أسمدة صغير لشركة ميلتشان بروس ولكل ما أصبح ميلتشان في الحياة تقريباً. وكان لميلتشان شرط وحيد في عملية البيع: أن تظل صورة جده، ووالده، وصورته، معلقة في بهو الشركة للأبد. فالمال، ليس كل ما في الحياة!

بدأ جد ميلتشان حياته كشخص بالغ في مدينة روفوفوت الصغيرة، وكانت محل الميلاد المستقبلي لصبي صغير اسمه أرنون. ونثر بذور كرمته بيديه، وتولاها بالعناية والعطف، وراقبها، هو وكل أبناء القرية الصغيرة من حوله، وهي تنمو وتثمر بالفاكهة. وكان الغرض من ثمرة جهده صناعة النبيذ الذي يجلب البهجة للآخرين.

ومع بزوغ الألفية الجديدة، اشترى ميلتشان كرمة متواضعة وبني مصنع نبيذ صغيراً أسماه خوناتا، في الناحية الأخرى من العالم، بالقرب من مدينة سانتا ينز

الصغيرة، بكاليفورنيا، على بعد حوالى نصف ساعة بالسيارة من مقطورة ريتشارد كيلى سميث فى لومويك.

ولم يتكبد ميلتشان الصعوبات البدنية اليومية لغرس كرمة العنب ورعايتها كما فعل جده قبل قرن تقريباً. لكنه تعلم الصبر المطلوب كى يستطيع المرء تنوq ثمار حصاده. ومرت ٦ أعوام قبل أن يرتشف أخيراً كأساً من نبيذه الخاص الفاخر.

ومن بين إنجازاته العديدة، فازت أفلام ميلتشان بالعديد من الجوائز والتكريمات، لكن ميلتشان نفسه لم يتلق الجائزة الكبرى، أى جائزة الأوسكار لأفضل فيلم. فى عام ١٩٩١ كان على وشك نيلها، وكاد يلمسها، إذ تم ترشيح فيلم جيه إف كيه فى ٨ مصنفات، منها أفضل فيلم، لكن جائزة أفضل فيلم كانت من نصيب فيلم صمت الحملان. وعندما توقع تلك النتيجة فى منتصف الحفل، هرع هارباً من قاعة بوروثى تشاندار إلى أقرب حانة ليغرق نفسه فى أى نوع نبيذ متاح.

وبعد ٦ أعوام، فى عام ١٩٩٧، كان واثقاً من فرص فوز فيلمه الجديد إل إيه كوفندينشال بعدما فاز الفيلم بجوائز نقاد أكثر من أى فيلم آخر فى ذلك الموسم. وفى طريقه من باريس إلى لوس أنجلوس لحضور حفل الأوسكار، بصحبة صديقه دونالد ساذرلاند، وجد صعوبة فى كبت حماسه المتزايد وبدأ يجرب خطبة قبول الجائزة بصوت عال،

“قل ما تشعر به فعلاً يا أرنون” قال له ساذرلاند.

بم شعر فعلاً؟ هل شعر بالحزن لأن جده ووالده لم يعيشا ليشهدا قمة إنجازاته؟ هل فكر فى ريتشارد كيلى سميث فى مخبئه أو فى منقاه؟ هل تعاطف مع الآلاف الذين ضحوا من أجل بلده؟

رفع ميلتشان زجاجة وتخليلها جائزة الأوسكار التي كان واثقاً من الفوز بها.
وفجأة وقف، في منتصف قمرة الدرجة الأولى في الطائرة، وبدأ يتحدث وقد غلبه
هدف أسمى وصاح:

"سيداتى وسادتى، أود أن أهدى هذه الجائزة إلى أنور السادات وإسحاق
رابين: شالوم، سلام، بيس".

الحمد لله الذي جعلنا من عباده الصالحين
مولاة وعلينا من عباده الصالحين
مولاة وعلينا من عباده الصالحين

والحمد لله الذي جعلنا من عباده الصالحين
مولاة وعلينا من عباده الصالحين
مولاة وعلينا من عباده الصالحين

لاحقة

خسر فيلم إل إيه كونفنتشيال أو سرى فى لوس أنجلوس أمام فيلم
تايتانيك كفضل فيلم عن عام ١٩٩٧، ومذاك وجائزة الأوسكار تتجنب
ميلتشان.

ولا تزال شركة نيوريجينسى تغمر ثقافتنا بالأفلام الطويلة. ففي صيف ٢٠١٠، عرض فيلم نايت أند داي مع فيلم لاف أند أنذر دراغز أو الحب وعقاقير أخرى من إخراج إد زويك، ويتم الإعداد لأفلام أخرى مثل مارمادوك من إخراج توم داي، وأكبر مقامرة بينها هي فيلم كوكنكويست أو الغزو والمعروف باسم ١٠٦٦، والذي ألفه وأخرجه المخرج الشهير ويليام نيكلسون مخرج فيلم غلاديتور. ويتم الإعداد لفيلم إلفين والسناجب، ومن الآن فصاعداً ستظهر تلك القوارض المغطاة بالفراء في أفلام ثلاثية الأبعاد.

وتُعد ألكساندرا ميلتشان حالياً لقصة جاسوسية مثيرة مستوحاة بشكل عام من الماثر المزعومة لعمل الموساد الإسرائيلي السابق يوفال أبيب، والذي كان مصدر إلهام لستيفن سبيلبيرغ في فيلم ميونيخ. ويُعد والد ألكساندرا مصدر معلومات ذا مصداقية أكبر، لأنه ويخالف أبيب، تتميز مغامراته بأنها حقيقية. تصف ألكساندرا المشروع بأنه

سيكون بمثابة فيلم ذا بورن أيدنتيتى أو هوية بورن بالنسبة للجيل القادم، وهى تفكر فى تايلور لاوتنر بطل فيلم توابلايت أو الشفق لنور البطولة.

فى ١٤ يناير ٢٠١١، وقعت شركة نيوريجينسى وشركة فوكس اتفاقية لمد علاقتهما التوزيعية حتى عام ٢٠٢٢، مع ضمان دور أكثر فعالية لشركة نيوريجينسى فى مجال إصدارات شركة فوكس.

عاد ميلتشان ليقيم بشكل رسمى فى إسرائيل، حيث يشرف على إمبراطوريته العالمية المتنوعة من هناك. ولا يزال يسعى لتحقيق رؤيته السياسية وعلى رأسها فكرة السلام فى الشرق الأوسط. ولا يزال متفانلاً وفى هذا يقول "أخبرنى وارين بياتى ذات مرة أنني إن استمرت ألح على النساء للخروج معى، فستجيب إحداهن فى النهاية. وتلك هى رؤيتى لعملية السلام. نحتاج للاستمرار فى طلبها، وسيستجيب أحد خصومنا".

ذهبت النساء اللاتي عرفهن ميلتشان كل في طريقها الخاص. تزوجت بريجيت غونمير مجدداً من جراح تجميل في باريس، وأنجبت طفلاً آخر، وطُلقت مجدداً. وفي التسعينيات عملت في متجر للملابس في باريس.

انتقلت "أولا" بعدما أطلقت حصانها في الشوارع السكنية لضواحي تل أبيب ورحلت عن إسرائيل وهي تستشيط غضباً، إلى اليونان، ولاحقاً إلى باريانوس، ثم إلى أستراليا، حيث استقرت في النهاية. وجدت أولريكا حباً جديداً وتركت الميدان لصديقتها أسي ناستروم، والتي ظلت على علاقة وثيقة مع ميلتشان لأكثر من ١٢ عاماً. ولا تزال تقيم في قصر موننفورت لاموري على مشارف باريس، ولا يزال أرنون يعولها.

تزوجت إليزابيث مكغافيرن من المنتج الإنجليزي والمخرج سايمون كيرتس عام ١٩٩٢. ويقيمان في لندن ولديهما ابنتان. واستمرت كممثلة متواضعة تركز على عائلتها.

تقيم شونا بيل في مالبو، كاليفورنيا، في ذات الشارع الذي يقع فيه منزل أرنون الشاطئي، ولا تزال على علاقة جيدة برئيسها السابق ووالد طفلتها مايان. ويزور أرنون مايان بشكل منتظم وتجمعهما علاقة أبوية حميمة.

يقول أرنون عن أماندا كويتزر التي روضت الوحش: "أخيراً أشعر وأنا في الـ٦٥ أنني استقرت". ويسافر الاثنان معاً ويربيان ابنهما شمعون كعائلة محبة.

تألم بنيامين بلومبيرغ بشدة جراء فصله التعسفي من منصبه كرئيس لوكالة لاكام. وعاش منطوياً في شقته المتواضعة في تل أبيب وغير اسم عائلته إلى فيريد. في عام ١٩٨٦، أسس وآخرون شركة أسموها أويتوميك تكنولوجيز، لتصنيع الإلكترونيات والليزر لأغراض عسكرية. في عام ١٩٩٨، ترك الشركة لأسباب صحية. وفي احتفال سري في التسعينيات تلقى جائزة إسرائيل للأمن القومي، وهي أكبر جائزة تمنحها إسرائيل للأبطال.

وحقق رافى إيتان مسيرة سياسية ناجحة كرئيس حزب غيل أو المتقاعدين الإسرائيلى. خدم فى الكنيسيت كوزير مفوض بدون وزارة، يقدم المشورة إلى رئيس الوزراء فى شئون الأمن القومى. ومنذ فضيحة بولارد عام ١٩٨٥، تم منع إيتان من السفر إلى الولايات المتحدة، حيث يحتمل أن يتم القبض عليه إذا سافر. يقضى وقت فراغه فى النحت، وأحد أعماله موجود فى غرفة المعيشة فى منزل ميلتشان فى مالىبو.

تم حل وكالة لاكم رسمياً نتيجة لفضيحة بولارد عام ١٩٨٥. لكنها لا تزال تنشط فى أنحاء العالم، باستثناء الولايات المتحدة، تحت اسم جديد.

لا يزال ريتشارد وإمىلى سميث يعيشان مع قططهما فى منتزه المقطورات المجاور للسكة الحديد فى لومويك، كاليفورنيا. ويتكسبان رزقهما المتواضع بعقد نوات عن تجارة السلع فى فندق قريب. عندما قابلناهما، وجدنا صعوبة فى إقناعه بأننا لسنا عملاء فى المباحث الفدرالية، نحيك شركاً جديداً له، وذلك ارتياب مفهوم، نظراً لخبراته الحياتية.

استمرت مساعدة ميلتشان القديمة وكاتمة أسرار ديبورا بن إسحاق، فى العمل فى ميلتشان بروس حتى تقاعدت عام ٢٠٠٠، بعد ٢٥ عاماً من خدمة ميلتشان ولاكام. وتقوم حالياً بعمل تطوعى فى منظمة خيرية اسمها بوش تقدم مساعدات التعليم الخاص للأطفال الفقراء.

ظل رومان بولانكسى قيد الإقامة الجبرية، بمنزله فى غشتاد، سويسرا، ينتظر الترحيل إلى لوس أنجلوس على ذمة قضية عام ١٩٧٧ لممارسته الجنس مع سامانثا غايمر التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها آنذاك. وبالرغم من أن غايمر تنازلت عن القضية، فلا يزال المحامى العام عن لوس أنجلوس يحقق فيها بعد ٢٣ عاماً من وقوعها. وفى ١٢ يوليو ٢٠١٠، أعلنت السلطات السويسرية أنها لن تقوم بتسليم بولانكسى إلى الولايات المتحدة، لوجود خطأ فى الطلب الأمريكى بتسليمه. والآن يعيش بولانكسى حراً

طليقاً حالياً، بالرغم من أن التهم ضده لا تزال قائمة في كاليفورنيا.

لا يزال تيرى غيليام مخرجاً مثيراً للجدل، كانت جيه كيه رولينغ مؤلفة سلسلة روايات هارى بوتر، من المعجبين بأعمال غيليام. ونتيجة لذلك، كان من أول خيارات رولينغ لإخراج فيلم هارى بوتر وحجر الفيلسوف عام ٢٠٠٠ .

بيد أنه، وإزاء تذكرها فيلمى برازيل وذا أدفنشرز أوف بارون مانشوسين، وإدراكها لطبع غيليام الصعب بشكل عام، رفضت شركة وورنر برانرس اختياره كمخرج. وبدلاً منه اختاروا كريس كولومبس لتلك المهمة. وتخلّى تيرى غيليام عام ٢٠٠٦ عن جنسيته الأمريكية ولا يستطيع الآن قضاء أكثر من ٣٠ يوماً فى الولايات المتحدة فى العام.

ولا يزال أوليفر ستون مثيراً للجدل أيضاً، إذ يقضى معظم وقته مع [طاغية أمريكا الجنوبية] هوغو شافيز ويُقبض عليه كثيراً بتهمة حيازة المخدرات.

اكتسبت إسرائيل قدرات الردع النووى الحديثة بسبب الجهود السرية لأناس كثيرين، لكن ميلتشان كان من أهمهم. تم تطوير معظم برنامجها النووى قبل طرح المعاهدات الدولية لمنع الانتشار النووى مثل معاهدة إن بى تى. كان أباء القنبلة الذرية الإسرائيلية نتاج أكثر فترة مروعة فى التاريخ الإنسانى وشاهدين عليها وكانوا مُصرين على عدم تكرار حدوث ذلك مجدداً.

وبمرور الأعوام، تقبلت الولايات المتحدة بشكل ضمنى وضع إسرائيل كالقوة النووية الوحيدة فى الشرق الأوسط.

يتم الآن تقويض تلك الهيمنة من قِبَل نظام إسلامى أصولى فى إيران، نظام يُنكر المحارق النازية ويحفاظ على علاقات وثيقة بمنظمات [إرهابية] مثل حزب الله وحماس، واللذين يمثلان تهديداً قائماً ضد إسرائيل. وللدرد على ذلك التهديد المتنامى، تعمل لأكام

باسمها الجديد والموساد بأقصى طاقة لديهما، حيث تم زرع أجهزة رصد فى كل نظام حاسوبى معروف أرسل إلى إيران على مدار العقد السابق. وفى كل نظام متاح على التقنية، مثل إلكترونيات الطائرات وقطع الغيار، حيث جرى التلاعب فيها.

ومن المعروف على نطاق واسع أن إسرائيل مسئولة بشكل مباشر عن اختراق فيروس ستاكسنت للحواسيب المتحركة فى برنامج تخصيب اليورانيوم الإيرانى، ونابذاته الدوارة. ويعد فيروس ستاكسنت أعقد نظام هجوم سيبرى منذ فجر العصر الرقمى وتسبب فى تأخير برنامج إيران النووى عدة سنوات على الأقل. وفى ١٥ يناير، نشرت صحيفة نيويورك تايمز أن فيروس ستاكسنت تم تجربته فى مفاعل ديمونة النووى، حيث تستخدم إسرائيل نابذات مطابقة لنظيرتها الإيرانية. وكما ذكر لأول مرة فى هذا الكتاب، فإن السبب فى تطابق النابذات الإيرانية والإسرائيلية هو أن كلا البلدين اشترى التصميم من نفس المصدر فى أوائل السبعينيات، أى شركة يورنيكو التى مقرها فى ألمانيا.

لم تنته الحرب التى تم تجنيد ميلتشان من أجلها فى شبابه يوماً، بل أخذت أبعاداً جديدة.

فوجئ ميلتشان عندما أخبرناه أننا كتبنا كتاباً عن حياته، وتركنا له حق الرد. وأملت عليه غريزته الأولى أن يستكشف عمق معرفتنا. وسرعان ما فهم أننا اجتهدنا فى البحث. وخلال بضعة أيام، وجدنا أنفسنا فى سيارة ميلتشان الكاديلاك المصفحة، ذات النوافذ الداكنة والتلفزيون المتصل بالأقمار الصناعية، وفى طريقنا لاجتماع معه فى أحد منازل. توقفت السيارة فى طريق سريع مزدحم أمام باب ضخم ليس لدينا فكرة عما يقبع وراءه. دخلنا من الباب إلى فناء فارغ استوائى الطراز يؤدى إلى باب آخر كان ينتظرنا عنده كبير خدمه جون إنجليزى الجنسية.

ثم دخلنا عالماً متافقاً بالأعمال الفنية الغالية التى تزين كل مساحة ممكنة، وفى

الخلفية أصوات أمواج المحيط الرقيقة وهي تتسارع إلى الشاطئ الرملي. وتم توجيهنا إلى مكتبة صغيرة مكتظة بالكتب الفنية عن كبار الفنانين طوال الـ ٥٠٠ عام الماضية على الأقل.

وصل ميلتشان يرتدى ملابس مريحة مبهجة، لكنه كان يتألم من إصابة حديثة بالكف، وقال باسمًا: "بالغت في لعب التنس، والآن أدفع الثمن". اقترح أن نبدأ بشرب نخب لقائنا وطلب من جون تجهيز جرعات من شراب التيكिला المفضل لديه، مع شرائح الليمون، وزجاجات الجعة.

ثم اصطحبنا في جولة، وهو يعدل نظام الإضاءة المتطور الذي يضئ الأعمال الفنية التي تتجاوز قيمتها مليون دولار في أنحاء المنزل. ثم دخلنا دار عرضه الخاصة المتطورة، حيث يعرض أحدث إنتاجاته، ولاحقاً، إلى صالة الألعاب الشاسعة في الدور السفلى حيث يحاول هزيمة تقدمه في السن.

واضح أنه رجل ودود وساحر عندما يريد، وهو سلوك حرصنا على ألا نخطئه على أنه ضعف أو سذاجة. بدا منفتحاً، لكنه متحفظ للغاية فيما يتعلق بالمعلومات التي يكشف عنها. فقط عندما يواجه بدليل قوى لا يروقه، يميل إلى التخلي عن تحفظه. هذا هو ميلتشان.

عندما أخبرنا سامر ريستون أحد أباطرة الإعلام أنه يعتبر ميلتشان "السيد إسرائيل"، لم يكن لديه فكرة كم كانت عاطفة صانقة. إن استطاع المرء تخيل شخص واحد بالغ الأهمية في الوسط يعرف كل شيء عن التاريخ الأسود لحروب إسرائيل السرية، فلن يكون الشخص سوى هذا المنتج المخضرم، الذي يقضى حياته متنقلاً باستمرار بين عوالم الشهرة والسرية، والخيال والواقع، والحرب والسلام.

صادر من هذه

السلسلة

- ١- محمد (ص)
- ٢- صدام الحضارات
- ٣- عصر الجينات
- ٤- القدس
- ٥- العولة والعولة المضادة
- ٦- التاريخ السرى للموساد
- ٧- من يخاف استنساخ الإنسان؟
- ٨- حريم محمد على
- ٩- عولة الفقر
- ١٠- صور حية من إيران
- ١١- البحث عن العدل
- ١٢- لورانس: ملك العرب غير المتوج
- ١٣- الصهيونية تلتهم العرب
- ١٤- معارك فى سبيل الإله
- ١٥- التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية
- ١٦- التسوية: أى أرض.. أى سلام
- ١٧- المكنز الكبير
- ١٨- الحق يخاطب القوة
- ١٩- نساء فى مواجهة نساء
- ٢٠- مؤامرة الغرب الكبرى
- ٢١- روسيا.. إلى أين
- ٢٢- موسوعة الأم والطفل
- ٢٣- الخدعة الرهيبة
- ٢٤- نهاية الإنسان
- ٢٥- خدعة التكنولوجيا
- ٢٦- ٣٦٥ حقوة وحقوة
- ٢٧- بوش ضد العراق ... لماذا؟
- ٢٨- أين الخطأ؟
- ٢٩- اللولب المزدوج
- ٣٠- رجال بيض أغبياء
- ٣١- سادة العالم الجدد
- ٣٢- الخطيئة الأولى لإسرائيل
- ٣٣- اللعب مع الصغار
- ٣٤- الإبادة السياسية
- ٣٥- حكومة العالم السرية
- ٣٦- ما بعد الإمبراطورية
- ٣٧- بوش فى بابل

- ٣٨- المقاومة العراقية.. ومستقبل النظام ■ ٥٥- لغز اسمه الالم
الدولى
٣٩- تزيف الوعى ٥٧- أحمد مستجير
٤٠- القانون فى خدمة من ؟ ٥٨- العين بالعين
٤١- كفى ٥٩- شافيز
٤٢- معنى هذا كله ٦٠- قصص الأشباح
٤٣- حياة بلا روابط ٦١- حزب الله
٤٤- ٣٦٥ حدوة وحدوة ٦٢- الإنسان هو الحل
٤٥- أنا والعولة .. عالم بديل ممكن.. ٦٣- السيارات المفخخة
٤٦- جسدى سلاحاً ٦٤- بلاكووتر
٤٧- ثالوث الشر ٦٥- حضارتهم وخلصنا
٤٨- الحضارة الإسلامية المسيحية ٦٦- نحو الحرية.. نلسون منديلا
٤٩- أمريكا العظمى.. أحزان ٦٧- العهد
الإمبراطورية ٦٨- مزرعة الحيوانات
٥٠- الطريقُ إلى السُوَيْرْمَان ٦٩- أطفال الإنترنت
٥١- مدربون على القتل ٧٠- لعبة الملايين
٥٢- معاداة السامية الجديدة ٧١- تجارة الجنس
٥٣- إبادة العالم الثالث ٧٢- الأمريكى الساذج
٥٤- بيولوجيا الخوف ٧٣- الأبرياء

- ٧٤- الشباب والجنس
- ٧٥- التربية من عام إلى عشرين عام
- ٧٦- فلورانس وإدوارد
- ٧٧- الجهاد في سبيل الحقيقة
- ٧٨- غاندى (٢)، رؤى، تأملات، اعترافات
- ٧٩- شرف البنت
- ٨٠- الزواج المحرم
- ٨١- أنبياء مزيفون
- ٨٢- إمبراطورية العار
- ٨٣- اختطاف أمريكا
- ٨٤- شريعة الجستابو
- ٨٥- رومانسية العلم
- ٨٦- اختفاء فلسطين
- ٨٧- من هم إسرائيل
- ٨٨- ثلاثون كتاباً في كتاب
- ٨٩- اقتصاد الاحتيال البريء
- ٩٠- الله.. لماذا؟
- ٩١- الأمراض المعدية
- ٩٢- الطريق إلى بئر سبع
- ٩٣- مجمع الشيطان
- ٩٤- في ذكرى المقاومة
- ٩٥- خطايا تحرير المرأة
- ٩٦- دساتير من ورق؟
- ٩٧- صنّاع الملوك
- ٩٨- صناعة الأكاذيب
- ٩٩- عندما تحكم الصين العالم
- ١٠٠- الحركة العامة للاقتصاد المصرى
- في نصف قرن
- ١٠١- رحلة السندباد
- ١٠٢- وجه أوباما الأبيض
- ١٠٣- تشى جيفارا سيرة للنشء
- ١٠٤- أنا أقترض.. أنا موجود
- ١٠٥- قصة فيس بوك
- ١٠٦- غواية الرجال
- ١٠٧- بيل جيتس
- ١٠٨- تأثير إيران ونفوذها في المنطقة
- ١٠٩- المعرفة في خدمة الهيمنة
- ١١٠- البيتلز «سيرة للنشء ٣»

- ١١١- أسامة بن لادن «سيرة للنشر ٤»
- ١١٢- «كاليجولا» مسرحية من ٤ فصول
- ١١٣- المسلمون الافتراضيون
- ١١٤- القاعدة نهاية تنظيم. أم انطلاق تنظيمات؟
- ١١٥- مافيا إخفاء الأموال المنهوبة
- ١١٦- البولة الدينية فى اليهودية والمسيحية والإسلامية
- ١١٧- مُرشد الوالدين
- ١١٨- أجيال فى خطر
- ١١٩- العرب.. رواد الفكر الاقتصادى
- ١٢٠- تركيا الأمة الغاضبة
- ١٢١- انقراض العالم الثالث
- ١٢٢- الثورة العربية والثورة المضادة أمريكية الصنع
- ١٢٣- الأقصى ينهار
- ١٢٤- مرشد المحتجين والثوار
- ١٢٥- الطاقة - لعبة الكبار.
- ١٢٦- الإسلاموفوبيا
- ١٢٧- مصر كما تريدها أمريكا
- ١٢٨- حروب المياه
- ١٢٩- الدين ووظائفه السياسية
- ١٣٠- خطباء المساجد: من الدّعوة إلى التحريض.
- ١٣١- عالم بلا إسلام؟
- ١٣٢- دليل الاستبداد والمستبدّين.
- ١٣٣- يهود «هوليوود».
- ١٣٤- «عزيزتى لورا» لغز وفاة المستر كورزييه.
- ١٣٥- الإخوان المسلمون بين المعارضة والسلطة.
- ١٣٦- رسائل من مصر.
- ١٣٧- السودان.. صراعات المصالح ورهانات المصير.
- ١٣٨- الفيروسات عواصف وقواصف.
- ١٣٩- الحجاب؟ الأصول - التنوعات - التداعيات.

٧	إهداء
٩	مقدمة المترجم أو... الخلاصة
١٥	تمهيد
٢١	١- رجل يحترق
٢٧	٢- العهد الجديد
٣٩	٣- للمرأة وجهان
٥١	٤- ست درجات من الانفصال
٦١	٥- لا تتطرق بكلمة واحدة
٨١	٦- الجمال الخطير
٩٧	٧- العميل
١١٩	٨- الرجل الذي عرف أقل مما يجب
١٣٩	٩- تحت الحصار
١٥٥	١٠- محامي الشيطان
١٧١	١١- الوحل
١٨٧	١٢- منذب بالاشتباه
٢١١	١٣- كان ياما كان في «أمريكا»
٢٣٣	١٤- السقوط إلى الهاوية
٢٤٩	١٥- نادى القتال
٢٧١	١٦- السيد سميث وزوجته
٢٨٥	١٧- امرأة جميلة
٢٩٧	١٨- الفخ
٣١٥	١٩- المفاوضات
٣٤١	٢٠- مدينة الملائكة
٣٥٧	٢١- الوثأب
٣٦٧	لاحقة